الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحيى –جيجل –

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

المسموع والشّاهد في "معاني القرآن" للفرّاء

–الجزء الأوّل نموذجا–

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر

تخصص: لسانيات عربية

إعداد الطالبة:

مليكة مهرهرة

إشراف:

أ.د.عبد الحميد بوكعباش

السنة الجامعية: 2019–2020 م/ 1441–1442 هـ

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحيى –جيجل –

كلية الآداب واللغات

قسم الأدب واللغة العربية

المسموع والشّاهد في "معاني القرآن" للفرّاء

–الجزء الأوّل نموذجاً–

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماستر

تخصص: لسانيات عربية

إعداد الطالبة:

مليكة مهرهرة

إشراف:

أ.دعبد الحميد بوكعباش

السنة الجامعية: 2019–2020 م/ 1441–1442 هـ

المسموع والشّاهد في "معاني القرآن" للفرّاء

-الجزء الأوّل نموذجاً-

إعداد الطالبة:

مهرهرة مليكة

إشراف:

عبد الحميد بوكعباش

أعضاء لجنة المناقشة

	اسم ولقب الأستاذ	الرتبة العلمية	الصفة
1	أ. سليم لطرش	أستاذ مساعد-أ-	**رئيسا**
2	د. عبد الحميد بوكعباش	أستاذ التعليم العالي	**مشرفا**
3	أ.جمال بوسنون	أستاذ مساعد-أ-	**ممتحنا**

السنة الجامعية 2019- 2020م/ 1441- 1442هـ

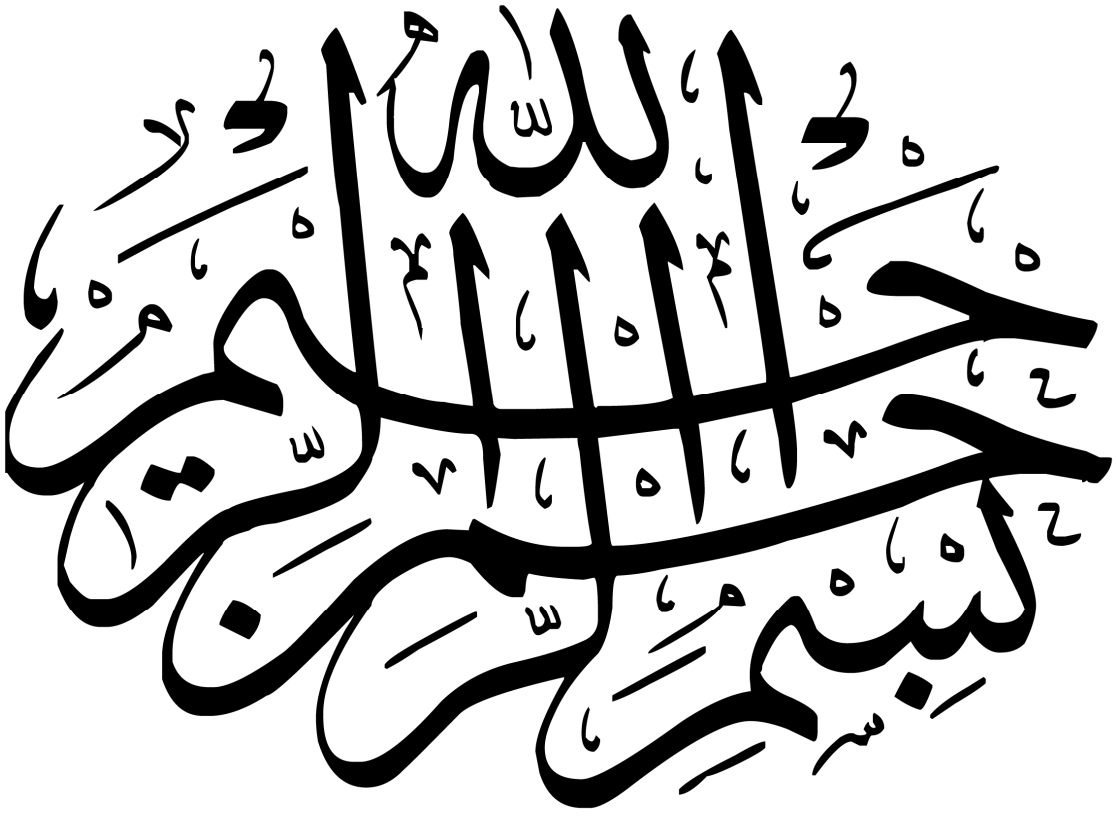
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قال ربّ اشرح لي صدري(24) ويسّر لي أمري (25) واحلل

عقدة من لساني(26) يفقهوا قولي(27)﴾

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ففهّمناها سليمن وكلاّ آتينا حكمًا وعلمًا وسخّرنا مع

داوود الجبال يُسبّحن والطّير وكنّا فاعلين(78)﴾

سورة الأنبياء

شكر خاص

أتقدّم بجزيل الشّكر إلى الأساتذة الكرام التّالية أسماؤهم على الدّعم المعنوي النّابع من تقدير العلم واحترام طالبه، الّذي لم يتأخروا في تقديمه لنا طيلة خمس سنوات

1- الأستاذ/ د جحيش نجيب

2- الأستاذ/د مبارك حدّاد

3- الأستاذ/ د خبراج(جامعة تلمسان)

4- الأستاذ/ د فنيط جمال

5- الأستاذ/د فعرور

6- الأستاذ/د أعبيد

7- الأستاذ/ د بولحية محمد

8- الأستاذة/د شويط

9- الأستاذة/د بوحوش

10-الأستاذة/د ماضي نوال

11-الأستاذة/د شاكور مسعودة

12-الأستاذة/د تاسوكاي

13-الأستاذة/د بورويس

وإلى كل الأساتذة الّذين قدّموا لنا العلم وأناروا لنا درب البحث عن الحقيقة

كما أتقدّم بالشّكر الخاصّ إلى طاقم ثانوية عسعوس فرحات بحراثن بدءًا بالسّيد المدير المحترم ليول عمّار على تفهّمه والسّيد النّاظر بولحديد محمّد وكلّ زملاء مادّة الإنجليزية: إلهام، سميرة، نهلة، أحلام بفرنسا، وكلّ زملائي أساتذة باقي المواد على دعمهم المعنوي طيلة خمس سنوات.

فهرس المحتويات

البسملة

الدّعاء

الإهداء.....أ

الشّكر والعرفان.....ب

شكر خاصّ.....ج

فهرس المحتويات.....د- ح

فهرس الجداول.....ط

فهرس الأشكال.....ي

مقدّمة.....12-17

مدخل.....19-23

واضع النّحو.....19-21

أصول النّحو: تعريفه ونشأته.....21-23

الباب الأوّل: المسموع والشاهد في التراث النحوي العربي ومزاعم المستشرقين بخصوص الجهود النحوية العربية التراثية

الفصل الأوّل:المسموع/السّماع في التّراث النّحوي العربيّ

المبحث الأوّل: المسموع/السّماع.....**26**

المطلب الأوّل:المسموع لغة.....26

المطلب الثّاني:المسموع اصطلاحا.....26-28

المبحث الثّاني:أقسام المادّة اللّغوية المسموعة.....**28-32**

المطلب الأوّل: السّماع المباشر والرواية..... 29-32

فهرس المحتويات

المبحث الثّالث:مصادر السّماع.....**32-33**

المطلب الأوّل:النّصوص المحفوظة في الصّدور.....33-40

أوّلا: القرآن الكريم وقراءاته.....33-38

ثانيّا: الحديث الشّريف.....38

ثالثا: الشّعر الجاهلي وشعر المخضرمين.....38-40

المطلب الثّاني: النّصوص الحرّة العفويّة.....40-42

المطلب الثّالث: العرب المسموع عنهم.....42-43

المبحث الرّابع: حدود السّماع.....**43-51**

المطلب الأوّل: حدود السّماع المكانيّة.....43-46

المطلب الثّاني: حدود السّماع الزّمانية.....47-51

الفصل الثّاني:الشّاهد النّحوي في التراث العربي النحوي

تمهيد.....**53**

المبحث الأوّل: تعريف الشّاهد النّحوي.....**54-58**

المطلب الأوّل: الشّاهد لغة واصطلاحا.....54-55

المطلب الثاني: الفرق بين الاستشهاد والاحتجاج من خلال تعريفهما.....56

أوّلا: تعريف الاستشهاد(لغة و اصطلاحا) 56

ثانيّا:تعريف الاحتجاج(لغة واصطلاحا) 56-58

المبحث الثّاني: عصر الاحتجاج وحدود الفصاحة.....**58-64**

المطلب الأوّل: مفهوم عصر الاحتجاج.....58

المطلب الثّاني: حدود الفصاحة.....58-59

المطلب الثّالث: طبقات الشّعراء في عصر الاحتجاج.....59

فهرس المحتويات

أوّلا: طبقة الشّعراء الجاهليين.....59-60

ثانيّا: طبقة الشّعراء المخضرمين.....60-61

ثالثا: طبقة الشّعراء الإسلاميين.....61-62

رابعا: طبقة الشّعراء المولّدين.....62-64

المبحث الثّالث: مصادر الشّاهد النّحوي.....64-66

المبحث الرّابع: العلاقة بين المسموع والشّاهد.....66-68

الفصل الثّالث:مزاعم المستشرقين بخصوص الجهود النّحوية العربيّة والردّ عليهم

تمهيد.....70

المبحث الأوّل: مفهوم الاستشراق ونشأته وتطوّره.....70-72

المطلب الأوّل: مفهوم الاستشراق.....70-71

المطلب الثّاني: بداية حركة الاستشراق وتطوّرها.....71-72

المبحث الثّاني: مزاعم المستشرقين بخصوص طبيعة المادّة اللّغوية ومدى إهمال اللّهجات والردّ عليهم.....73-80

المطلب الأوّل: مزاعم المستشرقين بخصوص طبيعة المادّة اللّغوية.....73-74

المطلب الثّاني: الردّ عليهم.....75-80

المبحث الثّالث: الطّعن في صحّة المادّة المجموعة عن طريق الرّواية والردّ عليهم.....81-90

المطلب الأوّل: طعن المستشرقين في فكرة وجود الرّواية ومصداقية المرويّات..... 81-85

المطلب الثّاني: الردّ عليهم.....85-90

المبحث الرّابع: الطّعن في مدى سلامة المنهج وكمال الاستقراء والردّ على ذلك.....91-97

المطلب الأوّل: الطّعن في مدى سلامة منهج النّحاة وكمال الاستقراء.....91-93

المطلب الثّاني: الردّ عليهم.....93-97

الباب الثّاني: المسموع والشّاهد في الجزء الأوّل من "معاني القرآن" للفرّاء والرد على مزاعم المستشرقين من خلال دراسة هذا الجزء

تعريف الفرّاء.....100-107

تقديم كتاب "معاني القرآن".....108

ثالثا: الجزء الأوّل من "معاني القرآن" بين ظاهر العنوان وحقيقة المحتوى.....109-111

الفصل الأوّل: المسموع والشّاهد في الجزء الأوّل من"معاني القرآن"

تمهيد.....113-114

المبحث الأوّل: أقسام السّماع.....**114-119**

المطلب الأوّل:السّماع عن طريق المشافهة المباشرة..... 114-116

المطلب الثّاني: السّماع عن طريق الرّواية.....116-119

المبحث الثّاني: مصادر المسموع/الشّاهد في الجزء الأوّل من "معاني القرآن".....**119-141**

المطلب الأوّل: القرآن الكريم وقراءاته.....119-126

المطلب الثّاني: الحديث الشّريف.....127-130

المطلب الثّالث: كلام العرب.....130

أوّلا: الشّواهد الشّعرية.....130-138

ثانيّا: الشّواهد النّثرية.....138-141

الفصل الثّاني: الرّد على مزاعم المستشرقين من خلال الجزء الأوّل من "معاني القرآن"

المبحث الأوّل: مدى اعتماد الفرّاء على العربيّة الفصحى واللّغة الأدبيّة وإهماله اللّهجات العربيّة. 143-152

المطلب الأوّل: إحصاء اللّهجات العربيّة المعتمدة بدل لهجة قريش.....143-148

المطلب الثّاني: مصادر المادّة اللّغوية في الجزء الأوّل من الكتاب ومدى تطابق لغتها.....148

فهرس المحتويات

أوّلا: مصادر المادّة اللّغوية.....148-149

ثانيّا: إثبات تطابق لغة القرآن والشّعر والتّخاطب اليومي.....149-152

المبحث الثاني: مدى تشدّد الفرّاء في الرّواية ومدى ضبطه للسّند.....152-157

المطلب الأوّل: مدى تشدّد الفرّاء في الرّواية.....152-155

أوّلا: سماعه فصحاء العرب.....152-154

ثانيّا: سماعه من فصحاء الأعراب والرّواة الثّقاة.....154-155

المطلب الثّاني: مدى ضبط الفرّاء للسّند.....155-157

المبحث الثّالث: مدى كمال وشمولية استقراء الفرّاء في الجزء الأوّل.....158-161

المطلب الأوّل: حجم مدوّنة الفرّاء.....158-160

المطلب الثّاني: منهج الفرّاء في مسح المادّة اللّغوية.....160-161

الخاتمة.....163-168

المصادر والمراجع.....170-174

الملاحق.....176-189

فهرس الجداول

رقم الجدول	عنوان الجدول	الصّفحة
01	– شعراء العصر الجاهلي –حسب ما جاء به عبد	39
02	الرحمن الحاج صالح	80
03	– كلمة"لغة": تطوّر معناها من الجاهيلية إلى وقتنا الحاضر	144
	– جدول يبين معظم القبائل العربيّة الّتي ذكرت لغاتها في الجزء الأوّل من "معاني القرآن"	

قائمة الخرائط والمخططات البيانية

الشكل	الصفحة
1-خريطة تبيّن توزيع قبائل العرب في العصر الإسلامي	**46**
2-مخطّط بياني يبيّن إحداثيات الفصاحة الزّمكانية وتطوّر تدوين اللّغة	**51**

مقـــدمـــة

مقدمة:

الحمد لله العظيم، رب العرش الكريم الّذي نزّل الكتاب بالحقّ على نبيّه الكريم، وجَعل العِلم أوّل ما أمر به، في الذّكر الحكيم، والصّلاة والسّلام على نبيّه الّذي كان للبشريّة سِراجًا، وكان نعم المعَلّم، أما بعد:

يَنْدرج "أُصُول النّحو" ضمن العلوم اللّغوية الّتي اعْتنى بها النُّحاة العَرب مُنْذ بداية اهْتمامهم بالتّقعيد للعربيّة، بُغْية الحدّ من ظاهرة اللّحن الّتي بدأت في الظّهور في عهد الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، حتى طالت النّص القرآني، ثم تفشّت حتّى خِيفَ على مَعَانِيه ومضامينه وأحكامه من الزَّيْفِ، والغَلط، وموضوع بحثنا بكونه ينتمي إلى هذا الميدان، يُعالج مسألة جوهريّة في مسيرة الدّرس اللّغوي النّحوي العربيّ، حيْثُ يدرس الأصل الأوّل من أصول النّحو (السّماع) عند النّحاة العرب، ويبحث في طبيعة العلاقة بين المسموع والشّاهد النّحوي في كتاب "معاني القرآن" للفرّاء من جهة، وفي مواقف المسْتشرقين بخصوص الجهود العربيّة التراثيّة في هذا الشّأن، حيث وَجَّهُوا سُهمًا تَحُطّ مِنْ قيمة هذه الجُهود، بدءًا بطعنهم في مصداقية المسموع أيْ، المدوّنة العربيّة الّتي اشْتغل عليها النُّحاة من حيث محدوديّتها[*] واعْتمادها على اللّهجات العربيّة، ومن حيث طُرق جمعها، فطَعنوا في الرّواية وصِدق الرّواة، وشكّكوا حتى في حقيقة وجود الشّعر الجاهلي، وسلامة النّص القرآني من التّحريف، وعلى هذا الأساس، طعنوا في سلامة المنهج العِلمي الّذي اتَّبعَه النُّحاة العرب، واتّهموا الاِسْتقراء الّذي قام به النّحاة الأوائل بالنّقص والقُصُور، كونه طبّق على تلك المدوّنة المحدودة، وهكذا باتت هذه الأحكام الغربية، في حقّ الجهود النّحوية العربيّة، دافعًا قويًّا للبحث في المسألة وتقصّي الحقائق، من أجل الوصول إلى نتائج تُثْبِتها أو تُفَنِّدها، خاصّة وأنّ الإطّلاع الواسع على كتب النّحو العربي و أصوله يُثِير كثيرًا من الشّك في ذِهْن الباحث، نظرًا لضخامة ما صُنِّف في هذا الميدان، وكذلك الإنْسِجام الكبير والطّرح السّليم والممنهج في العديد من المصنّفات التّراثيّة، في زمن غَابَ فيه التّنظِير للمنهج والتّأطير للمُصَنِّفْ.

[*] اِعتبروا الشواهد النحوية في كتب التراث ممثلة لكل المسموع، والحقيقة أنها عينة منه لا كلّه.

وتكمن أهميّة الموضوع في إتاحة فرصة للعودة إلى كُتُب التُّراث العربي، وإعادة قراءتها قراءة مبنيّة على أُسس عِلْميّة مَحْضَة، باتِّخاذ المنهج الوصفي سبيلاً لتقصّي الحقائق، وإحْصاء العناصر والوَحَدات، ووَصْف الظّواهر، وِفْقَ تدرّج منطقي في طرح الأفكار، وترتيبها، وتصنيفها بالكيفيّة الّتي تُمَكِّنُنَا من إعادة النّظر في مزاعم المسْتشرقين السّابقة، كما تَكْمُن أهميّة هذا الموضوع في المكانة العِلْميّة للمُصَنَّفْ "معاني القرآن" والفرّاء من جهة، والتّقصير الشّديد من قبل الدّارسين العرب في البحث في "النّحو الكوفي"، وإغْفال فضائل هذا المذهب اللّغوي، مقارنة بالدّراسات الكثيرة المشِيدة والمنْحَازة إلى المذهب المعارض له "النّحو البصري"، خاصّة وأنّ بعض الدّراسات الغربيّة الحديثة قد بدأت في إعادة النّظر في أحكامٍ أصدرها الغرب من قبل في حقّ الجهود العربيّة التّراثيّة عمومًا، بعد رسم معالم الدّرس اللّساني الغربي الحديث(*) ، بشأن جهود نحاة الكوفة.

والجديد في الموضوع ليس "أصل السّماع" فمجاله أصول النّحو، وهو قديم ومَطروق مُنْذ التّأسيس لهذا العلم، ولا "المسموع والشّاهد" بصِفَة عامّة، بل إنّ الجِدَّة في هذا البحث تَكْمن في طريقة التطرّق للموضوع، وزاويّة مُعَالجته، حيث يَصِف لَنَا أَهَمّ ما يتعلق بالمسموع والشّاهد في الجزء الأوّل من "معاني القرآن"، ويعيد النّظر في طبيعة العلاقة بينهما، وحقيقتها بِطَرْح جديد مُخَالِفٍ لما هو معروف في الأوساط العلميّة(**)، وقد اخترنا المنهج الوصفيّ الأنْسَب لمعالجة هذه الموضوع لأنّه يعتمد كثيرًا على إجراءات الإحصاء، والتّمثيل، والتّصنيف، والتّحليل والمقارنة، بهدف مواجهة مزاعم المستشرقين في محاولة الوصول إلى نتائج علميّة، بخصوص طبيعة المدوّنة المسموعة وعلاقتها بالشّواهد النّحوية في الجزء المختار من الكِتاب، وحجمها وآليّة جَمْعِها، ومَنْهَجِ دِرَاسَتِها بُغْيَة التوصّل إلى قواعد العربيّة الّتي تحكمها، وتضمن سلامتها من اللّحن والتّحريف.

(*) أصبح اللسانيات الحديثة تنادي بدراسة الكلام (السماع مطلوب)، وضرورة الخروج إلى البيئات السليقية بدلا من دراسة القوالب اللغوية الجامدة في النصوص المكتوبة، كما أقرّ بعض القرين بسلامة منهج الكوفيين عند تقعيدهم للّغة، ورأوا في التوسّع في جمع اللّغة والأخذ عن كلّ الطبقات مزيّة.

(**) يعتقد معظم الدّارسين من العرب والغرب أنّ المسموع هو نفسه الشّواهد في كتب التّراث.

والبحث في هذا المجال لم ينطلق من فراغ، بل قمنا بالإطّلاع على دراسات سابقة، حتّى وإن كانت مختلفة عن طرحنا، استطاعت أنْ تُنِيرَ طريق البحث، وساعدت في ضبط الخطّة الّتي سار عليها، أمّا الّتي كانت تُؤيّد ما نذهب إليه، فساعدت في توفير الحُجَج والبَرَاهِين لدعم ما يَتَبنّاه البحث من مواقف وآراء تخصّ موضوعه، ونذكر منها: دراسات تَخُصُّ أصول النّحو عامّة، حيث وجّهت البحث بشكل عامّ نحو جُهود محمّد عيد في "أصول النّحو العربي وعلم اللّغة الحديث" وفي "الاستشهاد والاحتجاج باللّغة"، وجُهود خديجة الحديثي في"المدارس النّحوية" وكذلك ما أتى به أحمد أمين في"ضحى الإسلام"، والدّراسات الّتي تخصّ الشّاهد النّحوي فنذكر منها: "الشّاهد النّحوي" وهو بحث أكاديمي لمأمون تَيْسِير محمّد بركة، وكذلك "الشّذوذ في الشّاهد الشّعري" لنورة ناهد ضيف الله، وغيرها من الدّراسات الّتي أفدنا كثيرا من تجاربها.

ولأجل سهولة البحث في الموضوع، قُمْنا بتأطيره وحصره في الإشكاليّة التّاليّة: ما حقيقة العلاقة بين المسموع والشاهد في النّحو العربي القديم؟ وما مدى علميّة عمليّة التّقعيد للّغة بناءً على هذه الحقيقة؟ وللبحث في حقيقة العلاقة القائمة بين المسموع والشّاهد، كان من الجدير بنا طرح التّساؤلات الفرعيّة التّالية الخاصّة بالمسموع: ما المسموع؟ وما السّماع؟ وما هي أقسامه؟ ومصادره؟ وحدوده؟ من جهة، ومن جهة أخرى، طرح التّساؤلات الفرعيّة الخاصّة بالشّاهد النّحوي نحو: ما الشّاهد؟، و ما الفرق بين الاستشهاد والاحتجاج في العربيّة؟ وما هي مصادر الّشاهد النّحوي؟ وذلك ليسهل علينا الوصول إلى حقيقة العلاقة بين المسموع والشّاهد.

أمّا فيما يخصّ البحث في مدى علميّة عمليّة التّقعيد للّغة العربيّة، فطرحنا التّساؤلات الفرعيّة التّاليّة المتعلّقة بحقيقة الاسْتِشْراق، وأحكام المسْتشرقين على الجُهود النّحوية العربيّة نحو: ما مدى نجاعة الدّرس النّحوي العربي بناءً على طبيعة المادّة اللّغوية المجموعة؟ وما مدى تحرّج النّحاة العرب في الرّواية؟ وما مدى صدق الرّواة؟ وما مدى سلامة منهج العرب في عمليّة التّقعيد للعربية؟ ومدى شموليته؟ وللإجابة عن إشكالية البحث ومجمل التّساؤلات الفرعية اخترنا الخطّة التّالية:

قدّمنا في المدخل فكرة عن واضع النّحو، وماهية أصول النّحو ونشأته، ثم قسّمنا البحث إلى بابين: الأوّل نظري بعنوان "المسموع والشّاهد في التّراث النّحوي العربي ومزاعم المستشرقين بخصوص الجهود النحوية العربية"، يَنْضَوِي تحته ثلاثة فصول، الفصل الأوّل بعنوان: "المسموع في التّراث النحوي العربي"، وهو بدوره ينقسم إلى أربعة مباحث تختصّ بالبحث في التّعاريف الخاصّة بالمسموع والسّماع في المبحث الأوّل، وأقسام المادّة اللّغوية المسموعة في المبحث الثاني، ومصادر السّماع في المبحث الثالث، أما المبحث الرّابع فيدرس حدود السّماع المكانية والزّمانية.

والفصل الثّاني بعنوان: "الشّاهد النّحوي في التّراث العربي" حيث تَنْضَوِي تحته أربعة مباحث كمايلي:

المبحث الأوّل، قدّمنا فيه مختلف المفاهيم الخاصّة بالشّاهد النّحوي لغة واصطلاحا، والمبحث الثاني، فصّلنا في مفهوم عصر الإحتجاج وحدود الفَصَاحة، والمبحث الثالث ذكرنا فيه مصادر الشّاهد النّحوي، أمّا المبحث الرّابع فقمنا فيه بِتِبْيَان العلاقة بين المسموع والشّاهد.

أمّا الفصل الثّالث فهو بعنوان: "مزاعم المستشرقين بخصوص الجهود النّحوية العربية والرّدّ عليهم"، وقد خصّصناه للإجابة عن الشقّ الثّاني من التّساؤلات الفرعيّة المتعلّقة بإشكاليّة البحث، وقد انْضَوَتْ تحته أربعة مباحث وهي كالتالي:

المبحث الأوّل قدّم فكرة عن حقيقة الاسْتشراق، وظهوره وتطوّره، والمبحث الثّاني تناول طبيعة المادّة اللّغوية المجموعة من طرف النّحاة الأوائل، ومدى اُعتمادهم على اللّهجات، والمبحث الثّالث، بحث في مدى تحرّجهم في الرّواية، ومدى صدق الرّواة ومصداقية مرويّاتهم، أمّا المبحث الرّابع، فقد تتبّع منهج النّحاة الاسْتقرائي، و ظهور مصطلح "الاسْتقراء" عند العرب وقارنه بالإجراء الاسْتقرائي الّذي كان حاضرًا عندهم، وبَحَثَ في المصطلح المَوَازِي له في التّراث العربيّ، من جهة، ومن جهة أخرى، حَاوَلَ دِراسَة مدى سعة المادّة اللّغوية المجموعة (المدوّنة العربيّة) الّتي اشتغل عليها النّحاة، ومدى شمولية استقرائهم لها، بناءً على ما طرحناه في الفصلين الأوّل والثّاني من هذا الباب.

أمّا الباب الثّاني، وهو بعنوان "المسموع والشّاهد في الجزء الأوّل من "معاني القرآن" للفرّاء" والرد على مزاعم المستشرقين من خلال هذا الجزء، ونظرا للوصول في الجزء النّظري، من هذا البحث، إلى أنّ الشّاهد هو جزء من المسموع الإجمالي، فقد قسّمناه إلى فصلين، و أطلقنا على الفصل الأوّل منه: "المسموع والشّاهد في الجزء الأوّل من "معاني القرآن" للفرّاء"، والّذي يَنْضَوي تحته مبحثان، الأوّل يخصّ أقسام المادّة المسموعة والثّاني مصادر المسموع/الشّاهد في هذا الجزء من الكتاب، وقد فصّلنا في مختلف المطالب الّتي من شأنها الإجابة عن كلّ التّساؤلات الفرعيّة المتعلّقة بإشكاليّة البحث.

أمّا الفصل الثّاني، فجاء في مجمله ردّا على التّهم والمزاعم الّتي ادّعاها بعض المستشرقين في حقّ الجهود النّحويّة العربيّة، والّتي مردّها السّطحيّة في تناول جهود النّحاة العرب، وجهلهم باللّغة ومضامينها، إلى جانب الأحكام المسبقة الّتي تتنافى مع موضوعيّة أي طرح علمي، وقد انضوت تحته ثلاث مباحث: الأوّل تناول طبيعة لغة الفرّاء المجموعة، والثّاني عرض مدى تحرّج الفرّاء في الرّواية، ومدى صدق الرّواة ومصداقية مرويّاتهم، أمّا المبحث الثّالث فتتبّعنا فيه منهج الفرّاء في استقراء مادّته الّتي اشتغل عليها بعد إثبات مدى سعتها.

ووصلنا في الأخير إلى بعض نتائج البحث وبعض الاقتراحات صُغْنَاها في خاتمة على شكل نقاط لخّصت أهمّ الحقائق الّتي تخصّ المسموع في التّراث النّحوي العربيّ، وفي الجزء الأوّل من "معاني القرآن" والحقائق الّتي تخصّ الأحكام الموضوعيّة بخصوص الجهود النّحويّة العربيّة، ودحض مزاعم المستشرقين في هذا الشّأن.

وقد اعتمدنا على بعض المصادر التراثية ككتاب"أصول النّحو" لابن السرّاج، و"لمع الأدلّة" للأنباري، و"الاقتراح"، و"المزهر" للسيوطي، و"الخصائص" لابن جنّي، واعتمدنا كذلك على مختلف كتب التّراجم والسّير والطّبقات مثل: "طبقات النّحويين واللّغويين" للزّبيدي، وكتاب"نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء" للأنباري، وكتاب"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان" لابن خلكان، وغيرها...وقد كان الإكثار من الاطّلاع على مثل هذه الكتب يهدف إلى جمع أكبر قدر ممكن من الحقائق عن مختلف الأعلام، والرّوايات المتعلّقة بموضوع بحثنا، وقد

اخترنا كتاب "معاني القرآن" للفرّاء، وهو أهمّ المصادر الّتي أفدنا منها في هذا البحث، للتّطبيق على مادّته في كلّ ما ذهبنا إليه من آراء ومواقف تخصّ الإجابة عن إشكاليّة البحث.

أمّا المراجع الّتي اعتمدناها فكانت متنوّعة مكّنتنا من رسم الخطّة الّتي سِرنا عليها، نذكر منها: كتاب "أصول التّفكير النّحوي"لعلي أبو المكارم، و"أصول النّحو العربيّ" لمحمّد عيد، وكتاب"المدارس النّحويّة" للسّمرّائي، وكان كتاب"السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة" لعبد الرّحمن الحاج صالح أهمّ مرجع في هذا البحث إلى جانب كتاب"منطق العرب في علوم اللّسان" لنفس الباحث الّذي اعتمدناه كثيرًا في اكتشاف منهج العرب في الدّراسات النّحوية.

وكأيّ بحث علميّ، لم يخلُ بحثنا من بعض عقبات الّتي تمكّنا من تجاوزها حبًّا في البحث، ورغبة في الوصول إلى إجابات موضوعية عن إشكالية البحث، وكذلك أملاً في إضافة جديدة لقائمة البحوث الحديثة الّتي تفتّش في التّراث وتستخرج نفائس القدماء وجواهر العلماء المحفوظة بين دفّات مصنّفاتهم.

وبعد هذا العرض المختصر لمضمون البحث أسأل الله تعالى أن يجد عملي هذا القَبُول، ويجعله في درجة العلم النّافع، فهو المجيب المستجيب، فإن أخطأنا فمن عند أنفسنا، وإن أصبنا فمن عند الله، وما التّوفيق إلاّ من عنده والصّلاة والسّلام على رسوله الكريم.

مـدخـل

واضـع النّحـو

أصـول النّحو: تعريفه ونشأته

واضع النّحو

يرى الطّنطاوي في كتابه "نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة" إجمالا، أنّ واضع النّحو من رجالات عصر الإسلام، حيث أنّ النّحاة الأوائل اِختلفوا، واضطرب اِختيارهم، متقدمين ومتأخرين، بخصوص الإمام علي، أو أبي الأسود الدّؤلي، فكان اختيار الإمام علي كرّم الله وجهه كما يرى الأنباري والقفطي(*)، أو أبي الأسود الدّؤلي رضي الله عنه كما يراه ابن سّلام، وابن قتيبة، والزجاجي، وأبو الطيب اللغوي والسيرافي، والزبيدي، وابن النديم،(**).[1]وأمّا أن يُعزى وضعُه إلى نصر بن عاصم اللّيثي، أو عبد الرّحمن بن هرمز فأمر مستبعد.

ويرجّح الطّنطاوي نسبة النّحو إلى أبي الأسود الدؤلي لأنه رُويَ عنه أنه سُئل فقيل له: من أين لك هذا النّحو؟ فقال: لقّقت حدوده من علي بن أبي طالب، ولأنّ موضوعنا ليس التّأصيل لهذا الأمر، فسنكتفي بهذا القدر، ولا نخوض في مختلف الرّوايات التي ذكرَتها كتب التراجم، ولا تعدو أن تختار أحد الرّجُليين، وتنسب له وضع النّحو، وقد واصل جهوده فريق من تلامذته* كعبد الرحمن بن هرمز، ويحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن(***)

ولمّا جاء عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، تناول النّحو بالتّدقيق، فكان أوّل من بعج النّحو، ومدّ القياس وشرح العلل [2]، والغرض من كل ذلك محاولة اِستقراء كلام العرب الفصيح، من أجل التّقعيد للّغة العربيّة، وضبط قوانينها حتى لا يَعْصِف بها اللّحن ومن ثمة يعصف بمقاصد النّصّ القرآني.

(*) الأنباري في نزهة الألباء، والقفطي في إنباه الرواة.

(**) ينظر ابن سلام في طبقات فحول الشّعراء، وابن قتية في المعارف، والزجاجي في الأمالي، وأبو الطيب اللغوي في مراتب النّحويين والسيرافي في أخبار النّحويين البصريّين، والزّبيدي في الطّبقات وابن النّديم في الفهرست.

[1] محمد، الطّنطاوي. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة.ط2. القاهرة: دار المعارف، 1995م، ص 23.

(***)صنفهم الزبيدي في طبقاته (ص 26-30) في الطبقة الثانية.

[2] محمد بن الحسن، الزبيدي. طبقات النحويين واللّغويين.تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط2. مصر: دار المعارف، 1984م، ص 31.

ولأجل ذلك بات من الضروري وضع منهج علمي سليم له أسسه ومنطلقاته لتحقيق ذلك الغرض، وقد قام العرب باتّباع منهج جمع اللّغة واستقرائها، واعتماد قياس الظّواهر المتشابهة والمطّردة، من أجل وضع قاعدة نحوية تحكم اللّغة العربيّة.

يقول علي أبو المكارم: "ولعل أقدم من ينسب إليه الولوع بالقياس من متقدمي النّحاة عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت117 هـ أو 118 هـ)[*]. و أنّه أوّل من فرع النّحو، وبعجه". [1]

ودور ابن أبي إسحاق في القيّاس دور المسرف فيه وليس دور المبتكر له... لأنّ النّحو قد عَرف ما يسمّى بالقيّاس قبله، وأنّ النّحاة كانوا يأخذون به منهجًا قبل أنْ يسرف هو فيه، [2] وعند تحليل القول السّابق، نجد أنّ العرب منذ البداية كان لهم منهجهم في ضبط قواعد لُغتهم، فأمّا المتقدّمون؛ فكان استقراؤهم للنّصّ القرآني بغرض ضبط أواخر الكلمات من أجل ضبط معانيه، وأمّا أوائل النّحاة؛ فكان استقراؤهم للُّغة العربية (المادّة المجموعة) بغرض وضع قواعد لها، لحمايتها من اللّحن الّذي تفشّى في زمنهم، وشَكّل خطرًا على معاني النّصّ القرآني.

وإنّ الّذي يهمنا، في هذا البحث، هو الإستقراء الّذي قام به النّحاة العرب للّغة المسموعة، ومنه فالسّؤال الّذي يجب الإنطلاق منه هو: هل اِنطلق النّحاة في جمع اللّغة من وضع خطّة عمليّة تحدّد مهام جامع اللّغة وطبيعة اللّغة المجموعة،أم أنّهم بادروا بجمعها عشوائيا؟

أجمع الدّارسون أنّ أوّل ما قام به النُّحاة هو تحديد مفهوم الإطّراد، والأمر الثّاني الّذي قاموا به هو تحديد أسلوب الإستقراء للنّصوص المجموعة، وهكذا تمكّن النّحاة من وضع الأُسس التالية: [3]

أوّلا: تحديد مصادر المادّة اللغوية المعتمدة.

ثانيّا: نقد مصادر المادّة.

---

[*] ذكرت هذا مختلف كتب الطبقات والتراجم، أخبار النحويين البصريين ص 19، مراتب النحويين ص 12، خزانة الأدب ج1، ص 115، بغية الوعاة ص 382.

[1] ينظر مراتب النحويين ص 12، طبقات فحول الشعراء، أنباه الرواة، ج2، ص 105.

[2] علي، أبو المكارم. أصول التفكير النحوي. ط1. القاهرة: دار غريب، 2006م، ص 26.

[3] المرجع نفسه، ص 32.

ثالثا: نقد المادّة اللغوية.

إنّ تحديد هذه المهام والشّروط تفرض تحديد أصولٍ للنّحو، تُعتمد في عملية جمع اللّغة قبْل بدء اِستقرائها، وإنّ السّماع اللّغوي الّذي قام به النّحاة الأوائل لَيُعدُّ أوّل أصل من هذه الأصول، لم يختلف في أسبقيّته لغوي.

تعريف أصول النّحو:

أصول النّحو "أدلّة النّحو الّتي تفرّعت منها فروعه وفصوله، كما أنّ أصول الفقه أدلّة الفقه التي تنوّعت عنها جملته وتفصيله". [1]

ومن هذا التّعريف نستنتج أنّ أصول النّحو استمدّ منهجه ومُصطلحه من أصول الفقه.

وفي تعريف السّيوطي (849هـ-911 هـ) يقول: "هو عِلم يُبحث فيه عن أدلّة النّحو الإجمالية من حيث هي أدلّته، وكيفيّة الاِستدلال بها، وحال المستدلِّ". جُمع في هذا التّعريف الأدلّة أو الأصول الأساسيّة الأربعة من سماع وقيّاس وإجماع واستصحاب[*] [2] ، أمّا اِبن جني فيقول: "أدلّة النحو ثلاثة السّماع، والقيّاس والإجماع". [3]

أمّا تعاريف المحدثين، فنأخذ منها تعريف محمد عيد الّذي يرى أن أصول النّحو هي "الأسس الّتي بُني عليها هذا النّحو في مسائله وتطبيقاته، ووجّهت عقول النّحاة في آرائهم وخلافهم وجدلهم، وكانت لمؤلَّفاتهم كالشّرايين الّتي تمدّ الجسم بالدّم والحيويّة"[4].

ظهور أصول النّحو:

علم أصول النّحو من أهمّ علوم العربيّة الّتي اِعتمد العرب عليها في بناء قواعد لُغتهم، وضبط قوانينها ونُضجه، واستقراره كعِلم قائم بذاته لم يحدث إلاّ في زمن جلال الدّين السّيوطي، لكن مسيرته كانت لأكثر من قرنَين حتى بلغ هذا المبلغ.

---

(1) عبد الرّحمن كمال الدين ، الأنباري. لمع الأدلة في أصول النحو. تحقيق سعيد الأفغاني. ط2. بيروت: دار الفكر، 1391 هـ-1971م، ص 80.

(*)تعني رد الكلمة إلى بابها

(2) جلال الدين، السيوطي. الاقتراح في أصول النحو. تحقيق عبد الحكيم عطية.ط2. دمشق: دار البيروني، 1427هـ-2006م، ص 21.

(3) عثمان، ابن جنّي. الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. د ط. مصر: المكتبة العلمية، د س، ج1، ص189.

(4)ينظر مقدمة الطبعة الأولى من: كتاب أصول النحو العربي للدكتور محمد عيد: ط4. القاهرة: دار عالم الكتب، 1310هـ-1989م.

فتسميّة "أصول النّحو" ظهرت أول ما ظهرت مع ابن السرّاج (ت 316 ه) في كتابه "الأصول في النّحو"، الّذي يقول فيه: "وغرضي في هذا الكتاب ذِكر العلّة التي إذا اطّردت، وصل بها إلى كلامهم فقط، وذكر الأصول والشّائع، لأنّه كتاب إيجاز". [1]

غير أنّ ابن جنّي (ت 392ه) يُعَقِّب على هذا الكتاب، في مقدمة كتابه "الخصائص" فيقول: "لم أر أحدا من علماء البلدين تعرّض لعمل أصول النّحو، على مذهب أصول الكلام والفقه، فأمّا كتاب أبي بكر فلم يُلْمِم فيه بما نحن عليه إلاّ حرفا أو حرفين في أوّله". [2]

وهو، بقول هذا، ينفي أنْ يكون ابن السّراج قد سبقه إلى التّأليف في هذا العلم، والمتصفِّح لكتاب "الخصائص" يلمس ابتكار ابن جنّي لهذا العلم فعلا، ويجده يتفرّد بذكر هذه الأصول الثّلاثة: السّماع، القيّاس والإجماع، و لكنها وردت متفرّقة بين مختلف مباحث العربيّة وخصائصها، كما أنّه يُدرك أنَّ ابن جنّي كان قد تأثّرَ في المنهج المتّبع بمنهج أصول الفقه، ثمّ جاء أبو البركات ابن الأنباري برسالتين قصيرتين، لكنّهما على قدر كبير من الأهميّة، الأولى[*]: "الإغراب في جدل الإعراب"، والثّانية: "لمع الأدلة في النّحو"، حيث اهتمّ بعِلم أصول النّحو في هذه الأخيرة، إلى أن جاء جلال الدّين السّيوطي (849ه-911 ه) وقد اكتمل معه هذا العلم، في كتابه "الاقتراح في أصول النّحو"، حيث جمع كل جهود السّابقين في هذا المجال، وهو فيه يقول: "هذا كتاب غريب الوضع، عجيب الصّنع، لطيف المعنى، طريف المبنى، لم تسمح قريحة بمثاله، ولم يَنسج ناسج على منواله، في علم لم أُسبق إلى ترتيبه، ولم أُتقدّم إلى تهذيبه، وهو أصول النّحو، هو بالنسبة إلى النّحو، كأصول الفقه بالنّسبة إلى الفقه، وإنْ وَقع في متفرقات كلام بعض المؤلفين، وتَشَتّت في بعض كتبهم". [3]

---

[1] محمد بن سهل، ابن السراج. الأصول في النحو. تحقيق عبد الحسين الفتلي. ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1417 ه-1996م، مج1، ص 36.

[2] عثمان، ابن جنّي، الخصائص. ج1، ص 2.

[*] الإغراب في جدل الإعراب جاء كتابا يحمل مباحث نحوية.

[3] جلال الدّين، السيوطي. الاقتراح في أصول النحو، ص 15.

وهنا نجده يعترف بجهود السّابقين له في هذا العلم، ويشير إلى تفرّق المباحث في مؤلّفاتهم، لكنّه يدّعي السّبق في التّرتيب والتّقدّم في التّهذيب، ولكي لا نبخس النّحاة الأوائل حقّهم، فإنّ أصول النّحو ظهر تطبيقًا عمليًّا مع ظهور النّحو، أي أنّ "أصول النّحو" من حيث هو مبادئ وتطبيقات قديم قِدم النّحو، لأنّ القَبول والرّفض والتّرجيح والقيّاس وما إلى ذلك، كلّه يرجع إلى أصول، إن لم تكن مكتوبة، فهي معلومة، مقرّرة يرجِع إليها النّحاة، فتقسيم النّحاة العرب إلى قبائل متباينة في الفَصَاحة، منها ما يُقبل كلامه ومنها ما يُردّ، وامتحان العربيّ لقَبول كلامه أو رفضِه، والقيّاس ومقدار النّصوص الّتي يُحيل القيّاس عليها، وتضعيف النّصوص وتشديدها، كلّ ذلك من صميم علم أصول النّحو، وكتاب سيبويه مليء بهذه الأصول". [1]

[1] فاضل، السّمرائي. أبو البركات الأنباري ودراساته النحوية. ط1. بغداد: دار عمار للنشر والتوزيع، 1395هـ-1975م، ص 145.

الباب الأوّل: المسموع والشّاهد في التّراث النّحوي العربيّ ومزاعم المستشرقين بخصوص الجهود النحوية العربية التراثية

الفصل الأول:المسموع/السماع في التراث النحوي العربي

المبحث الأول: المسموع/السماع

المطلب الأول:المسموع لغة

المطلب الثاني:المسموع اصطلاحا

المبحث الثاني:أقسام المادة اللغوية المسموعة

المطلب الأول: السماع المباشر والرواية

المبحث الثالث:مصادر السماع

المطلب الأول:النصوص المحفوظة في الصدور

أولا: القرآن الكريم وقراءاته

ثانيا: الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين

المطلب الثاني: النصوص الحرة العفوية

المطلب الثالث: العرب المسموع عنهم

المبحث الرابع: حدود السماع

المطلب الأول: حدود السماع المكانية

المطلب الثاني: حدود السماع الزمانية

المبحث الأول: السّماع/ المسموع

المطلب الأول: المسموع لغة

أوّلا: عند القدماء

يذكر اِبن منظور في مادة (س.م.ع) سمع: السّمعُ: حسّ الأذن، وفي التّنزيل: "أو ألقى السّمع وهو شهيد"[1]، وقال ثعلب: معناه خلا لَهُ فلم يشتغل بغيره، وقد سمعه سمعًا وسِمعًا وسَماعًا وسماعَةً وسماعيَّةَ.

قال اللّحياني: وقال بعضهم السّمعُ المصدرُ، والسَّمعُ: الاِسم والسّمع أيضا: الأذنُ، والجمع أسماعٌ، اِبن السُّكيت: السّمع سمع الإنسان وغيره، قال سيبويه: وقالوا أخذت ذلك عنه سماعًا وسمعًا، والسّميع من صفاته عزّ وجلّ وأسمائِه أي لا يعزب عن إدراكه مسموع، وإن خفيّ. [2]

ثانيّا:عند المحدثين

جاء في المعجم الوسيط، في مادّة (س.م.ع) سمع لفلان أو إليه، أو إلى حديثه: سمعًا، وسَماعًا، أصغى إليه وأنصت وسِمع له: أطاعه، وسِمع الله لمن حمده، أجاب حمده وتقبله.

وسامع الناس الكلام: سِمعه بعضهم من بعض وتناقلوه بينهم، والسّماعي المنسوب إلى السّماع، وفي اِصطلاح علماء العربيّة: خلاف القيّاسي، وهو ما لم تُذكر له قاعدة كليّة مشتملة على جزئيّاته، بل يتعلّق بالسّماع من أهل اللّسان العربي ويتوقّف عليه. [3]

المطلب الثّاني: السّماع اصطلاحا

أوّلا:عند القدماء

اِجتهد القدماء في وضع تعريف للسّماع فقال ابن الأنباري: "هو الكلام العربي الفصيح، المنقول بالنّقل الصّحيح، الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة". [1]

---

[1] سورة ق: الآية 37.

[2] جمال الدين، ابن منظور. لسان العرب. مجلد8. د ط. بيروت: دار صادر، د س، ص ص 162-164.

[3] إبراهيم، أنيس وآخرون. المعجم الوسيط. ط4. القاهرة: مجمع اللغة العربية، 2004، ص 449.

والملاحظ لهذا التعريف يلمس أن صاحبه يشترط في الكلام العربي المنقول شروطًا ثلاثة: الفصاحة[*]، صحة النقّل[**]، والإطّراد[***]. [2]

أمّا السّيوطي فقال: "وأعني به ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته فشَمل كلام الله تعالى – وهو القرآن- وكلام نبيّه صلى الله عليه وسلّم، وكلام العرب، قبل بعثته، وفي زمانه، وبَعدَه، إلى أنْ فَسدت الألسنة بكثرة المولّدِين نظما ونثرا، عن مسلم أو كافر، فهذه ثلاثة أنواع لابدّ في كلّ منها من الثّبوت. [3]

والسّيوطي في هذا التّعريف حدّد مصادر السّماع، لكنّه لم يشترط فيه الإطّراد، حيث قال: "ما ثبت في كلام من يُوثق بفصاحته".

ولنا تعليق وتفصيل في شروط السّماع، في مبحث لاحق، من هذا الفصل، لذلك نتوقف عند هذا الحدّ، ونقدم ما جاء في مُعجم المصطلحات النّحوية والصّرفيّة.

ثانيّا:عند المحدثين

جاء في باب (السّين): السّماع هو الاستماع، وهو أحد المصادر التي اعتمدها العلماء في جمع اللّغة، ورصد حقائقها، والسّماع في اللّغة العربيّة اصطلاح يعني تلقّي اللغة من أهلها، ويقابله القيّاس، ويقال أن البصريّين كانوا أهل سماع، والكوفيين كانوا أهل قيّاس، كما أن للبصريين في السّماع شروط جعلت سماعهم يتميّز عن سماع غيرهم بالدقّة والسّلامة. [4]

---

[1] أبو البركات، ابن الأنباري. لمع الأدلة، ص 81.

[*]الفصاحة حسب المذهب البصري تُخرج شعر المولّدين، وهي الطّبقة الرّابعة من الشّعراء.

[**] النقل الصحيح، يخصّ التّواتر والآحاد وشروطهما، وعدالة الناقل.

[***] الإطّراد، الشّائع الكثير البالغ لحدّ الكثرة وبهذا يخرج الشاذّ والقليل.

[2] محمد سالم، صلاح.أصول النحو: دراسة في فكر الأنباري .ط1. مصر: دار السلام، 1422هـ-2006م، ص 153.

[3] جلال الدين، السيوطي. الاقتراح في أصول النحو، ص 39.

[4] محمد، سمير نجيب اللّبدي. معجم المصطلحات النحوية والصرفية. ط1. عمان، الأردن: دار الفرقان، 1405 هـ-1985م، ص 106.

ثالثا: المسموع اصطلاحا

هو ما نُقل عن العرب من شعر أو نثر سماعًا منهم وعنهم، أو هو ما خالف القيّاس وكان وُروده كثيرا [1]، ويرى رشيد حليم أنّ أوّل من تطرّق إلى توضيح مفهوم السّماع هو ابن فارس (ت 377 ه) الذي فصّله بقوله: "تُؤخذ اللغة اعتيادًا كالصبيّ العربيّ يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللّغة عنهم على مرّ الأوقات، وتُؤخذ تَلقُّنا من مُتلقن، وتُؤخذ سماعًا من الرّواة الثُّقاة، ذوي الصّدق والأمانة". [2]

ومن هذا التّعريف نلمس توجيها علميّا فيه إشارات إلى: [*]

أوّلا: التّأكيد على السّماع الفطري (الاكتساب لدى الطّفل).

ثانيّا: السّماع التّعليمي: يصبح السّماع أداة معرفيّة صناعيّة للتّعليم.

ثالثا: السّماع المنهجي: أداة وظيفيّة، صالحة للبحث في الدّرس العربي وغيره.

وتعليقا على التّعريفين اللّغوي والاِصطلاحي، فإنّ هناك علاقة قائمة بينهما مدارها الإصغاء و الإنصات حيث يعني الأوّل الإصغاء والإنصات إلى كلام الغير، وأمّا التعريف الثاني فيعني الإنصات والإصغاء إلى من يُوثق بفصاحته من الأعراب، والرّواة قصد جمع مدوّنة لغوية، للاِشتغال عليها، بدءا باستقرائها، وإحصاء المطّرد من الظّواهر فيها، ثم وضع قاعدة، أو قانون يحكم اللّغة.

المبحث الثّاني: أقسام المادّة اللّغوية المسموعة

بعد الاِتفاق على السّماع بوصفه إجراء يقوم به النحاة من أجل جَمْع المادّة اللّغوية، بات من الضّروري تحديد أقسام هذه المادة، وقد تمثّلت، في بداية البحث النحوي، في قسمين أساسيين هما السّماع المباشر، والرّواية.

---

[1] محمد، سمير نجيب اللّبدي. معجم المصطلحات النحوية والصرفية، ص106.

[2] أحمد، ابن فارس. فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. تحقيق مصطفى الشويمي. ط1. دب: مؤسسة بدران للطباعة والنشر، 1963م، ص 62.

[*] قام رشيد حليم في كتابه "المنهج اللّغوي العربي والبحث اللّساني: دراسة مقاربتية في اللّسانيات وأصول النّحو" بالتفصيل في هذا الأمر ص 11.

المطلب الأول: السّماع المباشر

وهو ما يسمعه النّحوي مباشرة بنفسه، وبهذا استثنى ما يسمعه رواية عن عالم آخر، أو عن جيل من العلماء كان قد سبقه، أو عن مصنّف لُغوي، أو كتاب في النّحو، حيث ينحصر كل هذا في الرّواية [1]، وهكذا يكون السّماع، بوصفه إجراء، هو الأخذ المباشر للمادّة اللّغوية عن الناطقين بها، وقد ظهر هذا الإجراء بعد الاِهتمام بجمع المادّة اللّغوية، أي منذ عشرينيّات القرن الثّاني للهجرة [2]، وقد اعتنى أوائل النّحاة البصريين بالسّماع اللّغوي، كما اعتنى الكوفيون الأوائل به، والمصنّفات التّراثية تذكر روايات عديدة عن رحلات النّحاة الأوائل إلى الباديّة وجمع اللّغة من أفواه النّاطقين بها في بيئاتهم الطبيعيّة (السّليقية)[*]، وفيما يلي نعرض لأهمّ النّحاة الأوائل وأهمّ ما قاموا به في هذا المجال.

إن الاِهتمام الواضح بالسّماع، واعتماده أصلا من أصول التّقعيد لهذه اللّغة، قد ظهر على يد جيل النّحاة الأوائل مثل عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، فقد كان الحضرمي مشهورا بقياسه المبني على أساس من اِستقراء لُغة العرب، وعلى السّماع من قبائل في نجد، وبوادي الحجاز وتهامة كما رحل إلى قبائل تميم، وقيس، وأسد، وطيء، وهذيل وبعض عشائر كنانة. [3]

ولهذا اعتبر الدّارسون الحضرمي هو من حدّد للنحاة البصريّين حدود الفصاحة[**]، وذلك بتخيّر اللّغة الّتي يتوَلّوها بالدّراسة، والقبائل الجائز الأخذ عنها هذه اللّغة، ثم إنّ النّحاة، على هذا الأساس، حدّدوا كيفيّة للسّماع وشروطا له[4]، وأمّا أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ) [***]، فقد عُرف بسِعة علمه بكلام العرب، ولهجاتها وغريبها من عبد الله بن أبي

---

[1] علي، أبو المكارم. أصول التفكير النحوي، ص 33.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[*] السّليقية: الفطرية، الّتي نطقوا فيها أوّل لغة لهم وتعلموها عن أهلهم، ولم يخلطوها بلسان غيرهم، فبقيت فصيحة، نقية خالية من اللّحن.

[3] صابر، بكر أبو السعود. القياس في النّحو العربي من الخليل إلى ابن جنّي. دط. أسيوط: مكتبة الطليعة، 1978م، ص27، نقلا عن التفكير النحوي عند ابن الأنباري، ص 45.

[**] الفصاحة هنا يقصد بها اللّغة الخالية من اللّحن الّتي نطق بها العرب سليقة.

[4] تمام، حسان. الأصول. دط. مصر: الهيئة المصرية للكتاب، 1420هـ-2000م، ص ص86-87.

[***] هو أبو عمرو بن العلاء، أحد القراء المشهورين، ذكرته كتب الطبقات والنحويين، والتّراجم والقراءات.

إسحاق الحضرمي، وهو أحد القُرّاء الموثوق بقراءتهم(*)، وقد قال فيه أبو الطيّب اللغوي: "كان سيّد النّاس وأعلمهم بالعربية والشّعر ومذاهب العرب". [1] وقد حكى عنه يونس بن حبيب البصري أنه قال: "ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلاّ أقلّه، و لو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير"[2].

وقد أورد علي أبو المكارم في كتابه "تاريخ النّحو العربي" إضافة أبي عمر النحوية، والتي تتمثل في عمليّة فصله للدّراسات القرآنية عن الدّراسات النّحوية الّتي كانت حتى عصره مختلطة، وهو أكثر النّحاة الأوّلين تمثيلا لظاهرة السّماع[3].

وجاء تلميذ الحضرمي ،عيسى بن عمر (ت 149 هـ)، وحذا حذو أستاذه يطعن على فُصحاء العرب إذا خالفوا القيّاس، ومثال ذلك تخطئته للنّابغة ، كما اشتغل على جمع الغريب، محاولا القيّاس عليه، واعتمد على التّأويل، وقرأ عديدا من القراءات(**).

أما يونس بن حبيب (ت 182 هـ)(***)، فلا يمكن إغفال جهوده في هذا المجال، حيث رحل إلى البادية وسمع عن العرب كثيرا، فجعله هذا من أكبر رواة اللّغة والأدب، وقد نقل عنه سيبويه كمًّا هائلا من آرائه[4]، واعتمد روايته، ونَقْلَه عن العرب اِعتمادا مُلفتا للنّظر، ويبدو أنّ ما أخذه عنه كان في شواهد اللّغة.[5]

وقد زامن يونس بن حبيب الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) ، وهو أستاذ سيبويه (ت 180 هـ)، وهما متزامنان، حيث اعتمد سيبويه على جهود أستاذه، وكان المصدر الأوّل للكتاب، حيث اعتمد عليه سيبويه فعمّق

* أنظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ص 28.

(1) عبد الواحد بن علي، اللغوي. مراتب النحويين. حققه محمد أبو الفضل إبراهيم. دط. القاهرة: مطبعة نهضة مصر،1375 هـ-1955م، ص 15.

(2) كمال الدين عبد الرحمن،الأنباري. نزهة الألباء في طبقات الأدباء. تح محمد أبو الفضل إبراهيم. دط. القاهرة: دار الفكر، 1418هـ-1998 ص34.

(**) للإستزادة فقد فصل في ذلك علي أبو المكارم في كتابه" تارخ النحو حتى أواخر القرن الثاني الهجري"،ص96.

(***) هو يونس ابن حبيب البصري أخذ عن أبي عمر بن العلاء وأخذ عنه سيبويه، والكسائي، والفراء، وتفرد بأراء ومذاهب خاصة به.انظر نزهة الألباء ص47.

(4) علي النّجدي، ناصيف. سيبويه إمام النّحاة. ط2. القاهرة: عالم الكتب، 1979 م، ص94.

(5) محمد سالم، صلاح. أصول النحو، ص47.

بالدّراسة ما جاء فيه وأَصّله بخبرته وحنكته ومدى مخالطته للعرب الفصحاء [1]، فكان كتابا جامعا لقواعد العربيّة، ما سبقه إلى مثله نحوي، ولا جاء من بعده من ألّف في أفضل منه.

وعن انشغال الخليل بالسّماع، فقد رحل إلى بيئات العرب السّليقية في شبه الجزيرة العربيّة، يُشافههم ويأخذ عنهم اللّغة حتّى تمكن من اكتساب سليقة الأعراب، فكان يضيف ما جمعه إلى محفوظاته الّتي كانت تُعينه على ضبط القواعد النّحوية والصّرفية، ومن ثمة، ألّف "معجم العين" الّذي يدل على اتّساع ثروته اللّغوية. [2]

وأمّا ما ميز سِيبويه، فعِلْمه بلهجات العرب وما تتّصف به من فصاحة أو عدمها، وهذا ما عكسه في كتابه من تصريحات على ذلك، نحو (سمعنا فصحاء العرب يقولون)، أو (سمعنا أكثر العرب يقولون)، أو (تقول العرب)... وهذا إنْ دلّ على شيء فإنّما يدلّ على حرصه في التّقعيد على المطّرد من كلام العَرب، والشّائع على ألسنتهم، لكن، هذا لا يعني إهماله للهجاتهم المختلفة، وعدم تسجيله ما جاء شاذًّا على ألسنتهم، حيث اجتهد سيبويه في تحليل غير المطّرد، فمرّة وصفه بالضّعف ومرّة بالشّذوذ، أو القُبح، أو الغَلط. ومنه فكتابه كان قائما على ما يدور على ألسنة العرب كثيرا، أمّا ما خالفه فيشير إلى مخالفته للشّائع المشهور الّذي اسْتُنْبِطَت منه القواعد[3].

والشّيء الّذي يجب التّنبيه عليه في عهد الخليل وسِيبويه أنّ عملية السّماع كانت شاملة لجميع مستويات اللّغة، حيث حدث خَلْطٌ بين المستويات المختلفة. [4] ولم يقتصر السّماع على نحاة البصرة، فقد كان لنحاة الكوفة دور بالغ الأهميّة في جمع المادّة اللّغوية، والتوسع في ذلك، فأمّا الكِسائي(ت 189 ه) [*]، فقد توسّع في جمع المادّة وكان له الفضل، بذلك، في الاحتفاظ بشواهد اللّغة وشواذّها وشواذ اللّهجات، وحمايتها من الضّياع وتكثر تلك الرّوايات الّتي تقول بأنّه خرج إلى البوادي في الحجاز ونَجْدْ وتُهامة وجمع اللّغة منها، وقد أنفذ خمس عشرة قِنّينة حبر في الكتابة عن

---

[1] محمد سالم، صلاح. أصول النحو، ص47

[2] المرجع نفسه، ص 48.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] المرجع نفسه، ص 50.

[*] هو: أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، أحد قراء الكوفة، قرأ عن حمزة الزيات، ولكنه تفرد بقراءته الخاصة، ذكره صاحب نزهة الألباء، ص 58-59.

العرب، وبلغ اتّساعه في الأخذ عنهم إلى حواضر العراق [1]، وقد أخذ عنه هذا الاتّساع تلميذه الفرّاء والّذي هو محور بحثنا من خلال كتابه "معاني القرآن"، إذ يعدّ إمام مدرسة الكوفة، ويقابل سيبويه في مدرسة البصرة، وسوف نقدّمه هو وكتابه بالتّفصيل في مبحث لاحق ومفصّل[2]، كما اعتمد النّحاة الأوائل إلى جانب السّماع المباشر على المرويّات الّتي تناقلها العرب أبًا عن جدّ والّتي تخصّ أيامهم وتروي تاريخهم، ومأثوراتهم وكان الشّعر أكثر ما يرويه العرب لأنّه ديوانهم، وسنعرض بالتّفصيل الرّواية العربيّة والرّواة، وكلّ ما يتعلّق بمصداقيتها وصدقهم في الفصل الثّالث من هذا الباب.

المبحث الثالث: مصادر السّماع

في هذا المبحث يجدر بنا الإشارة إلى مصطلح آخر هو النّقل، الّذي ظهر عند علماء أصول النّحو تَأثّرا بمصطلحات أصول الفقه، ويقصد به السّماع عند بعضهم، أي الكلام العربي الفصيح الّذي يأتي بطريق المشافهة، وفي هذه المسألة هناك من يرى أنّه " ما دمنا قد سمّينا المنقول "مسموعا" فإنّنا نستطيع أيضا أن نسمّي النّقل "سماعًا"، وأن نجعل كلاّ من هذين المصطلحين صالحًا للدّلالة على ما يدلّ عليه قرينه" [3] .

لكن لما تُعالج مشكلة الشّمول يُلمس اختلاف بين المدلولين، فيُرى أنّ السّماع أشمل من النّقل لأنه ربّما اشتمل على الرّواية (وهي النّقل) وعلى مشافهة الأعراب، وهي قد تكون بالرّحلة أو الوِفَادة [4]. وهناك رؤية أخرى، عكس هذه الرؤية حيث يُعتبر النّقل أشمل من المسموع، "فالنّقل أعمّ بهذا المعنى وأشمل، إذ يشمل السّماع المباشر وغير المباشر"، حيث يقصد بذلك المسموع المباشر عن الأعراب الّذي يكون جزءًا من المنقول عن طريق الرّواية عنهم. [5]

ولعلّ هذا التّداخل بين مفهومي النّقل والسّماع هو الذي يحدّد مصادر المسموع أيّا كان مباشرا أو غير مباشر.

وبما أنّ أصول النحو كان قد عرف النّضج، في زمن السّيوطي، فالواجب أن نعرض لمختلف المصادر التي أقرّها هذا الأخير في مصنّفاته، حيث أن المسموع أو السّماع، كما رأينا سابقا، لا يعدو أن يكون مكوّنا من نوعين من النّصوص:

---

[1] محمد، صالح صلاح. أصول النحو، ص ص 50 -51.

[2] المرجع نفسه، ص 51.

[3] المرجع نفسه، ص 151.

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5] محمود، أحمد نحلة. أصول النحو العربي. ط1. بيروت: 1407 هـ -1987 م، ص 31

أوّلاً: نصوص أُخذت وهي محفوظة في الصّدور.

ثانيّا: نصوص حرّة عفويّة.

فأمّا النّصوص المحفوظة في الصّدور فتتمثّل في النّصّ القرآني من خلال القراءات المتوارثة الّتي نقلها الأئمة المعترف بهم عن الصّحابة والتّابعين، والشّعر الجاهلي وشعر المخضرمين الّذي توارثه فصحاء العرب [1]، وأمّا النّصوص الحرّة العفويّة فهي "نصوص سمعها اللّغويون من أصحابها مباشرة، فليست بكلام محفوظ، ولا منقول حفظه الناس من غيرهم، وليس بتأدية لكلام سبق أن قيل، بل إنّ أكثر هذه النّصوص هي مِن المنثور، وفيها الكثير مِن الشّعر، وبعض الأبيات سُمعت مع كلام آخر مِن النّثر، كقصائد شعراء بني أميّة[*]، ومن جاء بعدهم" [2]

وعلى هذا الأساس يمكنا تحديد مصادر السّماع كالتالي:

المطلب الأوّل: النّصوص المحفوظة في الصّدور

أوّلا: القرآن الكريم وقراءاته

النصّ القرآني هو أوّل نصّ من حيث الأهميّة، اِعتنى به أوائل النّحاة، واجتهدوا في استقرائه، وجعلوه أوّل مصدر من مصادر التّقعيد النّحوي. لأنه نصّ منزّه عن اللّحن، ونزل بلسان عربي مفهوم، فأمّا أنّه مُنزّل فدليلهم قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [3] وأمّا أنّه بلسان عربي مفهوم فدليلهم قوله تعالى: ﴿**لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[5] "والّذي فهِمه العرب في

---

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة. د ط، الجزائر: موفم للنشر، 2012م، ص 253.

[*] قد ذكر سيبويه في كتابه: زعم يونس أنه سمع الفرزدق، وهو من شعراء بني أميّة ينشد، في ج1، ص 253.

[2] المرجع نفسه، ص 262.

[3] سورة الحجر: الآية 09.

[4] سورة الشعراء: الآية 26.

[5] سورة يوسف: الآية 02.

زمن التّقعيد للّغة أنّ القرآن كان يخاطبهم بلغتهم جميعا، والّذي يَفهمه العاقل غير المتحيّز – في أيّ مكان، وأيّ زمان– هو أنّ هذه اللّغة هي لُغة جميع العرب في ذلك الزّمان". [1]

1– موقف القرّاء من القرآن الكريم وقراءاته:

اِنطلاقا ممّا سبق ذكره، اعتبر النّحاة العرب القرآن الكريم المصدر الأوّل للسّماع، غير أنّهم اختلفوا في وجود أو عدم وجود الفرق بين القرآن، والقراءات القرآنية. [2]

وإننا نستطيع أنْ نقول أنّه لم ينكر أحد من القرّاء أنّ القرآن الكريم أصل أساسي ورئيس من أصول اللّغة والنحو، بل يُجمع العلماء على أنه أَوْثَق نصّ، وأصحّ أثر وصل إليهم، وأنه جدير بأنْ يكون المرجع الأوّل في التّقعيد اللّغوي، واستنباط القواعد، إذْ توفّرت له مقوّمات السّلامة التي لم تتوفّر لأيّ نصّ لُغوي آخر، بما وُضعت له من ضوابط، و وسائل علميّة للحفاظ عليه. [3]

لعل قول ابن الجزري بناء على ما قاله الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الدّاني[*] هو من أكثر الأقوال المأثورة والّتي تبيّن موقف القرّاء من القراءات القرآنية، حيث يقول: "كلّ قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وصحّ سندها فهي القراءة الصّحيحة التي لا يجوز ردّها ولا يحّل إنكارها، بل هي من الأحرف السّبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السّبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، و متى اِختل ركن من هذه الأركان الثّلاثة أُطلق عليها ضعيفة أو شاذّة أو باطلة سواء كانت عن السّبعة، أم عمّن هو أكبر منهم، هذا هو الصّحيح عند أئمّة التّحقيق من السّلف والخلف". [4]

وهذا القول مفاده أنّ القراءة القرآنية أمْر حتمي يجب احترامه، واتّباعه، وذلك بتَحقُّق الشروط المذكورة لقبولها، ومن المحدثين من فصّل في هذه المسألة، ورأى أنّ الشّرط الوحيد، وجاهة، أنْ يصِحّ سندها ولو كان بطريق الآحاد، ثمّ لا

---

[1] عبد الرّحمن الحاج صالح. السّماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 152.

[2] محمد سالم، صلاح. أصول النحو، ص 166.

[3] المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

[*] صاحب كتاب التيسير الذي عني بالقراءات، والقراء، وحدّد فيه شروط قبول القراءات وضبطها.

[4] محمد بن محمد، ابن الجزري. النشر في القراءات العشر. تحقيق علي محمد الصبّاغ. د ط.مصر: المطبعة التجارية الكبرى، د س، ص 9.

عبرة عندهم بعد ذلك بقواعد النحو ، حيث يقول ابن الجزري في هذا الشّأن: "وأئمّة القرّاء لا تعمل في شيء من حروف قراءة القرآن على الأفْشى في اللغة والأقْيَس في العربية بل على الأثْبت في الأثر والأصح في النقل، والرواية إذا أثبتت عندهم لم يردها قياس عربية، ولا فشوّ لغة، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها". [1]

2- موقف النّحاة من القراءات القرآنية:

أمّا موقف النّحاة فقد جاء متباينا بين موقف المخطّئين صراحة لبعض القراءات، وموقف الرّافضين لبعضها خفية، وموقف الرّافضين لبعضها إن لم يُعثر على شاهد من كلام العرب يُثبت صحتها، ومدار كلّ هذا تشبثّهم بقواعدهم النّحوية، وتلك الضّوابط الّتي تحكمها، وفيما يلي نعرض لأهمّ النّحاة الذين كان لهم موقف واضح من القراءات القرآنية:

أ- تخطئة القراءات القرآنية صراحة :

لقد اِجترأ المبرّد[*] على تخطئة القراءات القرآنية إذا اصطدمت بحقيقة القاعدة النّحوية، ومثال ذلك اعتباره لقراءة نافع لـ **"معائش"** بالهمز "خطأ" " [2].

وقد رمى القارئ بالجهل بالعربيّة، كما وصف قراءة ﴿**ثم لْيَقطع**﴾ [**]بأنّها "لحن" [3]، وقراءة ﴿**هؤلاء بناتي هنّ أطهرَ لكم**﴾ بفتح الرّاء بأنها "لحن" فاحش". [4]

ب- تخطئة القراءات القرآنية خِفية

وصف أحمد مكّي الأنصاريّ سيبويه بكونه معارضا للقراءات معارضة خِفية، ومن أمثلة ذلك قراءة النّصب في قوله تعالى: ﴿**هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**﴾ [5]بنصب الرّاء، وكذلك معارضته لهَمز "معائِشَ" في قوله تعالى:﴿ **وَلَقَدْ**

---

[1] محمد بن محمد، ابن الجزري. النشر في القراءات العشر، ص 10.

[*] وقد قرأ بها نافع قارئ المدنية وذكره المازني في تصريفه.

[2] محمد بن يزيد، المبرّد. المقتضب. تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة. ط3. القاهرة: مطابع الأهرام التّجارية، 1415 هـ-1994م، ج1، ص 114.

[3] محمد بن يزيد، المبرّد. المقتضب. ص 119.

[**] وقد قرأ بها نافع قارئ المدينة وذكره المازني في تصريفه.

[4] المرجع نفسه، ص 121.

[5] سورة هود: الآية 78.

مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [1] ، وكِلا المثالين عارضهُمَا المبرّد صراحة، فيما سبق ذكره وكانت معارضته خِفية، دون أنْ يذكر نصّ الآية صراحة، لكنّه كان يضع القاعدة الّتي تصطدم بهذه القراءة وتعارضها أشدّ معارضة. [2]

وقد رُدّت معارضة سيبويه لبعض القراءات معارضة غير صريحة إلى احترامه البالغ للقراءات من جهة، والصّراع النّاشب بين المادّة اللّغوية المتشعّبة، والقواعد النّحوية التي يُراد لها الاطّراد من جهة أخرى. [3]

أمّا الفرّاء فله رأي آخر اتجاه القراءات، حيث كان يَقبل غير القيّاسي، سواء كان في القراءات، أم في غيرها إذا وَجد له شاهدا يُؤيّده في كلام العرب، فإن لم يجد له شاهدًا، فلا حرج في رفض القراءة [4]، وقد رفض قراءة حمزة في قوله تعالى:﴿ **والشّمس وضحاها** ﴾ [5]، حيث كان حمزة يفتح، ويكسر من قلّة بصره بمجاري كلام العرب. [6]

ومع تطور الدّرس النّحوي، فطِن النّحاة إلى هفوات سابقيهم بخصوص إبعاد بعض القراءات عن ميدان درسهم، فتأثّروا بما وصل إليه (شيوخ) المؤلّفين في القراءات الذين كان عملهم جمع القراءات، ونسبتها، والبحث عن إسنادها، وكان أبو بكر ابن مجاهد هو أوّل صاحب تأليف في القراءات السّبعة المتواترة [7] ، وكان تأثّر النّحاة واضحا من خلال عمل أبي علي الفارسي، لكنّه ألّف في القراءات السّبعة في الإحتجاج لها [8] ، أمّا ابن جنّي، وهو تلميذه، فلم يدخّر هو الآخر جهدًا في الاحتجاج للقراءات، هذه المرة، في خطوة جريئة، مكّنته من استدراك ما تعسّف في الحكم عليه النّحاة

---

[1] سورة الأعراف: الآية 10.

[2] محمود أحمد، نحلة. أصول النحو العربي. ص38.

[3] المرجع نفسه، ص 39.

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5] سورة البقرة: الآية229.

[6] يحي أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن. ط3. بيروت: عالم الكتب، 1403 هـ-1983، ج3، ص ص266.

[7] عثمان، إبن جنّي. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. تحقيق على النّجدي ناصف وعبد الفتاح إسماعيل شلبي. ط2. دد، القاهرة: د. دار، 1386 هـ-1966 م، ص 10.

[8] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الأوّلون، وبرع إلى حدّ كبير في تبيين وجوه شواذّ القراءات، والإيضاح عنها، حيث أتمّ عمل أستاذه، وأضاف ثلاث قراءات شاذّة إلى السّبعة المتواترة، واجتهد في إثبات صحّتها من كلام العرب شعرًا، ونثرًا.(*)

وأمّا الإمام السّيوطي وهو الّذي جمع كلّ ما توصل إليه من سبقه النّحاة من أصول لعلم أصول النّحو، فقد كان مُخطّئا لكلّ من عاب على القرّاء طرقهم في القراءة، فهو يقول: "كان قوم من النّحاة المتقدمين يعيبون على عاصم [1]، وحمزة [2]، وابن عامر [3] قراءات بعيدة في العربيّة، وينْسِبوهم إلى اللّحن، وهم مخطئون في ذلك، فإنّ قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصّحيحة، التي لا مطعن فيها، و ثبوت ذلك دليل على جوازه في العربيّة. [4]

وتعليقًا على كلّ ما سبق، فإنّ النّحاة الأوائل كانوا ينطلقون من القاعدة أصلاً لا يُخَطَّأُ أبدا، وهم من وضعها، ويخطّئون القراءات وهي أصل لا منكر له، والأجدر بهم أن يشكّكوا في صحّة قواعدهم، ويوسّعوا فيها من خلال استقراء القراءات المتواترة.

وإنْ كان ابن جني قد اهتم بشواذّ القراءات في كتاب "المحتسب"، فإنّ ابن مالك كان قد قبِل ما ردّه النحويون[5] من قراءة حمزة في الآية الكريمة: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**﴾[6]، حيث كسر الميم في "الأرحام" وأجاز على أساس منها العطف على الضّمير المجرور دون إعادة حرف الجرّ، كما قبِل قراءة ابن عامر في الآية الكريمة: ﴿**قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ**﴾[7]، حيث قرأها "قتلُ أولادُهم شركائِهم "وقراءة حمزة ﴿**ثُمَّ لْيَقْطَعْ**﴾[8] بدلا من "لِيقطع".

(*) جاء في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب المحتسب بقلم محمد بشير الدّليمي أن هذا الكتاب جاء لربط القراءات القرآنية الشّاذة بقواعد كلام العرب ولغاتها ولهجاتها وليس للإحتجاج لها لأن القرآن الكريم هو حجة بل هو أقوى الحجج، يحتج به ولا يُحتجّ له.

(1) عاصم بن بهدلة أبو النّجود، أحد القراء السبعة بالكوفة ت (127 ه)، أنظر الأعلام، ج 3، ص 248.

(2) حمزة بن حبيب الزيّات أبو عمارة ت (156 ه)، قارئ الكوفة بعد عاصم، أنظر بغية الوعاة، ج1، ص 263، والأعلام، ج 2، ص 277.

(3) ابن عامر عبد الله أبو عمران الدمشقي ت (117 ه)، أحد القرّاء السّبعة، قارئ دمشق، أنظر الأعلام، ج 3، ص 95.

(4) جلال الدين، السّيوطي. الاقتراح في أصول النحو، ص 40.

(5) جلال الدين، السيوطي. الاقتراح في أصول النّحو. ص30.

(6) سورة النساء: الآية 1.

(7) سورة الأنعام: الآية 137.

(8) سورة الحج: الآيةّ 15.

وأمّا تعليقنا عن ما جاء في قول السّيوطي عن ابن مالك، فإنّنا نلمس نُضجا في فكر النّحاة مع تطوّر الدّرس النّحوي العربي، واعتدادهم بالقراءات، وجعلها أوْلى بالدّراسة والاستقراء، وبالتالي وضع قواعد جديدة على أساسها للّغة العربيّة كما هو مبيّن في الآيات السّابقة.

ثانيّا: الحديث الشّريف

لم يشتغل النّحاة على جمع الحديث الشّريف ولا حتّى المحدّثين في هذه الفترة التّي شهدت حركة جمع اللّغة العربيّة، ولم يعتمد النّحاة البصريّون الحديث مصدرًا من مصادر المسموع رغم أنّه كان محفوظًا في صدور العلماء المسلمين، لكنّ الكوفيّين كان لهم رأي آخر في هذه المسألة، وسنفصّل فيها في الفصل الثّاني الخاصّ بالشّاهد النّحوي.

ثالثا: الشّعر الجاهلي وشعر المخضرمين (الرّواية)

لقد تحدّث ابن سلاّم الجمحي عن رواية الشّعر الجاهلي في طبقاته، يقول: "كان أوّل من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حمّاد الرّاوية وكان غير موثوق به، حيث كان ينْحَل شِعر الرَّجل غيره ويزيد في الأشعار... وقال: سمعت يونس يقول: " العجب لمن يأخذ عن حمّاد وكان يكذب ويلحَن ويكسِر". [1]

وقد أخذ تدوين الشّعر ينشط في أوائل القرن 3 هـ، فدُوّن الشّعر الجاهلي والإسلامي، ودُوّنت سِيَر الشّعراء وأخبارهم وحوادثهم [2]، لكن يونس بن حبيب يقول: قال أبو عمرو بن العلاء ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرًا، لجاءكم علم وشعر كثير". [3]

وقد تأثرت المرويّات في مرحلة ما قبل التّدوين ببعض المؤثّرات في السّماع كمدى دقّة الحفظ الّتي تَفاوَت الرّواة فيها، ومنه، اختلفت النّصوص المرويّة قوّة وضعفًا، أمّا بعد التّدوين، فقد تأثّرت المرويّات، والشّعر بخاصّة، بظاهرة أخرى

---

[1] ابن سلام، الجمحي. طبقات الشعراء. د ط، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1422 هـ- 2001م.

[2] المرجع نفسه، ص 40.

[3] المرجع نفسه، ص 15 (تقديم لطه أحمد إبراهيم).

سببها التّدوين وهي ظاهرة التّصحيف [1]، التي وقع فيها أعلام اللّغة والنّحو، كالخليل، وأبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن بن عمر، والأصمعي، والمبرّد، والكسائي.[*]

وكان الجامعون لأشعار العرب وأحاديثها روّاة من فصحاء العرب، ثم ظهرت طبقات أخرى من الروّاة في نهاية القرن الأوّل، ومع بداية القرن الثاني الهجري حيث توالت هذه الطّبقات كالتّالي: [2]

1- طبقة قديمة من رواة أخبار العرب وآدابهم وأنسابهم وهم ثُقاة، عرفوا الكثير من الصّحابة والمخضرمين، كثيروا العلم أمثال قُتادة بن دعامة.

2- طبقة من الإخباريّين غزيري العلم، لكنهم غير مُتحرّجين في قبول ما كانوا يأخذونه عن غيرهم من أخبار أو أشعار، مثل ابن إسحاق الذي أشار إليه ابن سلاّم في طبقاته.

3- رواة محترفون من المولّدين، كان بعضهم ممّن يضع الأشعار، والأخبار، أو يزيد فيها، أو ينحَلها لغير صاحبها، وأوّلهم حمّاد الرّاوية.

4- علماء العربية لغويين ونحويين و كلّهم من البصرة والكوفة، وأقدمهم كانوا من القرّاء، إلى غاية سيبويه، وهم من تطرّقنا إليهم بالتّفصيل في هذا البحث، عند حديثنا عن حدود السّماع الزّمانية، وقد ذكرهم ابن سلاّم الجمحي مبيّنا حقيقة كونهم الذين تمّ على أيديهم جمعُ الشّعر وتدوينه تدوينًا علميًّا دقيقًا.[**]

للاستزادة ندرج هذه الوثيقة:

---

[1] ابن سلام، الجمحي. طبقات الشعراء، ص 34.

[*] وقد أورد ابن سلام الجمحي باب شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف يبين ذلك فيه من ص 82 إلى ص 92، وكذلك السّيوطي في المزهر في ج2 في باب التنبيه على حدوث التّصحيف.

[2] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص293.

[**] حيث أشار إلى أسبقية حماد الرّاوية في جمع أشعار العرب في طبقات الشعراء، ص 40، كما أشاد بجهود اللغويين وثقتهم.

الجدول (1)

شعراء العصر الجاهلي حسب ما جاء به عبد الرحمن الحاج صالح[1]

القرن الثالث الميلادي	عدد ما وصلنا من أبياته	القرن الرّابع	عدد ما وصلنا من أبياته	القرن الخامس	عدد ما وصلنا إليه من أبياته	القرن الخامس و السّادس	عدد ما وصلنا من أبياته
جذيمة الأبرش الأزدي[1]	19	أعصر بن سعد بن قيس عيلان	3	كلاب بن مرة القرشي	2	كلدة بن عبد بن مرارة الأسدي40	5
عمرو بن عدى بن نصير اللخمي	10	عامر بن الظرب العدواني	8	حبشة بن سلول الخزاعي	2	المستوغر بن ربيعة السعدي	27
دويد بن زيد بن نهد القضاعي	9	العنبر بن عمرو بن تميم	3	أبو قلابة الهذلي	39	الفند الزماني	200
عمرو بن عبد الجن التنوخي	3	سعد بكرب الحميري	2	الأضبط بن قريع السعدى	19	زهير بن جناب الكلبي	137

المطلب الثّاني: النّصوص الحرّة العفويّة

وهي نصوص سمِعها اللّغويون من أصحابها مباشرة، وأكثر هذه النّصوص من المنثور، وفيها الكثير من الشّعر، وبعض الأبيات سُمعت مع بعض الكلام المنثور، كقصائد شعراء بني أميّة، ومن جاء بعدهم، وقد نَقل منها سيبويه في "الكتاب" كثيرا من الشّعر، نحو قول جرير[2]:

خلّ الطريق لمن يبني المنار به وابْرز ببرزة حيث اضطرّك القدر[**]

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح.السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص74.

[*] يضاف إليه أُحَيْحة بن جلاح (123بيت) وهو مشهور.

[2] عمر بن عثمان، سيبويه. الكتاب. تحقيق عبد السلام محمد هارون. ط3. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1408هـ-1988م، ج1، ص254.

[**] من ديوان جرير.

أمّا المنثور، فهو مأخوذ عموما من لغة التّخاطب اليَومي، حيث أكثر منه سيبويه عند انتقاء شواهده في الكتاب، ويسمّيه بالكلام ويسمّي المنظوم شعرًا، وبذلك، لم يستخلص النّحاة قواعدهم من اللّغة الأدبية (الشّعر) لوحدها، بل اعتمدوا على كثير من لغة التخاطب اليومي العفوي. [1]

وهناك نوع خاص من الكلام المنثور، هو الكلام الجامد الذي لا يجوز اِستعماله إلا على الصورة التي سار عليها بين النّاس، وهو "الأمثال"، وما يجري مجراها من التّراكيب الجامدة[*] ، كما دُوّنت نصوص نثرية كاملة ومختصرة مع تعليق عليها من جميع الجوانب اللّغوية (الصّوتية والصّرفية، والنّحوية والدّلالية)، كالّتي دوّنها أبو عمرو بن العلاء، وتلاميذه: الأصمعي، وأبو عبيدة، وأبو زيد، والمفضّل الضبي، وابن السّكيت وغيرهم، فعلماء النّحو الأوّلين، عاشوا في زمان الفصاحة، وشافهوا فصحاء العرب، وسجّلوا كل ما سمعوه عنهم، في مخاطباتهم العفويّة ولاحظوا مرونة العربيّة، وكثرة الحذف، والاِختزال، والإدغام، والتّخفيف، والقلب، والتّقديم، والتّأخير، وكتبوا كل ذلك بأمانة فائقة لم يشاهَد ذلك عند أمة أخرى [2]، و"معاني القرآن" للفرّاء يزخر بذلك كما سنرى في الباب الثّاني من هذا البحث.

والبصريّون يتقيّدون بالمأثور، والعام من الكلام الذي يتحرّونه، حيث يصِلون إلى وضع القاعدة بعدما يستقرؤون ما يجمعونه، ويُخضعون لُغات القبائل (لهجاتها) التي خصّوها بالفصاحة إلى عمليّة فرز علمية دقيقة، فيختارون أشيَعها وأقربَها إلى القيّاس [3]، فهم يَقيسون بذلك على كلام العرب، ويختارون منه الثّابت الأكيد، حيث تكون مادّة المسموع أكثر اللّغات شيوعا، وأكثرها وقوعا في الأثر، وأخفّها على الألسنة وأجودها لعملية القيّاس.[4]

---

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللغوي العربي عند العرب ومفهوم الفصاحة. ص263.

[*] وهي ما يسميها خبراء صناعة المصطلح والترجمة الحديثة بالعبارات الإصطلاحية (Idioms).

[2] عبد الرحمان، الحاج صالح. السماع اللّغوي العلمي. ص ص 262-264.

[3] ينظر صالح بلعيد: في قضايا فقه اللغة العربية، ص 148.

[4] ينظر المرجع نفسه، ص 150.

وقد تشدّد النّحاة البصريّون في الأخذ بكلام العرب، والرّواية عنهم، والأمثلة كثيرة في كتب التّراث، ولعلّ قصّة أبي عمرو بن العلاء مع الأعرابي أبي خيرة(*) لدليل قاطع على ذلك، وهذه القصّة تشير في مضمونها إلى أنّ اللّحن قد طال ألسنة الفصحاء كذلك، وهم أهل الفصاحة والسّليقة. [1] وقد رُجّح أن ذلك راجع إلى تقدم أبي خيرة في السّن، وطول مخالطته لأهل الحاضرة، بعد أن كان هو، وأمثاله من الأعراب، لا يستأنسون بلغة العرب في هذه الحواضر، حتّى أنّ البصريين كانوا يعتبرون الأخذ عن الأعراب الأقحاح مفخرةً لهم، وذلك أن قالوا: "نحن نأخذ اللّغة عن حرَشة الضِبّاب وأكلة اليرابيع".(**)

المطلب الثّالث: العرب المسموع منهم

اِتفق معظم الدّارسين أن من أخذت منهم اللّغة مباشرة هم أعراب البادية أو فصحاء الحضر، فأمّا أعراب البادية فهم الّذين كانوا ينتشرون في بوادي الحجاز ونَجَدْ وتُهامة(***)، حيث كان الأخذ عنهم يأتي عن طريق الرّحلة إليهم، أو كان الأعراب هم من يسلكون السّبيل إلى الحضر إمّا انتجاعًا للكسب أو طلبًا للعلم، [2] حيث كان علماء اللّغة والنّحو، يلجؤون إليهم ويأخذون عنهم ، وعددهم كثير نذكر منهم ابن النُّديم أبو الجاموس، وثور بن يزيد الّذي كان يفد إلى البصرة عند آل سليمان بن علي، وأبو شبل العُقيلي وقد وفد على الرّشيد، واتّصل بالبرامكة، وأبو مهديّة، وأبو ضمضم وغيرهم.(****)

أمّا فصحاء الحواضر الّذين أخذت عنهم اللّغة فيمكن تقسيمهم إلى فئتين:

الفئة الأولى: هم الأعراب الّذين ورغم إقامتهم بالحواضر، استطاعوا الحفاظ على لغتهم السّليقية سليمة، لأنّهم وفدوا مع قبائلهم إلى المدن الكبرى بالعراق، لكنهم اختاروا لأنفسهم مناطق بضواحيها سكنوا بها، فكانت حياتهم أقرب إلى البداوة

(*) ذكره ابن الأنباري في نزهة الألباء، ص 32، حيث سأل أبو عمرو أبا خيرة عن قول العرب: " استأصل الله عرقاتهن" فأجابه أنها تأتي بنصب التاء في عرقاتهن، فقال له أبو عمر: لانا جلدك يا أبا خيرة، لأنه كان سمعها منه بالجرّ قبل ذلك، وكان أبو عمرو يرويها مدققا بالنصب والجرّ.

(1) اِبراهيم، السامرائي. المدارس النحوية: أسطورة وواقع، ط1. عمان: دار الفكر، 1987، ص 18.

(**) وقد ذكر ذلك صاحب أخبار النحويين البصريين ومعظم كتب النحو القديمة.

(***) وقد ذكر ذلك وفصل فيه صاحب نزهة الألباء، ص 83، وصاحب أنباه الرواة، ج2، ص 258.

(2) علي، أبو المكارم. أصول التفكير النحوي. ص 37.

(****) وقد ذكرهم اِبن النديم في الفهرست من ص 67-69.

منها إلى حياة المدن، ومنهم بعض بطون قيس، وبنو عقيل،(*) ومنهم من كان يرحل بمفرده إلى المدن ويشتغل بتعليم الصّبيان أو تأليف الرسائل، وهذا النمط المعيشي كان يساعد على مجابهة اللحن والتأثر بلغة الحضر، لكن علماء اللغة كانوا يخضعونهم في مناسبات عديدة إلى اختبار الفصاحة للتأكد من خلوّ ألسنتهم من التأثر بها، فإذا ما ظهر لهم أي تأثّر، أعرضوا عن الأخذ عنهم والسّماع منهم [1].

الفئة الثانية: ويمثّلها من يمكن أن نسميهم المثقفّون، أي الّذين درسوا اللغة في كُبريات المدن من غير أن يكون لهم اتصال مباشر بالبادية، حيث تثقّفوا بحفظ القرآن، والشعر، وما يتصل بهما من دراسات،[2] وقد ذكرت كتب الطّبقات والتّراجم طرائفهم، ونذكر منهم عمر بن أبي ربيعة والفرزدق، وجرير، والأخطل وكُثيّر والأحْوَص، والكُمّيت، وبشّار، ورؤبة والعجاج.(**)

وعلى أساس هذين الفئتين، يتبين أنّ قول الفرابي في كتابه "الألفاظ والحروف" الّذي نقله السّيوطي في كتاب "المزهر"، و"الاقتراح" فيه نوع من الخطأ، فهو يقول: "لم يؤخذ عن حضري قطّ" [3] ، لكن النّحاة أخذوا عن أهل الحضر كما أخذوا عن أهل الباديّة، وقد تمّ ذلك بتحفظ شديد.

المبحث الثّالث: حدود السّماع

المطلب الأوّل: حدود السّماع المكانيّة

كما ذكرنا سابقا، فقد أوْرد جلال الدّين السّيوطي نصّا في كتابيه "المزهر"، و"الاقتراح"، نقْلا عن الفرابي، الفيْلسوف صاحب كتاب "الألفاظ والحروف"، وفيه كان قد حدّد القبائل التي أَخَذ عنها أَوائل النّحاة المادّة اللّغوية، يقول فيه: "... والّذين عنهم نُقِلت اللّغة العربيّة وبِهم أُقْتُدِي، وعنهم أُخِذ اللّسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيْس،

(*)ذكرهم صاحب الفهرست كذلك ، ص 66، 67.

(1) علي، أبو المكارم. أصول التفكير النحوي، ص 39.

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(**) ذكرهم ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء، ص 25، 39، 111، 79.

(3) جلال الدين، السيوطي. الاقتراح في أصول النحو. ص47.

وتَمِيم، وأَسَدْ ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ هُم الّذين عنهم أكثر ما أُخِذَ ومُعْظمه، وعليهم اتُّكِلَ في التَّعريب والإعراب، والتَّصْريف، ثم هُذَيْل، وبعض كِنَانة، وبعض الطَّائيين، ولم يُؤخَذْ عن غَيْرِهم من سائِر قَبائِلهم...." [1]

فالفرابي في هذا الجزء من النّص، يُحدّد القبائل المعنيّة بالسّماع منهم جملة، والقبائل الّتي أُخِذ من بعضها، ثم يحدّد الإحداثيّات الجُغرافية الّتي لم يُؤخذ عنها فيقول: "... فإنّه لم يُؤخذ عن حضري قطّ، ولا عن سكّان البراري ممّن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمَم الذين حوْلهم"، وهو، بقوله هذا، يشير إلى إمكانيّة تأثير لسان الأمم المجاورة لهذه الأمصار على فصاحتها.

ويسترسل في ذكر القبائل التي لم تُؤخذ عنها المادّة اللّغوية فيقول: "... فإنّه لم يُؤخذ لا من لخْمٍ، ولا من جذام؛ لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قُضاعة، وغسّان، وإيّاد؛ لمجاورتهم أهل الشّام، وأكثرهم نصارى يَقرؤون بالعِبْرانية؛ ولا من تَغْلبُ واليَمَنَ؛ فإنّهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان؛ ولا من بكر لمجاورتهم للقَبط والفُرس؛ ولا من عبد القيس وأزد عمّان؛ لأنّهم كانوا سُكّان البحرين مخالطين للهند والفرس؛ ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة؛ ولا من بني حنيفة وسكّان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف؛ لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم؛ ولا من حاضرة الحجاز؛ لأنّ الّذين نقلوا اللّغة صادفوهم؛ حين ابتدأوا ينقلون لُغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم".[2]

وللعلم، فإن السّيوطي كان قد نقل هذا النّص في كتابيه "المزهر" و"الاقتراح"، وقد حقّقهما المستشرفون الألمان، فوقع منهم تَصْحِيفٌ وتحريف[*] أحدث خللا في دلالة النّص: فمثلا: و"لا من تغلب واليمن"؛ فإنّهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان: هنا كلمة "اليمن" أصلها "النمر"، لكن كيف لليمن أنْ تُجَاور اليُونَان؟ والبِلاد الأولى تَطِلّ على المحيط الهادي في آسيا، في حين اليُونان في أوروبا الشّرقية؟

---

[1] جلال الدين، السيوطي. الاقتراح في أصول النّحو، ص 111.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[*] يمكن الإطلاع على ما جاء في كتاب رمضان عبد التواب، في تحقيق المخطوطات من قبل المستشرفين (المقدمة) وأثر التّصحيف والتّحريف في تغيير مضمون النّصوص.

أمّا الدّكتور عبد الرّحمن الحاج صالح، فقد أعاد قراءة التّراث واستقرأ كتاب سيبويه بأجزائه كلّها، وتوصّل إلى أنّ نصّ الفُرابي فيه تضليل، من حيث القبائل التي حصرها الفرابي، وخصّها بالسّماع منها. يقول: " لقد رَحل اللّغويون العرب إلى كلّ صَقْع من أصقاع شبه الجزيرة، وكانت رَحلاتهم للسّماع من أفواه العرب واسعة جدّا وخاصّة في العصور الأولى، فكان يَنْتقل بعضهم من البصرة، أو الكوفة إلى وسط نَجْدْ، وغربيه، وإلى العالية، ثم الحجاز، ومنه ما يُتَاخِمه شرقا، كالبَحرِيْن، ومن الحِجاز إلى شمال اليَمن". [1]

ولم يكتف عبد الرّحمن الحاج صالح بذكر هذه المناطق بصفة إجمالية، بل قام بدراسة إحصائية في كتاب "الفهرست" لابن النّديم، فوجده ذَكر 60 قبيلة من شتّى الأقاليم، كما أحصى عدد ما ذكره سيبويه في كتابه فوجده 38 قبيلة نذكر منها: أَسَدْ، بَاهِلَة، بَجِيلَة، بَكْر بنْ وَائل، تَغْلُب، تَمِيم، سُلَيمْ، ضَبّة...وغيرها [2]. وهنا نجده يذكر "تَغْلُبْ" الّتي أَقْصَاهَا نصّ الفُرابي من رقعة السّماع السّليقيّة في نصّه.

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة. ص 347.

[2] المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

وللاستزادة ندرج الخريطة التّالية:

خريطة(1)

توزيع قبائل العرب في العصر النّبوي[1]

[1] https://www.islamweb.net تمّ تصفّح الموقع يوم 05-09-2020 على السّاعة 20:18.

المطلب الثّاني: حدود السّماع الزّمانية

تُجْمَع كُتب التّراجم والسِّير والطَّبقات أنّ أبا عمرو بنْ العلاء هو الّذي اَبتدع طَريقة السَّماع اللّغوي الميداني ولم يَسْبقْهُ إلى ذَلكِ لُغَويّ آخر، حيْث تحوّل بَيْنَ البَدْو بمَا يَقْرُبْ أَربعين سَنة،(*) وقد وُلد سنة 68هـ أو 70هـ بمكّة، ونشأ بالبصرة، ثمّ توجّه مع أبيه هُروبًا من بطش الحجّاج إلى مكّة، والمدينة، وقرأ بها، وقرأ بالكوفة، كذلك، والبصرة، بحيث ليس في القرّاء السّبعة أكثر شيوخا منه، وهو "أوسَع عِلْمًا من عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، بكلام العرب، ولُغَتِها، وَغَرِيبها" (**) فكَان قَارِئًا، ولغويًّا، ونَحويًّا، يَجْمع بين القراءات واللّغة، والشّعر، والنّحو، في براعة واسعة وقد تُوفي سنة 154 هـ، على حسب ما ذكرته كتب التّراجم، والطّبقات.

وفي نفس الحِقبة الّتي عاش فيها أبو عمرو، كان المفضّل الضّبّي، أوّل علماء الكوفة الّذين قاموا بتحرّيات جمع اللّغة في مختلف الأمصار الفصيحة، وقد وثّقه ابن سلام الجُمَحي، وغيره من العلماء، اشتهر بكتاب "المفضليّات" المشهورة، وَجَمعَها عنه تِلميذُهُ ابن الأعرابي، كما روى عنه البَصْرِي أبو زيد. (1)

كما أَخَذَ التّحرّي الميْداني عنه في اللّغة، والشّعر ثلاثة لُغويين هم تلاميذه، الّذين أكملوا هذا العمل الجبّار، وهم الأصمعي (ت 215 هـ)، وأبو عَبَيدة (211 هـ)، وأبُو زَيد الأنْصاري (ت 205)، فقد اشتَغلُوا بحماس كبير، لَمْ يُرَ مِثله منْ قَبْلِهم وَلاَ منْ بَعْدِهم، في مجَال التّحرّي الميداني.(***)

وكان قدْ أَخَذَ هذا الْمنهَج عنْ أَبي عَمْرو وآخرون، أشهرهم في اللّغة والنّحو، عيسى بن عمر الثّقفي (ت 149هـ)، والخليل بن أحمد (ت 175 هـ)، ويُونس بن حبيب (ت 182 هـ)، وأبُو الخطّاب الأخفش، وأبو جعفر الرُّؤَاسي

(*) ذكر ذلك الزجاجي في مجالس العلماء، والزبيدي في طبقاته وابن سلام في طبقاته وغيرهم.

(**)ذكره ابن سلام الجمعي ورجّحه على باقي العلماء بسعة العلم.

(1)عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 339.

(***)حتى ذكرهم أبو الطّيب اللّغوي كثيرا، ورأى بأنّ ما جمعه الثّلاثة يُعدُّ كلَّ ما تَدَاوله النّاس من مادَّة لُغوية.

الكوفي [1]، وسِيبَويه (ت 180 هـ)، والنّضِر بنْ شُمَيل وهُمَا تِلميذَا الخَليل، فأمّا الأوّل فصاحب أضخم وأكمَل كِتاب في النّحو العربي، وأمّا الثّاني فقد ذُكِر أنّه أَقَام في البادية أربعين سنة، لِيَأْخذ عنْ فُصحاء العرب.[*]

ولسِيبويه كذلك تلاميذ من مثل أبي الحَسَن الأخْفش الأوسط (ت 215 هـ)، وقُطْرب(ت 206 هـ)، حيث سَمِع الأَخْفَش كثيرا عن العرب، وألّف كتابه "معاني القرآن" الذي يُكْثرُ فيه ممّا سَمِعه عن فصحاء العرب مباشرة.[**]

ولم يُغْفل نُحاة الكوفة الأوائل السّماع المباشر، فقد اشتهر الكِسائي (ت 189 هـ) بالنّحو، والسّماع عن العرب، والقراءة، وهو من تلاميذ أبي جعفر الرّؤاسي، كما أكثر الفرّاء في كتابه "معاني القرآن" من ذكر سماع الكِسائي، حيث يقول: "... وزعم الكِسائي أنّه سمع العرب تقول"، [2] وغيرها من الأمثلة التي سَنتَطرق لها في الباب الثّاني من هذا البحث، كما تفرّد الفرّاء كذلك بمسموعاته التي يَحْفِلُ بها كتابه "معاني القرآن" (الجزء الأوّل)، محلّ دراستنا في شَقِّها التطبيقي.

ومنه فالفترة الممتدّة ما بين نِهاية القرن الأوّل هجري، والقرن الثاني تُعدُّ فترة تأسِيسه لعمليّة السّماع اللُّغوي العِلمي[***]، حيث المؤسّس الحقيقي لها كان أبا عُمْرو بن العلاء.

كما يُمكن تحديد المتخَصِّصين الأوائل في جمع أشعار العرب في هذه الفترة، حيث كان من روّاد هم محمّد بن سلاّم الجُمحي (139هـ، 232 هـ)، فقد تعلّم على يد أبي عمرو بن العلاء ومن تلاه، وعاصر سيبويه، ويعتبر أوّل من سنَّ المبادئ العِلميّة لنقد السّماع الخاصّ بالشّعر، [3] وَ تخصّص في سماع أشعار العرب، اللغوي النّحوي أبو الحسن الأثْرم (ت 232 هـ)، كما أخذ أبو عمرو الشّيباني الكوفي (110 هـ-213 هـ) في الفترة الأولى للسّماع عن المفضّل الضّبي،

---

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ، ص340.

[*] فصل في ذلك ابن النديم في الفهرست، ص 57.

[2] يحي أبو زكريّا،الفرّاء.معاني القرآن. ص134.

[**] عند تصفح كتابه معاني القرآني نجده يكثر من ذكر عبارات سمعت فصحاء العرب يقولون... ص 273، وهذا قول العرب ص (179 و275 و283...).

[***] السّماع اللّغوي العلمي نقصد به المبني على مبادئ علميّة تسير وفق منهج المسح الشامل لرقعة جغرافية محدّدة، وعينة بشرية محدّدة في حقبة زمنية محددة.

[3] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص ص 342-343.

حيث يُعتبر جامع دواوين القبائل، و الكثير من الشّعر، ولغة العرب، و له كتاب "الجيم"، معجم لغريب كلام العرب، وهناك كثيرون آخرون ممن سَمِعوا عن فُصحاء العرَب منَ الكوفة في هذه الفترة.

كما تميّزت هذه الفَترة الزّمانيِة الأولى للسَّماع بفئة الأعراب الأربعة، الفصحاء الّذين نزحوا إلى البصرة والكوفة وتتلمذوا على يد علماء العربيّة الأوائل، وهم المؤرِّج السّدوسي (ت 195 ه)، وأبو مِسْحل، تلميذ الكِسائي، وله كتاب "النوادر"، وأبو مالك، عمرو بن كَرْكَرة الذي أصبح ورّاقا، وأبو العَمَيْثَلْ (ت 204 ه)، وله كتاب المأثور في اللّغة، وغيرهم. [1]

وتأتي الفترة الثّانية الّتي تحدّد الحدود الزّمانية للسّماع، وهي تمثل القَرْنَين الثّالث والرّابع هجري، وقد ظهر فيها لُغوِيون اهتموا بالسّماع اللّغوي أمثال أبو حاتم السّجستاني(ت 250 ه) الّذي سمع كثيرا عن العرب الفُصحاء، كما ظهر لُغوِيون، في هذه الفترة، أمثال إسحاق الزّيّادي (ت 249 ه)، وله كتبًا في الأمثال، وأسماء السّحاب، والرّياح والأمطار، والتُّوزِيّ (ت 230 ه)، وله كتاب في الأضداد، وآخر في النّوادر، وغيرهما، وهذه الكتب مذكورة في كتب التّراجم، والطّبقات، إلاّ أنّها لم تَصِلْنا حتّى نَعْرفَ هل نَزَلوا إلى مَيْدان السّماع أَمْ لاَ. [2]

أمّا الكوفيون المنتمون إلى هذه الحقبة من السّماع اللّغوي العلمي، فهم: أبو العباس ثعلب (ت 291 ه) وله سَماع عنِ العرب، وهو صَاحِب، أوّل محاولة لِاستخراج اللّغة (الواضحة) التي يَسْتَعملها كلّ العرب، وسُمِّيت بـ "فَصِيْح ثعلب".

أمّا المفضّل بن سلمة، فقد أَلَّف في أَمْثال العرب، وأمّا يَعْقوب بن السُّكيت (ت 243 ه)، وأبو سعيد السّكري (212 -275 ه)، وأبو الحسن الطّوسي، فلهم الفضل الكبير في التَّدوين العلمي للشّعر، باللّجوء إلى مناهج التّحقيق المماثلة للمناهج الحديثة، كما عاش، في هذه الفترة، أبو حنيفة الدّينوري وأَلَّف كتابا في النَّبات لم يُؤَلَّفْ مِثْلُه قطّ. [3]

---

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ، ص 344.

[2] المرجع نفسه، ص344.

[3] المرجع نفسه. ص 345.

وبهذا فإنّ التّدوين العِلمي للشِّعر خُتِمَ بنهاية القرن الثالث الهِجري أي مع أبي سعيد السُّكّري [1]، أمّا سماع اللّغة فلم يَنْتَه مع سماع الشّعر، بل استمرّ إلى نهاية القرن الثّالث، والقرن الرّابع هجري، وظهرت أضخم المعاجم العربية الأولى، بعد كتاب "العين"، نحو معجم "الجمهرة" لابن الدّريد "تهذيب اللغة" للأزهري، إلاّ أنّهما لم يُؤَلَّفَا عن طريق السَّماع المبَاشر عن العرب، أمّا مُعجم "الصِّحاَح" للجَوْهرَي فقد ألَّفَهُ صاحبه في معظمه، ممّا سَمِعَهُ من أهل الحِجاز ومُخْتلف القبائل العربيّة. [2] وآخر مَنْ سَمِع مِنَ العرب هُو ابن جِنِّي (ت 392 ه)، وكانَ ذِكْرهُ لذلك كثيراً في كتاب "الخصائص"، لكنّه في نهاية حياته لاحظ أنّه لم يَبْقَ فِي عصْره مَنْ يَجُوز لَهُ الأَخْذُ عنِ العَرَبِ لِفَسَادِ لُغَتِهِم[*] وَزَوَالِ الفصَاحة السِّليقيَّة. [3]

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص345.

[2] جلال الدّين، السّيوطي. المزهر، ج1، ص 97.

[*] وذكرنا فيما تقدّم من هذا البحث قول اِبن جنّي حول فساد الألسنة حتى طالت ألسنة الأعراب أنفسهم.

[3] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة. ص 346.

وللاستزادة ندرج المخطّط البياني التّالي:

المخطّط (1)

إحداثيات الفصاحة الزّمكانية وتطوّر تدوين اللّغة[1]

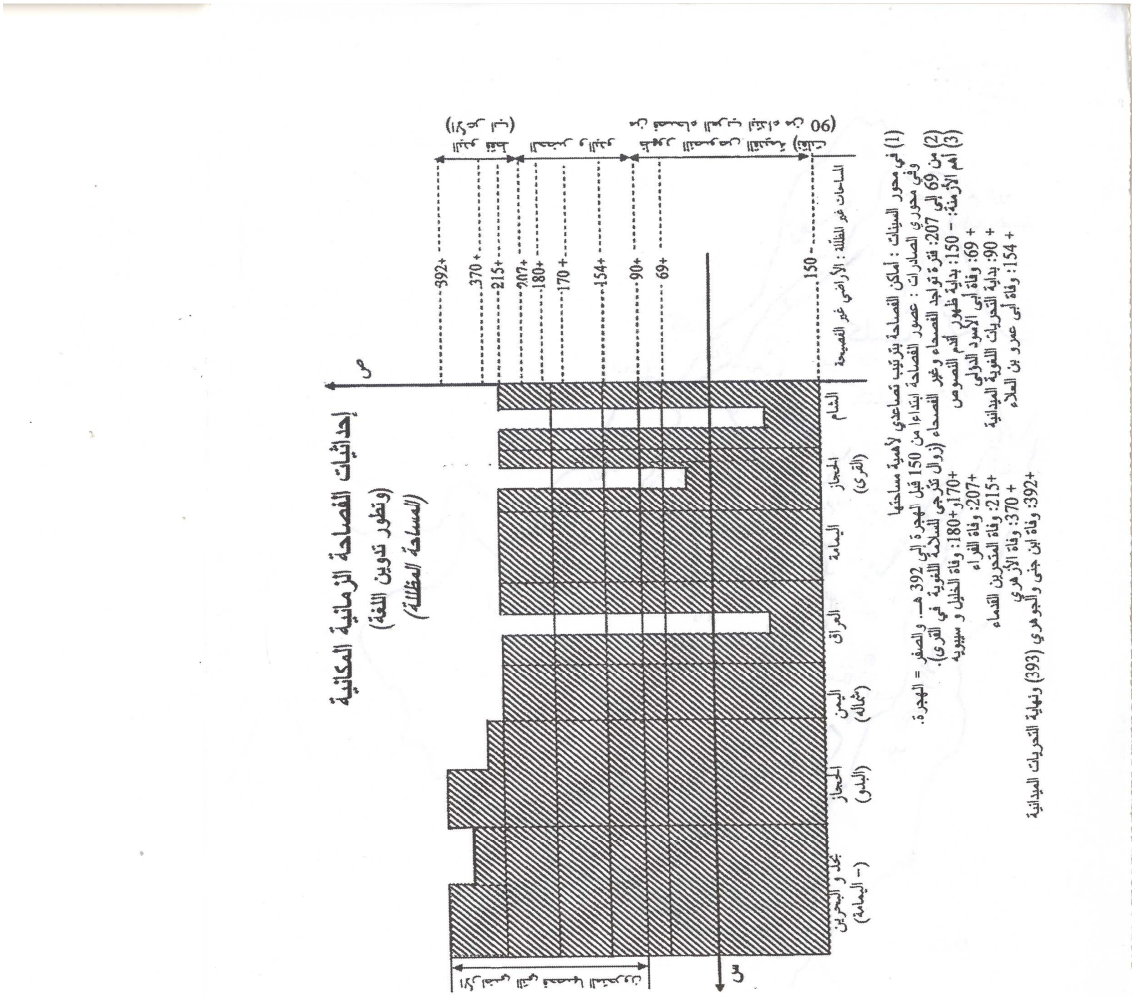

[1] ، عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص133.

الفصل الثاني:الشّاهد النّحوي

المبحث الأول: تعريف الشاهد النحوي

المطلب الأول: الشاهد النحوي لغة واصطلاحا

المطلب الثاني: الفرق بين الاستشهاد والاحتجاج بناء على تعريفهما

أولا: تعريف الاستشهاد(لغة و اصطلاحا)

ثانيا:تعريف الاحتجاج(لغة واصطلاحا)

المبحث الثاني: عصر الاحتجاج وحدود الفصاحة

المطلب الأول: مفهوم عصر الاحتجاج

المطلب الثاني: حدود الفصاحة

المطلب الثالث: طبقات الشعراء في عصر الاحتجاج

المبحث الثالث: مصادر الشاهد النحوي

المبحث الرابع: العلاقة بين المسموع والشاهد

تمهيد

احتلّت الشّواهد النّحوية مكانة عالية لدى النّحاة العرب لِما لها مِنْ أهميَّة بالغَة الأثَر، في إثبات صِحّة قواعدهم الّتي وضَعوها، سواء عَنْ طريق استقراء المادّة اللّغوية، ورَصْدِ المطَّرِد مِنَ الظَّواهر اللّغوية، أو عن طريق القِيَّاس النّحوي، غَيْرَ أنّ بعض اللُّغويين والُمصّنفِين في مجال النَّحو وأُصُولهِ لا يَكادون يُفرِّقُون بين المادّة اللُّغوية المجَموعة (المدوّنة / الْمسْمُوع)، وَبَيْنَ الشّواهِد النَّحوية بكلّ أَنْوَاعها ومَصَادِرِها، والمتصفِّح لِمِخْتَلف المصادر والمراجع الّتي تناولت المسموع والشّواهد النّحويّة بالدّراسة، يَلْمَس جيّدًا حقيقة جَعْلَ السَّمَاع، والشَّواهِد شيئًا واحدًا، حتَّى أنَّ بعض المسْتَشْرِقِين الّذين درسوا النَّحوي العربي، وأصوله حكموا عليه، وعلى المدوّنة بالضّيق، وعلى عمليّة اِستقرائها بالنُّقص، انطلاقا من ظاهرة المسَاوَاةَ بَيْنَهما، ولأجل التأكّد من مزاعمهم أو ردّها، قمنا بالبحث في الموضوع، وبينّا مفهوم الشّاهد لغة واصطلاحا، وبَيّنا العلاقة بين المسموع والشّاهد بناءا على أحدث دراسة قام بها عبد الرّحمن الحاج صالح، كما أَدْرَجنا مصادر الشَّاهد النّحوي المختلفة، وبيّنا في هذا الفصل ما للشّاهد النّحوي مِنْ أهميّة بالغة، حيثُ يَنْفِي أَنْ يُنْسَبَ إِلى العربيَّة ما لَيْسَ مِنْهَا خَشْيَةَ أَنْ يَحْدُثَ في الأحكام الدِّينية واللُّغويَّة فساد. [1]

[1] محمّد حسن، جبل. الاحتجاج بالشّعر في اللّغة: الواقع ودلالته. دط. القاهرة: دار الفكر العربي. دس، ص 51.

المبحث الأوّل: تعريف الشّاهد النحوي

المطلب الأوّل: الشّاهد لغة

الشّاهد: اسم فاعل منَ الفِعل الثّلاثي (شَهِدَ) و(شَهَدَ)، وهو العَالم الّذي يبيّن عِلمه، ومِنْه قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آَخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآَثِمِينَ﴾**[1]

والشَّهَادَة خَبَرٌ قَاطِع، تَقُول: "شَهِدَ الرَّجل عَلىَ كذَا، وشَهِد الشَّاهد عِنْد الحَاكِم، أيْ بيّن ما يَعْلَمُه وأَظْهَره، وأَصْلُ الشَّهادة الإخبار، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ [2]، أيْ مُبَلِّغا لِرِسَالَتِك، وقِيلَ مبينا [3]، والشَّهادة الخَبر القَاطِع، وشَهِدَه شُهودًا، أي حَضَره، فهو شَاهِد [4]، وفي المعْجَم الوَسيط الشاهد: من يُؤدّي الشهادة والدّليل، والجمع شهود وأشهاد، وجمع غير العاقل: شواهد، وصلاة الشّاهد: صلاة المغرب، وصلاة الَفجْر، والشَّهادةَ أَنْ يُخْبِرَ بمَا رأَى، وأنْ يُقَرَّ بمَا عَلِم والشَّهادة البَيِّنة، وهي أقوَال الشُّهود أمام جِهة قضائيَّة. [5]

المطلب الثَّاني: الشَّاهد اِصطلاحًا

الشَّاهد هو قَولٌ عربيّ لقائل موثُوق بِعربيّته، يُورَد للاِحتِجاج والاِسْتِدلال بِه عَلى قوْل أو رَأْي. والشَّاهد النَّحوي كَمَا هُو وَارِد في كُتبُ النَّحو يَكُون آية قرآنية أو بيْتا من الشِّعر أو قولاً سائرًا. وكلمة الشَّاهد أكثر ما

---

[1] سورة المائدة: الآية 106.

[2] سورة الأحزاب: الآية 45.

[3] محمد بن أحمد، الهروي الأزهري. تهذيب اللغة. تحقيق محمد عوض مرعب، ط1. بيروت: دار إحياء التّراث العربي، 2001م، ج 6، ص 47.

[4] جمال الدين، ابن منظور. لسان العرب. ج3، ص 238.

[5] أحمد، الزّيات وآخرون. المعجم الوسيط. ط5. مجمّع اللغة العربية بالقاهرة، 2011، ص 497.

تُطْلَقُ على الشِّعر، حتَّى إنَّ بعْضاً مِنَ العُلماء قد جَمَعَهَا، وشَرَحَهَا، وأَعْرَبَهَا في مصنّفات خاصّة أو مذيَّلة كشَواهد سِيبويه، وشَواهد المغْني، وشَرْح العَيْني لشَواهِد الأَشْموني. [1]

والشَّاهد جُملة مِنَ كلام العرب، أو ما جرى مجْراه، كالقرآن الكريم، تَتَّسِم بمواصفات معيَّنة، وتقوم دليلا على اسْتخدام العرب لفظًا لمعناه، أو نَسقًا في نَظْم أو كلام، أو على وُقوع شَيء إذا اقْترَن بغَيْره، أو على علاقة بين لفظ وآخر، أو معنى وغيره، أوتقديم أو تأخير، أواشْتِقاق، أوبِناء، وَنحْوِ ذلك ممَّا يَصْعُب حَصْره وممّا هو محسوب في مناحي كلام العرب الفُصحاء [2]، أو هُو إثبات صِحّة قاعدة، أو اِسْتعمال كَلمة أو تركيب بدليل نَقْلي صحَّ سَنده إلى عربيّ فصيح سَليم السَّليقة(*). [3] ويُرَادُ بالشَّاهد مَا يُؤْتى به من الكلام العربي الفَصيح لِيَشْهد بِصحَّة نسبة لفظْ أو صيغة أو عبارة أو دلالة إلى العربيّة[4].

الشَّاهد إذن في الاِصطلاح: هو قَوْل عربيّ شعرًا كان أو نثرًا قِيلَ في عَصْرِ الاِحتجاج، يُؤْتى به للاِحتجاج على صِحَّةَ رَأْي أَوْ إِثْبَاتِ قَاعدةِ نَحْوية.

والعلاقة، إذًا، بين المفهوم اللُّغوي والاِصْطلاحي تَكْمُن في عمليَّة الاستِشهاد وإِثْبَات الحُجَّة على صِحَّة مسْألة، أو قَضِيَّة، وبيَان ثُبُوتها.

---

(1) محمد سمير، نجيب اللّبدي. معجم المصطلحات النّحوية والصّرفية. ص120.

(2) جبر، يحي عبد الرّؤوف. "الشاهد اللّغوي". مجلة النجاح للأبحاث، 6، 2(1992م): ص265.

(3) السّعيد، الأفغاني. من تاريخ النّحو العربي، ص 17.

(4) محمد حسن،جبل.الاحتجاج بالشّعر في اللّغة: الواقع ودلالته، ص51.

(*)السّليقة لغة، الطّبيعة والسّجية،أي الخُلق، أو الصّفة الرّاسخة، المقصود هنا صفة القدرة أو المهارة اللّغوية،يقال فلان يتكلّم بالسّليقة، أي ينطق بالكلام صحيحاً من غير تعلّم، والسّليقي: العربيّ الّذي ينطق بالكلام صحيحاً من غير تعلّم.والسّليقة إذًا قدرة أو مهارة لغويّة راسخة في نفس صاحبها تمكّنه من الأداء اللّغوي الصّحيح من غير تعلم، وهي تقرُب ممّا يسمّيه ابن خلدون الملكة اللّغوية (ينظر الاحتجاج بالشعر في اللّغة،الواقع و دلالته، لِ محمّد حسن، جبل، ص ص 13-14).

المطلب الثّالث: الفرْق بين الاِسْتشهاد والاِحْتِجاج

أوّلا: تعريف الاِستشهاد

1- تعريف الاستشهاد لغة

في اللّغة، شهد فلان على فلان بحقّ، فهو شاهدٌ وشهيد. واسْتشهدتُ فلانًا على فلانٍ إذَا سألته إِقَامَة شَهادة اِحْتَمَلَهَا [1].

2- تعريف الاستشهاد اصطلاحا

في الاصطلاح، "الاحتجاج للرّأي أو المذهب، أي أنْ يَأْتِي النَّحوي لما يقول بِشاهد شِعري، أو نثْري مِنَ الْقولِ المعتمد الموثّقِ ليُؤَيَده بِه و يُدَعِّمه". [2]

ثانيّا: تعريف الاحتجاج:

1- تعريف الاِحتجاج لغة: هو الإتيان بالحجّة والبرهان.[3]

2- تعريف الاحتجاج اصطلاحاً: هو الاِستدلال بأقْوال مَنْ يُحْتج بهم في مجَال اللُّغة والنّحو، ويُقَابله التَّمثيل [4] الّذي الغَرَضُ مِنه الشَّرح والإِفْهَامُ، والأمْثِلة لا يُشْترَط فيها أنْ تكون ممّا يُحتج به من الكلام، حيثُ نَجد النُّحاة مثَّلُوا بشِعر المتنبّي، والمعَرّي، ولمْ يَحْتَجُّوا بِشِعرِهما، لأنَّهُما عاشَا خَارِجَ عصر الاِحتجاج [5]، كما يُعرّف الاِحتجاج أنّه يرُاد بِه إثْباتَ صحّة قاعِدة، أو اسْتِعمال كلمة، أو تَرْكيب، بدليل نَقْلي، صحَّ سنَده إلى عربيّ فصيح، سليم السّليقة. [6]

[1] جمال الدين. ابن منظور. لسان العرب. ج3، ص 240.
[2] محمد سمير، نجيب اللبدي. معجم المصطلحات النحوية والصرفية، ص 119.
[3] جمال الدين، ابن منظور. المصدر نفسه، ص 228.
[4] محمد سمير، نجيب اللبدي. المرجع نفسه، ص 61.
[5] المرجع نفسه، ص 61.
[6] السّعيد، الأفغاني. في أصول النحو، ص 6.

وإذا أردنا استنباط الفرق بين الإستشهاد، والإحتجاج نصل إلى أنَّ الإحْتجَاج مُرَادِف للإستشهاد لِكَوْنه إستدلال بأَقوال منْ يُحتج بِهم في مجال اللُّغة والنّحو حسب تعريف مُحمّد سمير نجيب اللّبدي في معجمه، لكنْ في الحقيقة، هناك فَرْق واضح يعود لعاملين هما: نَوْع النّص وقائله، فإذا كان النّص من مصادر المادة اللُّغوية الّتي اسْتُقْرِئت لوضع القواعد اللّغوية، أي تنتمي إلى عصر الإحتجاج، وصادرة عن مَنْ يُوثَق به، صحّ إطلاق مصطلح الإستشهاد أو الإحتجاج عليه، لكن مصطلح الإحتجاج هو الأكثر إستعمالا في المصنّفات النّحوية، لأنه يُستخدم في مواقف المغَالبة والجَدَل بِقَصْد التَّفوّقُ ونُصْرة الرّأي ومثال ذلك كتاب "الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين البصريين والكوفيين" لابن الأنباري، وكتاب "المسائل الخلافية في النّحو" للعُكْبري. [1]

كما يَكْثر إستعمال مُصْطلح الإحْتِجَاج في مَوَاضع الدّلالة على فَصَاحة عربي أو هُجْنَتِه* أيْ في مسائل تَوْثيق شاعر أو تَضْعِيفِه. [2]

وفي دراسة أُخْرى لعَلي أبي المكارم نَجِد أنَّ "الإستشهاد ذِكْرُ الأدلّة النّصية المؤكدة للقواعد النّحوية أي الّتي تبنى عليها القواعد"، وهو هنا يرى أنّ الإستشهاد يَحْمِل بعض مدلول الاحتجاج كَوْن الإحتجاج هو الإستدلال عَلَى صِحّة القواعد مُطْلقًا، كما نجدهُ يُشِير إلى أنَّ، في التّراث النّحوي العربي، هذان المصطلحان كانا يُسْتَخدمان معاً للدّلالة على النّصوص اللّغوية التي كانت مَصْدرَ التّقنين والتّقعيد للّغة العربيّة، ومن جهة أخرى، يتطرّق إلى التَّمثيل الّذي يراه يَهْدِف إلى شَرْح القواعد النّحوية، بذكر أمثلة لغوية توضّح هذه القواعد، دون أنْ تكون هذه الأمثلة المصدر الّذي بُنِيَتْ عليه، والتَّمثيل لاَ يَقْتَصِر على عَصْرٍ مِنَ العُصُور، ولاَ على مُسْتوَى لُغَوِي عكس

---

[1] نورة، ناهر ضيف الله الحربي. "الشذوذ في الشاهد الشعري بين الدلالة والاستعمال". رسالة ماجستير. جامعة الملك عبد العزيز. السعودية، 1432هـ، ص 15.

[*] وقد أكثر من إستعمال هذا المصطلح أبو فرج الإصفهاني في كتاب الأغاني، و المرزباني في كتاب الموشح.

[2] محمد، عيد. الاستشهاد والاحتجاج في اللغة. ط3. القاهرة: عالم الكتب، 1988م، ص ص86-87.

الإستشهاد، والإحتجاج اللّذين يَشْتَرِطان الإرْتباط بمدّة زمنيّة حدّدها النُّحاة واللّغويون مُسْبقا، وهنا يَجْدُرُ بنا التَّطرّق إلى مفهوم جَدِيد هُوَ "عصْرُ الإحْتِجَاج" وما المقصود به عند النُّحاة القدماء.

المبحث الثّاني: عصر الاحْتجاج وحُدود الفَصاحة

المطلب الأوّل: مفهوم عصر الاحتجاج

قبْل تَقديم مفْهوم عصْر الإحتجاج يجب أن نُوضِّح الأسَاس الذي حُدّد على أساسه هذا العصر، عند النّحاة العرب، هذا الأساس تمثّل في فكرتهم عن اللّغة، وما عبّروا عليه باصطلاح "السّليقة اللّغوية" (*) ، الّتي كانت وَرَاء تَحْدِيدهم للنّصوص المشكِّلة للمُدوّنة العربيَّة الضَّخمة، والّتي اِستَقْرَؤُوها وَبَنَوا عليها القَوَاعِد اللّغوية، كَمَا كَانَتْ وَرَاء تَحدِيد مجال هذه المدوّنة زمانيًّا ومكانيًّا. (1)

وبناء على هذا، فإنّ عصر الاحتجاج هو العصر الّذي عاش فيه المتكلّم العربي الفصيح، سليم سليقة اللّغوية، أي العربي الّذي لم يتّصل بغيره من الأمم، ولم يخالط غيره من الشعوب، وبالتّالي فهو يتميز بسلامة اللّغة، وقد جعل النّحاة العرب، واللّغويون كذلك اللّغة الفُصحى سَليقة لُغوّية عند كل عربيّ، وهكذا نجدهم يلجؤون في عمليّة استقراء الأساليب العربيّة إلى كلّ من يُوثق بفصاحته(**). (2)

المطلب الثّاني: حدود الفصاحة

وأمّا عن حدود الفصاحة الزّمانية والمكانيّة عند النحاة، فهي تلك التي تطَرّقنا إليها بالتّفصيل، في الفصل الأوّل الخاصّ بالمسموع، ولا داعي لإعادة ذلك في هذا الفصْل، غير بَعضِ هذَا التَّوضيح الذي مفاده أنَّ فترة

(*) السّليقة اللغوية عند النحاة العرب هي نفسها ما أطلقت عليه اللسانيات الغربية الحديثة اللسان الأم، وهو اللسان الذي ينطق به الفرد أول ما يتعلّم اللغة مكتسبا إياها من وسطها الطبيعي الاجتماعي الفطري.

(1) علي، أبو المكارم. أصول التفكير النحوي، ص 220.

(**) الفصاحة اللّغوية عند النحاة تعني الخلوّ من اللّحن والهجنة والنقاء من التأثر بلغات المجاورين للبيئة اللغوية السّليقية، وليست نفسها الفصاحة عند البلاغيين.

(2) المرجع نفسه، ص 220.

الفصاحة تمتدّ قُرابة ثَلاثة قرون، في الحواضر، وتَصل إلى حوالي خمسةَ قُرون في البوادي، ومن هذه القرون نَجِد قُرابة قرن ونصف قَبل الإسلام، وبقيّة المدة تَمتدّ في العصور الإسلاميّة حتَّى عهدَ بني العبّاس. [1]

وقد قَدَّم ابن جِنّي تفسيرًا لتَحْديد فترة الفَصاحة بهذه المدّة في ((باب ترك الأخْذ عن أهلُ المدَر كما أُخِذَ عن أهل الوَبَر))، يَقُول: "عِلّة امْتِناع ذَلك مَا عَرض للّغات الحَاضرة وأَهْل المدَرِ من الاِخْتلال والفَسَاد والخَطْل، ولو عُلِم أنّ أهل مدينةٍ باقُونَ على فَصاحتهم وَلَمْ يَعْتَرِض شَيءٌ منَ الفساد لِلُغتهم لوَجَبَ الأَخْذ عنهم كما يُؤخذ عن أَهْل الوَبَر، وكذلك لَوْ فَشَا فِي أهْل الوبَر مَا شَاع في لُغَة أَهْل المدَر مِنَ اضْطِراب الأَلْسِنة وَخَبَالِها، وانْتِقاضِ عادة الفصاحة وانْتِشارها، لوَجَبَ رَفْضُ لغتها، وتَرْكِ تَلقِّي مَا يَرِدُ عَنْهَا، وعَلَى ذَلك العَمَلُ فِي وَقْتِنَا هَذَا، لأنّنا لا نكاد نَرَى بدويًّا فصيحًا، وإنْ نَحن آنسْنَا منه فصاحة في كلامه، لَمْ نَكَدْ نَعْدم ما يفسد ذلك. ويقدح فيه، وينال ويغضّ منه". [2]

المطلب الثّالث: طبقات الشّعراء في عصر الاحتجاج

إنّ أبرز ما ميّز عصر الاِحتجاج مِنَ تقسيمات النّحاة، تَقْسِيمُهم للشّعراء إلى أربع طبقات، ذَكَرتها مُختلف المصادر والمراجع التّراثية والحديثة، ولعلّ التّقسيم الذي يتماشى مع ما عرضنا له في الفصل الأوّل من هذا الباب، والخاص بالسّماع، ما أورده عبد الرّحمن الحاج صالح، في أحدث دراسة له في هذا الشّأن، وربّما أحدث دراسة عربيّة تعيد النَّظر في أمر تقسيم الشّعراء في عصر الاِحتجاج على الإطلاق، وهم كالتّالي:

أوّلا: طبقة الشّعراء الجاهليين

وقد قسّمهم الدّكتور عادل فريجات إلى قِسمين: القسم الأوّل وهم من أَسْماهم بالجِيل الأوّل، وكانوا قد عاشوا في القَرنين الثّالث والرّابع ميلاديين، لكن العلماء حسب رأيه، لا يعدّوهم شعراء لأنّهم لم يقولوا الشّعر بعد الشّعر، ومنهم خُزيمة بن نَهد، ودُوَيْد بن زَيْد، وأعصر بن سعد بن قيس عيلان، أمَّا القِسْم الثّاني، وهم من أَسْماهم

[1] علي، أبو المكارم. أصول التفكير النّحوي ، ص 221.

[2] عبد الرحمن، الحاج صالح. السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 74.

بالجيل الثَّاني، وهُمْ الّذين عاشوا في القَرْنين الخامس والسَّادس ميلاديِّين وهو من قصد القصائد فعلا، ومنهم المهلهل، وزُهير بن جناب، وعُبيد بن الأبرص ، وهم متقاربون في أزمانهم على حدّ قول عادل فريجات، حيث أَقْدَمَهم لا يَسْبق الهجرة النّبوية بمئة وخمسين سنة أو مئتين على أبعد تقدير.(*)

وقد ذكر عادل فريجات في نَفْس الكتاب أنّ شعراء العَصْر الجاهلي يغطّون مُعْظَم القبائل العربية أيْ من أقصى اليَمنَ في الجَنُوب إلى أقْصَى الشَّمال بالشَّام والعِراق،(**)ومنه فإنّ "الشّعر الّذي وصل إلينا من هذه الفترة يغطّي شبه الجزيرة العربية بأكملها تقريبا... وأخذ اللُّغويُّون العرب، ابتداء من نهاية القرن الأوّل، بَلُغة هؤلاء الذين نَقَل عنهم الرُّواة الفُصحاء، خِلاَفاً لما ادّعاه الفَرَابي". (1)

ثانيّا: طبقة الشّعراء المخضرمين

وهم الشُّعراء الَّذين عاشوا بيْن الجاهلية والإسلام، بما فيهم الوَافِدون على النبيّ صلى الله عليه وسلم، والصّحابة الذين قَالُوا الشّعر، وتَمتدّ هذه الفترة من سنة خمسين قَبْلَ الهجرة، أو ما بعدها إلى غاية سنة واحد و أربعين هجري (41 هـ)، وهذه الفترة تَشْهد ظهور الإسلام، ونزول القرآن باللّسان العربي المبين، ودخول غير العرب في الإسلام، وبداية ظهور اللَّحن على ألسنة العرب، من مخالطتهم لهم، (2) وقد ميّز هذه الفترة تشاغلُ العرب بالجهاد، وغَزْوِ فَارِسْ والرّوم، والتهاؤهم عن الشِّعر ورِوايته، لكنْ لما كَثُرَ الإسْلام، وجاءَت الفُتُوح، واطمأنّت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشِّعر. (3)

(*) ذكرهم وفصل في تقسيماتهم الدكتور عادل فريجات في كتابه الشعراء الجاهليون الأوائل (بيروت، 1996)، ص 83.ولخّص ذلك عبد الرّحمن الحاج صالح ذلك في جدول مفصّل في كتابه السّماع اللّغوي العلمي عند العرب، ص74.

(**) للمستزيد، أنظر كتاب السّماع اللغوي العلمي، لعبد الرّحمن الحاج صالح من ص 74 إلى ص 98 (ذكر كل قبيلة وشعرائها من القرن 3 م إلى القرن 6م).

(1) عبد الرحمن، الحاج صالح. السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة، ص 96.

(2) المرجع نفسه، ص 99.

(3) محمد بن سلام, الجُمحي. طبقات الشعراء، ص 34.

وللتّمثيل، نُقَارن، ما وصل إلينا من شعر المخضرمين، من حيث الكمّ، وعدد الشّعراء الذين نُسِبوا إلى قبيلة طَيْء، وما وصلنا مِنهم من شعر الجاهلية، حيث نجد تسعة [1] شُعراء مخضرمين مقابل أربعة وسبعون شاعرا في الجاهلية.[2]

ثالثا: طبقة الشّعراء الإسلاميين

وهذه الطّبقة عاشت في فترة تمتد من (41 ه إلى 183 ه) وشعراؤُها هُم شعراء العهد الأمويّ، ورُقعة الفصاحة السّليقية بقيت على حالها، في هذا العهد حتى نهاية 131 ه، إلا أن اللّحن بدأ ينتشر في الحضر بسبب الإختلاط بين العرب وغيْرهم من الشّعوب، واندماج الموالي في المجتمع الجديد[*]، كما ميّز هذه الفترة جَمْعُ كلام العرب مِنْ أفواههم مُباشرة، واستنباط أهمّ قواعد اللّغة العربيّة الخاصّة بالإعراب، حيث خرج النّحاة العرب، كما رأينا في الفصل الأول من هذا الباب إلى جميع القبائل العربيّة من أهل الوَبَر، وأهل المدَرِ.

والجدير بالذِّكر هنا، أنّ أغلب أوائل النّحاة كانوا في الوقت نفسه من القرّاء، وهكذا نشأ النّحو، وعلم القراءات معا، وبقي كلّ واحد منهما مقترنا بالآخر، منذ ظهوره عمليّة الجمع اللّغوي، مع مطلع هذه الفترة إلى نهايتها بوفاة سيبوية (ت 180 ه). [3]

وبما أنّنا تطرّقنا إلى عمليّة الجمع التي طالت اللّغة وكلام العرب في هذه الفترة، فلا بأس أنْ نشير إلى أنّ الكلام المجموع لم يكنْ شِعرًا فقط، بل شَمَلَ كلّ ما سمعوه مِنْ كلام التَّخاطُب العادي والأمثال، والحِكَمِ والخُطَبِ، وهكذا لَمْ يَكْتَفِ العَربْ باستنباط قواعد لُغَتِهم من الشِّعر فقط، بل من كل كلامهم، شعرًا كان، أو نثرًا.

كما يجب أن نشير إلى أنّ ظاهرة اللّحن في هذه الفترة لم تتفشّ بشكل كليّ في المدُنِ كما رُوِّجَ له، والدّليل على هذا الكلام، وعَدَم صِحَّة هذا الإدّعاء هو اِستشهاد كلّ اللّغويين بكلام شُعراء هذا العصر، أيًّا كان محَلَّ

---

[1] عبد الرحمن، الحاج صالح. السماع اللغوي العلمي عند العرب. ص 102.

[2] المرجع نفسه، ص 88.

[*] تزوّج زياد بن أبيه ابنه لمرجانة وهي أمَةٌ غير عربية، فكان ابنها عبيد الله بن زياد ألكن، وكان والي العراق (ت 67 ه).

[3] المرجع نفسه، ص 110.

إِقَامَتِهِم، فقد ذَكَر سِيبويه في الكتاب، عدَدًا كبيرا منهم، كما احتجّ النّحاة من بعده بأهل الحضر، كشُعَراء مكَّة والمدينة في ذلك الوقت ومن بينهم: عمر بن أبي ربيعة، وابن قيس الرّقيات، والحارث بن خال، والسّري بن عبد الرّحمن الأنصاري وغيرهم، ومن العراق: الأخطل، والقطامي، والكمّيت، والأعشى بن أبي ربيعة، والحكم بن عبدل، ولبيد وغيرهم. [1]

رابعا: طبقة شعراء الفترة الرّابعة والأخيرة من عصر الاحتجاج (من 183 هـ إلى 392 هـ)

لقد رأينا في الطبقة الثّالثة، كيف خرجت الفصاحة السّليقية من الحضر، في أواخر القرن الثاني للهجرة، وبقيت في البوادي، والدليل مواصلة علماء هذا العصر الأخذ عن أهل الوَبر، وقيامهم بتحرّياتهم اللغوية، بنفس الاِهتمام، حتى القرن الرابع، لدرجة أنّ معظم تلاميذ أبي عمرو بن العلاء الّذين بلغوا مطلع القرن 3 هـ[*]، اِضطرّوا إلى تقليص فضاء أخذهم للّغة، واكتفوا بسكّان البوادي الفصحاء بعدما كانوا يأخذون عن أهل المدَرِ والوَبَرِ على حدٍّ السّواء، وحتى تلاميذهم الذين تَتَلمذوا عليهم، أمثال أبي حاتم السّجستاني، وابن السّكيت، والأثْرم وغيرهم، اكتفوا في تحرّياتهم بالأعْراب، وتركوا أهل المدنَ لِما طال لُغَتَهم مِنْ تَغيير. [2]

وهذه قائمة من الأعْرَاب الّذين اِشتهروا، في القرن الثّالث، بالفصاحة الموثوق بها، عند اللّغويين، وأكثرهم كانوا شعراء: [3]

- عرّام بن الأصبع من سُلَيْم (قيس عيلان).
- ناهض بن ثومة من بني عامر.
- أبو جميل[**] منْ كِلاب.

---

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 122.

[*] وهم الأصمعي المتوفي 215 هـ، و أبو زيد الأنصاري (المتوفي 205 هـ) وأبو عبيدة (المتوفي 211 هـ)، وغيرهم الذين كانوا قد أخذوا اللّغة قبلَ هذا العصر عن فُصحاء العرب، أينما كانوا (بَدَوْا وحَضَرا).

[2] المرجع نفسه، ص 125.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[**] اِستشهد بشعره ابن السّكيت.حسب ما أوردهُ عبد الرّحمن الحاج صالح.

- أبو عثمان سعيد بن ضمضم.
- أبو البيداء الرّياحي منْ تَميم.
- أبو ثوابة من أَسَدْ ،وهو من أعراب البصرة.

والسّائد أنَّ هؤلاء الشّعراء، كُلُّهم، أعرابٌ مشهورون، رَوى عنهم العلماء، في القرن الثّالث، خاصّة ابن السّكيت، وبهذا انتهى عهد سُؤْدُد القبائل البدويّة، بكثرة شعرائها، في القرن 3 هـ.

وأمّا فطاحل الشّعراء، أمثال أبي تمّام، والبحتري، ومنْ بعدهما ابن الرّومي، وأبو فراس، والمتنبّي، وغيرهم، فَلَمْ يَنْبِغُوا في هذا العصْر إلاّ في المراكز الحَضَرِية في بلاط الأمراء وأصْحاب السُّلطة، فهِيَ بُؤَرُ للإشْعاع الثَّقافي، مَعَ العلم أنّ الجغرافيّين العرَب، فِي هذا العصر، أشاروا إلى وُجُود اللّحن في البوادي أيضا. [1]

وأمّا في القرن الرّابع، فقد بلغ اللّحن أوجّ انتشاره، مَعَ بَقاء جُموع من الأعْراب على فصاحِتها لِعُزْلتها عنْ غيرْ العرب، وقَدْ ذَكَر هذه الحقيقةَ الأزْهري فِي كتابه اللُّغوي "تهذيب اللغة" حيث تحدَّث، في مقدّمته، عن بقاء الفصاحة السّليقية في أعراب هوَازن، وتمَيم، وأسَد[*]، ونفس الأمْر صرّح به الجوْهَري[**] في مقدّمة مُعجَمه الصّحاح يقول: "قد أوْدَعَت في هذا الكتِاب ما صحّ عِندي منْ هَذِه اللّغة التي شرَّف الله مَنْزِلتهَا... بعد تَحصيلها بالعراق رِوايةً، وإتقانِها دراية ومُشَافَهَتِي بها العَرَبَ العَارِبَة في دِيارِهِمْ بالبادِيَةِ...".

ورغمَ بَقَاءِ الفَصَاحَة فِي بعضِ البَوادي إلى غَاية القَرْن الرَّابع لِلْهِجْرة وَرَغْمَ أَخْذْ ابنْ جِنِّي عَنْ بَعْضِ الأَعْرَابِ، أَمْثَالَ أبُو عبد الله الشَّجَري، صَاحِب القصّة المشْهُورة الخاصّة بِجَمْعِ "عُثْمَان"[***]، إلاَّ أنَّ ابنْ جِنِّي

---

[1] عبد الرحمن، الحاج صالح. السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 127.

[*] وقع الأزهري سنة 312 هـ، وكان شابا، أسيرا عند أعراب من القرامطة وتحدث مطولا في مقدمة كتابه تهذيب اللغة عن طول إقامته بينهم واستفادته من مخالطتهم ومحاورة بعضهم وجمعه لنوادر كثيرة جعلها مادة لكتابة التهذيب.

[**] ذكر ذلك الجوهري في الجزء الأول ص 34 حين كتب مقدمته التي قدم فيها معجمه اللّغوي وحدّد مصادر مادته.

[***] سأله ابن جنّي عنْ جمَع دُكّان، وسَرْحان، فَأجابه: دَكَاكِين وسَرَاحِين، ثم سَأله عن جَمْعِ عثمان، فَأجَابَه عثمانون، فَأرادَ أن يغلّطه بِجَمْعِهَا على عَثَامِينَ، فَرَفَضَ لأنَّ ذلك ليْس في لُغَتِه السّليقية (انظر الخصائص، ج1 / ص242).

أَعْلَنَهَا صَرَاحَةً فِي كتَابِهِ "الخصائص" بانتِهَاءِ عَصْرِ الاِحْتِجَاج وانْقِضَاء عَهْد الفَصَاحة فِي نِهاية حَيَاتِه العِلْمية كَمَا لاَحَظنا في المَبْحَث الفَارِط مِنْ هذا الفصْل.

المبحث الثّالث: مصادر الشاهد النّحوي

حدّد النّحاة مصادر الشّاهد النّحوي، بالقرآن الكريم وقِراءاته، وكلامِ العرب شِعره ونَثْره، نُضِيف إليها الحديث الشّريف الّذي اخْتُلِف في حُجيته، وتباينت آراء النحاة عبر مراحل الدّرس النّحوي حول جواز الاِحتجاج به وتركه، فالحديث عند علماء أصول الفقه مقدّس، ولم يختلفوا في أهمّيته، كون القرآن في كثير من آياته حاثّا على العمل بالسّنة واستنباط الأحكام منها، ومن ذلك قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ [1]، ثم قوله تعالى: ﴿**وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾ [2]، وبهذا وجَبَتْ طاعة الرّسول واتّباع ما جاء في أحاديثه، ولا يُمكن كذلك إغفال حقيقة ثانيّة مفادها أنّ الحديث الشّريف جاء مبَيّنا لِكلام ا لله، بدَليل قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [3]، حيث أنَّ السّنة وردت مبيّنة للكتاب ومُفصَّلة لِمُجْمَله. [4]

لكنّ حقيقةَ الدّرس النّحوي العربي تُقِرُّ عَكْسَ ذلك، فكثيرٌ من النّحاة لم يَعتدُوا بالحديث، ولم يُرَكِّزوا عليه مادّة تُسْتَنْبَط منها القواعد اللغوية، أو تُثْبِتُ صِحَّتَها.

وقدْ ذَكَرَ صاحب الاقتراح تقريرًا لأبي حيَّان التّوحيدي مفاده أنّ الواضعين الأوّلين لعِلم النّحو، المسْتَقْرِئِين لِلأحْكام مِن لسَان العرب والمسْتَنْبِطِين للمقَاييس كأبي عمر بن العلاء، وعيسى بن عمر، والخليل وسيبويه من أئمة البصريين وكمعاذ، والكِسائي، والفرّاء، وعليّ بن المبارك الأحمر، وهاشم الضرير من أئمّة الكُوفيين، لمْ يَفْعَلوا

---

[1] سورة النساء: الآية 59.

[2] سورة الحشر: الآية 7.

[3] سورة النحل: الآية 44.

[4] محمود أحمد، نحلة. أصول النحو العربي، ص 47.

ذلك، وتَبِعهُم على هذا المسْلك المتأخّرون منَ الفَريقين وغيرهم من نحّاة الأقَاليم كنحاة بغداد وأهل الأندلس". [1]

وهذا القول ذَكَرَهُ صاحِبُه في شَرْح التَّسْهِيل[*] بعد أن أنْكَرَ على ابن مالك، وهو مِنَ المتأَخِّرين مِن النّحاة الّذين كما سبق وأنْ أَوْرَدْنَا قُبُولهم لِمُعْظم القِراءَات الّتي رَفَضها الأوّلون، إثباته القواعد النّحوية بالألفاظ الوارِدة في الحَديث. [2]

وأمّا عن موقف السّيوطي من المسألة فقد جاء في قوله: "وأما كلامه صلى الله عليه وسلّم، فَيُسْتَدَّل منه بما ثَبُتَ أنّه قال، على اللّفظ المروي، وذلك نادرٌ جدًّا". وهو هنا يشير إلى أنّ الأحاديث التي دوّنت بلسان الرّسول عليه الصّلاة والسّلام قليلة جدًّا، ويضيف: "إنّما يوجد في الأحاديث القِصار على قلّة أيضا". ويعطي السّيوطي بَعْضَ الأسْبَاب الّتي يراها مُقْنِعة للنّحاة بِتَرْك الحديث وعدم الاعتداد به في إثبات القَواعِد، والأحكام اللّغوية فيقول: "... فإنّ غَالِبَ الأحاديث مَرْوِيّ بالمعنى، وقدْ تَداوَلَها الأعَاجم والمولّدون قبل تدوينها، فَرَوَوْهَا بما أدت إليه عِبَارتهم، فزَادُوا ونقَّصوا، وقدّموا، وأخّروا، وأَبْدَلوا ألفاظًا، ولهذا ترى الحديث الواحد في القصّة الواحدة مرويًّا على أوجه شتى، بعبارات مختلفة. [3]

وهكذا، فعدم وثوق العلماء من أنَّ الأحاديث هي لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلّم. جَعلهم يُحْجِمون عن الاسْتِشهاد بها، وفي هذا الموقف يقول صاحب شرح التسهيل: "... إذْ لَوْ وَثِقُوا بذلك، لجرى مجرى القرآن في إثبات القواعد الكليَّة". [4]

---

[1] جلال الدين، السّيوطي. الاقتراح في أصول النّحو، ص 44.

[*] الرواية بالمعنى هي تغيير لفظ رسول الله بلفظ الراوي مع المحافظة على مضمون ألفاظه صلى الله عليه وسلم.

[2] المرجع نفسه، ص 43.

[3] المرجع نفسه، ص 43.

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وعليه فقد قُسِّم النّحاة إلى ثلاثة أقسامٍ فيما يَخصّ اعتبار الحديث أصْلاً من أصول اللغة العربية، وتثبيت أحكامها كالقرآن وفصيح كلام العرب. [1]

القسم الأول: قِسمٌ مَنَعَ الأَخْذ بالحديث مُطلقا، وعلى رأسهم أبو حيّان النّحوي، وشيخه أبو الحسن ابن الضّائع، متّبعين في ذلك أوَائِل النّحاة مِن مدرستي الكوفة والبصرة.

القسم الثّاني: قِسمٌ اِتّخذَ الوَسَط سبِيلا وعلى رأسهم الشّاطبي والسّيوطي وكثيرٌ منَ المحدثين.

القسم الثّالث: قِسْمٌ أجازَ الأخذ بالحدِيثِ وعلى رأسهم ابن مالك الأندلسي وابن هِشام الأنْصاري.

وأمّا الحديث في حقيقته فعلى قِسْمين: قسم يعتني ناقله بمعناه دون لفظه، وَهذا لَمْ يَقَعْ به اسْتِشهاد أهل اللّسان، وقِسمٌ عَرَفَ اعتناءَ ناقلهِ بلفظهِ لمقصود خاص، كالأحاديث التي قُصد بِها بَيَانُ فَصاحة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ،نحو كتابه لهمدان، وكتابه لِوائل بن حجر، فهذا صحيح يجوز الاعتداد به في العربية. [2]

وأمّا المحدثون من علماء العربيّة، فإنهم أشدُّ دِفاعا عن الحديث، وفضيلة الشّيخ محمد الخضر حسين أحد هؤلاء، حيث كتب كتابا بعنوان "الإستشهاد بالحديث في اللّغة"، بحث فيه الخلاف القائم حول إمكانية إثبات اللّغة والنّحو بالحديث، [3]وبالاِعتماد على ما جاء به محمد الخضر حسين، قرّر مُجَمّع اللّغة العربية بالقاهرة[*]، قرارَاته بخصوص موقف عُلماء العربيّة، وَحقيقة احتجاجهم بالأحاديث النبويّة.

المبحث الرّابع: العلاقة بين المسموع والشّاهد

بعد تقديمنا لِلْمسموع في الفصل الأوَّل، وتَقْدِيمنا للشَّاهِد فِي مُختَلفُ المبَاحِث المشكِلة للْفَصل الثَّاني مِنْ هذا البَاب، بَات مِنَ الضّروريّ تَقْدِيم العَلاَقة بين المسْمُوع والشَّاهِدِ، كَوْنَ هذان العُنصُرَانِ أَهَمَّ مكوّنين لِعُنْوَان هذا البَحْث، كمَا أَنَّهُمَا عُنْصُرَان جَوْهَرِيَّانِ في إِشْكالِيتِه، حيْثُ طَرحْنا في المقَدِّمة مسْأَلة الخَلْط الّتي قام بها بعض

---

[1] خديجة الحديثي. الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه. ط1. الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، 1394هـ-1974م، ص 62.

[2] المرجع نفسه، ص 65.

[3] المرجع نفسه، ص 66.

[*] قد ذكرت مفصلة في مجموعة القرارات العلمية لمجمع اللّغة العربية في ثلاثين عاما من 1932 م -1962 م، ص ص 43-44.

المسْتَشْرِقِين فِيمَا يَخُصُّ العلاقة بيْنَهما، وكذلك بعض النُّحاة العرب من المحْدثين، ذلك الخَلْط الّذي يَفْتَح بَابَ التَّقْليل مِنْ شَأْن جُهُود أَوَائِل النُّحاة واتِّهام اِسْتِقْرائهم بالنّقص، وذلك أنّ بعض البَاحثِين، كَمَا أَسْلَفنا الذِّكر في زماننا يَجْعل من الشّواهد الّتي ذَكَرها العُلماء العَرب فِي كُتُبَ النَّحو واللُّغة المادَّة الّتي اِسْتَقْرَؤُوها لِاسْتِنباط القَواعِد النَّحوية والصَّرفية، ظنًّا منهم أنّ العلماء القُدامى قَدْ عَرَضُوا هذه الشَّواهِد، لاَ كدَليل فقط على صحة ما بنوه من القواعد، وما ذهبوا إليه من الأقوال، بل لأنّهم بنوا عليها هي نفسها قواعدهم" [1]، كما أنَّ بعض المعاصرين يَعْتَقدون أنّ سِيبَويه وغَيره من العُلَماء القُدَامى، كُلَّما استَشْهد بِبَيْت شِعرٍ أَوْ بَيْتَين فَقَدْ بَنَى قَاعِدته على مَا ذَكره مِنَ الشَّواهد وَحْدَها ! فَهَيْهَات أَنْ يَكُون الأَمْر كذلك". [2]

إنَّ المعاصِرين بهذا الظَنّ يُقَزِّمُون مِنْ حَجْمِ الدّرس النَّحوي التُّراثي، ومنْ شُمُوليَةِ اِسْتِقْرائِهم للمدَوّنة العربيَّة، بلْ إنَّهم يُقَلِّصِون منْ حَجْمها، ويَعْتَبرون ذلك العَدد المحدُود من الشَّواهد المذْكُورة فِي كُتُبِ النَّحو هُو جُلُّ المسْموع الّذي جَمَعُوه عَبْر الرِّواية والمشَافهة المباشِرة لِفُصحاء العرب، لكنَّ التَّحليل العَميق والإحصاء الدَّقيق الّذي قام به عبد الرّحمن الحاج صالح يُثبت العكس، وبأدلّة متعدّدة، أوّلها أنّ المادّة اللّغوية التي نظر فيها النّحاة على اِتّساع عظيم، كما كنا قد بيّنا ذلك في فصل المسْمُوع من هذا الباب، ولا مانع في عَرْض بعض الدَّلائل على هذا، من كتاب سيبويه، حين كان يروي ما سَمِعه بنفسه عن العرب: [3]

يَقُولُ سِيبَويه في الجُزْء الأوّل:

- هذا إنشادُ بعضُهم وأَكْثرُهم يُنْصَب، ج 1/ص23.
- لأنَّ أكثرهم يقول ج1/ ص121.
- ويكونُ الوجه فيه في جميع اللّغات، ج1/ص 194.

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة، ص 317.
[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[3] المرجع نفسه، ص 318.

- ولكنّ بعض العرب يَجرّه، ج1/ص 217.
- وهذا في الشّعر أكثر ممّا أُحصيه لك، ج 1/ص239.
- ...لا يتكلّم بها العرب، ج 1/ ص 343.

وغيرها ممّا سمِع عَنِ العرب، ومنه فالشّواهد النّحوية مُجَرّد نَماذج جاءت في دواوين الشّعر، والقراءات ومَعَاجِم وكتب اللّغة(*) ، ولو كانت هي في عددها المحصور كلّ المسْمُوع الّذي بَنَى عليه اللّغويون أوصافهم، لما اِحتْاج سِيبَويه أنْ يقول: " وسألنا العَلَوِيّين والتميميّين فرأيناهم يقولون ..." "... وفي كلام العَرب كلّها..." وفي جميع لُغات العرب..." و"... وقول العَرب كلهم".

فالمسموع المسْتَقْرى، بالفعل، هو كلّ ما سُمع من المئات بَلْ الآلاف من فصحاء العرب، وكلّ الّذي دوّنوهُ، وبالتّأكيد كان كثيرًا جدًّا، أمّا الشّواهد فهي جُزء صغير من هذا الذي سَمِعُوه، أو دوّنوه [1]، وتُمثّل عينة صغيرة جدا، بحيث تغطّي المسموع كأمثلة وحُجَج لا كمادّة لُغوية يستقريها اللّغوي، وكلّ قبائل العرب ممثلة من خلال الشّواهد الّتي تدلّ على ضخامة المدونة العربية، وأمّا الأساس الذي اعتمدناهُ في ثقتنا بما جاء به سيبويه في الكتاب، فهي نابعة من ثقة العلماء الّذين عاصرهم والّذين جاؤوا من بعده فيما قاله، وعدم تكذيبهم لما نقله من سماعه، وسماع أصحابه(**) واِستقرائه لهذا المسموع الواسع. [2]

(*) في هذه الكتب التي ذكرناها في المتن كان للنحاة مساهمة كبيرة في تدوينها وتصحيحها، لكن جزءا منها ذكر في كتب الأدب، وبكثير من التحريف والزيادة كما وردت في كتاب الأغاني للراغب الأصفهاني.

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 322.

(**)عدا ما انفرد به المبرّد في الطعن في بعض الروايات، لكن كل العلماء في زمانه ردّوا عليه أقواله.

[2] المرجع نفسه، ص 323.

الفصل الثالث:مزاعم المستشرقين بخصوص الجهود النحوية العربية والرد عليهم

المبحث الأول: مفهوم الاستشراق ونشأته وتطوره

المطلب الأول: مفهوم الاستشراق

المطلب الثاني: بداية حركة الاستشراق وتطورها

المبحث الثاني: مزاعم المستشرقين بخصوص طبيعة المادة اللغوية ومدى اهمال اللهجات والرد عليهم

المطلب الأول: مزاعم المستشرقين بخصوص طبيعة المادة اللغوية

المطلب الثاني: الرد عليهم

المبحث الثالث: الطعن في صحة المادة المجموعة عن طريق الرواية والرد عليهم

المطلب الأول: طعن المستشرقين في فكرة وجود الرّواية ومصداقية المرويّات

المطلب الثاني: الرد عليهم

المبحث الرابع: الطعن في مدى سلامة المنهج وكمال الاستقراء والرد على ذلك

المطلب الأول: الطعن في مدى سلامة منهج النحاة وكمال الاستقراء

المطلب الثاني: الرد عليهم

تمهيد

لقد اختلفت نوايا المسْتَشرِقين في دراسة علوم الشَّرق وآدَابِه، كما اخْتلفَت الميَادِين الّتي تطرَّق إلَيْها المسْتَشْرِقون بالدّراسة، فهناك من جعل من القُرآن الكريم مادَّته، وهناك منْ جَعَل مِنَ الإسْلام هدَفه، ومنْ مُحمّد صلّى الله عليه وسلّم موضوعًا له، وهُناكَ فرِيقٌ آخَر خصَّ الدِّراسات اللّغوية العربيّة التّراثية بالدّراسة، ودُونَما تريّث، راح يقلّب ما وقعت عليه يداه، من مخطوطات لكتب التّراجم، وأيّام العرب، ودواوِينِهم الشِّعرية، وخُطَبِهم وأمثَالِهم، ويطبّق عليها مُخْتَلف المنَاهِج الأوروبيّة لدِراسة النّصوص الشّعرية والنّثرية، وبذلك كانت مُعْظم الأَحْكام الّتي أَطْلَقُوها على تِلْكَ الدِّرَاسات اللُّغوية تَعسّفية، أو عشْوَائية، أو لا أسَاس لَهَا مِنَ العِلْميّة، ولعلّ الّذي يَهُمُّنا في هَذَا البَحْث تِلْك الأَحْكَام المتعَلّقة بالمسْموع، والشّاهد النّحوي، أي الّتي تتعلّق بالسّماع أَصْلا من أُصُول النّحو العربي، وبالمنْهج المتَّبع في جَمْع المسْموع سواء أَكَان هذا المسْموع مبَاشِرًا أو غَيْرْ مُبَاشِر (عن طريق الرّواية).

وهُنَا نَخُصُّ بالذّكر مُحْتَوى المسْموع؛ أيْ مَضْمُون المدوّنة العَربيّة ككلّ، وكذلك المسْتوَى اللّغوي المخصوص بالجَمْعِ، والتَّبْويب، والتَّصْنيف، والإحْصاء، ومدى اهتمام العُلَمَاء العَرَبُ بِمَا أسْماه المسْتشْرِقون بالفُصحى؛ أو اللّغة الأدبيّة على حِسَاب اللَّهجات، أيْ لُغَة التَّخَاطب اليَوْمِي العربي.

كمَا سَنتَطرَّق لِمَسْألة الرِّوَاية الّتي اعْتَمد عَليهَا اللُّغويون، والنّحاة العرب في جَمْع المدوّنة الموجّهة للدّراسة، وكذا نوع الاسْتِقراء الّذي قام به النّحاة العرب، مَنْهَجًا قَادَهُم إلى التّقعيد للّغة، وحقيقة القُصور، والنُّقص الّتي طَالمِا نَعَتُوهُ بِهَا. وقَبْلَ التَّبحُّر في هذه المسائل، يَجْدِر بنا تَقْديم فِكرة عن مَفْهُوم الاسْتِشْراق، والإرْهاصات الأُولى له، وأَهَمُّ محطَّات تطوّره.

المبحث الأوّل: مفهوم الاسْتشْراق، نشأته وتطوّره

المطلب الأوّل: مفهوم الاسْتِشراق

عرَّف المفَكِّر الألماني رُودِى بَارْث[*] الاسْتِشراق فَقَال: "كَلِمَة اسْتِشْراق مُشْتقة من كَلمة الشَّرق، وهي تَعْني مَشْرق الشَّمس، وعَلَى هَذَا يكُون الاسْتِشْراق، عِلْم الشّرق، أو عِلْم العَالم الشَّرقي". [1]

"لَكِن بِاخْتِلاَف مَفهوم الشّرق، والّذي تَغَيَّر لِتَغْيِير كبير في أَعْقَاب الفُتوحات الإسْلاميّة، لمْ يصل بارْث إلى تَحْديد ثَابِتْ لِمَفْهوم الاسْتِشْراق". [2] ثُمَّ توصَّل مُفكِّرون إلى القَوْل بأنَّ "الاسْتِشْراق هُوَ تَخْصِيص عُلَماء غربيِّين في الدِّراسات الشَّرقية على اِختلاف مجَالِها، حيث كان هؤلاء الدّارسون يتعلّمون لغة الشّرق ويدرسُون علومه وحضاراته، ليكون لَهُم عِلم تام بأحْوالهم الاجْتِماعيّة، والسِّيَّاسِيّة، والعَقْلِيَّة، وليندمجوا فيه كل اندماج، فيكون فَهْمُهم له، وحَدِيثِهِم عنه، وحُكْمُهم عليه خَالِيًّا من التَّخيّل، بعيدا عن التوهّم". [3] فالمسْتَشْرِقون إذًا جماعة من عُلماء الغرب، عامّتهم من الرّهبان، تخصّصوا في لُغات الشَّرق، وَعَنُوا بالبَحْثِ فيها.

المطلب الثّاني: بداية حركة الاسْتِشراق وتطوّرها

كانَت بداية الاسْتِشْراق في القَرن الثّاني عشر، ففي عام 1143 م، تمّت ترجمة القرآن الكريم لأوّل مرّة إلى اللّغة اللاتينية بالأندلس، وظهر في نفس القرن أوّل قاموس عربي- لاتيني. وفي القرن الثّالث، والرّابع عشر ميلادي، اجْتَهَد المستشرق الرّاهب رايمونْدُوس لالوس، كثيرا، في تعلّم اللّغة العربيّة، وإنشاء أقسام لتدريسها، وذلك بهدف التّبشير المسيحي، وإقناع المسلمين بِبُطلان الإسلام، بلغتهم العربيّة. وحركة الاسْتِشْراق قامت، أوّل ما قامت، في رِحاب الكنيسة الكاثُولِيكيّة، وتحت إشْراف أحْبارها. [4]

---

[*] رودي بارت مستشرق ألماني عَنِي بالدّراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية إلى جانب الكثير من المستشرقين الألمان الكبار.

[1] عبد المجيد، دياب. تحقيق التراث العربي: منهجه وتطوره. ط2. القاهرة: دار المعارف، 1993م، ص 176.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] المرجع نفسه، ص 177.

وبقيَّام النّهضة الأوروبيّة، في القرن الخامس عشر ميلادي، بدأت أوروبا بالتخلّص من الاعتقادات، والتّقاليد الباليّة، والفلسفات الرثّة، والنّية في الرجوع إلى العلوم اليونانيّة والرّومانية، ومع مرور الوقت، ازْداد مَيْل النّاس في أوروبا إلى معرفة الشّرق، وحضارته، وطُرُق تفكيره، لاسِّيما وأنّ بَيْنَهما الرّابط الدّموي، والعلاقات الرّوحية الأدبيّة. وقد احتفل البابا "لاون العاشر" بافتتاح أوّل مطبعة عربية، على ساحل الأدرياتيك عام 1772م. [1]

ومنه فحركة الاستشراق، في هذه المرحلة، أخذت تَصْطَبِغ بِصَبْغة ثَقَافيّة، ومع بداية الغَزْو الاسْتعماري للشّرق[2]، بدأت حركة الاستشراق تَنْحُو مَنْحى سياسيًّا، وقد قامت أوّل جماعة في فرنسا عام 1787 م، تُعْرَف بِوِزَارَة المسْتَعْمَرَات، حيث كانت تُوفّر بَعَثَات إلى الأمْصار العربيَّة لِجَلْبِ نَفَائس التُّراث، وكان سُفَرَاؤُهم يُنتدبون رَسْمِيًّا لهذا العمل السّياسي، حيث يَذْكُر نجيب عقيقى في كِتَابِه الشَّهير "المستشرقون"[*] أنّ ستّة ملايين مِنَ الكتب والمخطوطات، مِنْها سَبْعة آلاف مخطوطا عربيًّا، كان قد جَمَعَهَا المسْتَشْرِقون الّذين أوفدهم الوزير كْلوبَر إبّان حملة نَابُولِيُون على مِصر. [3]

وقد حرصت الدُّول الأوروبيَّة الطّامعة إلى اقْتِنَاء كُنُوز الشَّرق العربي والإسْلامي، على الإحْسان إلى مُسْتشرقيها، فَضَمَّهم مُلُوكُها إلى حاشِيتهم، وأجْزَلوا لهم العَطاء، وولّوهُم كراسيّ اللّغات الشّرقية في كُبْرَى الجامِعات، وَمَنحُوهم أَلْقاب الشَّرف وعُضْويّة المجامِع العِلميّة. [4]

ومع تقدّم الزَّمن، تعمّق المسْتَشرِقون في البحث في الآداب العربيّة، ولُغَتها، وتَاريخها، وسَاعدُوا على تحقيق الكَثِير من المخْطوطات العربيّة، وَضَمِّها إلى مَكتباتهم، وبدأَت الدّوافع الدِّينية، والاستعمارية في التّناقُص، وظهرت الدّوافع العِلْميّة البَحْتَة.

---

[1] عبد المجيد، دياب. تحقيق التراث العربي، منهجه وتطوره، ص177.

[2] المرجع نفسه، ص 179.

[*] جمع في هذا الكتاب، صاحبه نجيب عقيقي كل ما يتعلق بالمستشرقين وصنّفهم حسب دوافعهم ونواياهم.

[3] المرجع نفسه، ص 180.

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المبحث الثّاني: مزاعم المسْتَشرقين بخصوص طبيعة المادّة اللّغوية ومدى إهمال اللّهجات والردّ عليهم:

المطلب الأوّل: مزاعم المستشرقين بخصوص طبيعة المادّة اللّغوية

لقدْ انطلق المسْتَشرقون الّذين تَبنّوا فِكْرة أنّ النّحاة العرب اعْتَمدوا على اللّغة الأدبيّة، وأهملوا اللّهجات العربيّة، أوْ أنّهم قَدْ أخْلَطُوا بيْن مُسْتَوَى الفُصْحَى، والمسْتوى اللّهجي القائم في زمن جمعهم للّغة، والتّقعيد لها، مِنْ دِرَاسَتهم للّغة الأدبيّة، واليُونَانيّة، ومُخْتَلف اللّهجات الّتي انْبَثَقَت عنْها [1]، وكَانَت مَوْضُوعات لِدِرَاسات قَامُوا بها، حيْث طبّقُوا المنْهَج* [*] نَفْسَه على الدّراسة النّحوية العربيّة، مُتَجَاهِلِين خُصُوصيّات اللّغة العربيّة، حيث زعم المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير أنّ اللّغويين العرب يحتقرون اللّهجات ويميلون إلى توحيد العربيّة تعسّفًا وتمسّكًا بصفاتها، ومن ثَمّ طَرْدُهم لِقواعدهم ونبذهم لكلّ ما خرج عنها، يقول: "إنّ نظرية المؤلفين المسلمين (حول العربيّة الفُصحى) هي نظرية جاءت على طريقة المنطقيّين: تنطلق من أصل مُسبّق،وتستنتج منه نتائج تتحوّل (عند العرب) إلى عقيدة صمّاء"، إنّ بلاشير هنا يشير إلى القواعد العامّة التي توصّل إليها العرب النّحاة بالإستقراء، ثم اعتمدوها في القياس النحوي، ويصف، بذلك، النحو العربي بالمعياري متجاهلا عملية السّماع اللّغوي العلمي الّذي قاموا به.[2] وقد طعَّم هذه الفِكْرة لُغَوِيُّون عرب مُحْدثُون، حيْثُ يَرَوْن أنَّ الوَصْفِيِّين[**] كانوا قد ركّزوا على الفروق الخاصّة بَيْنَ المسْتويَات اللّغوية، فراعَوا أَثَر العقِيدة، والطّبقة الاجْتِماعيّة، والطّور الحَضَاري للأمّة، والبيْئَة الجُغْرَافِية وغير ذلك، في محاولة مِنهمْ لإيجاد الخَصَائص الّتي تُفَرّق لُغويّا بين فِئة وفِئة. [3] فِي حِين أنّ النّحاة العرب كانوا قد تَبنَّوا فِكرة النّحو المعياري[***] الذي يضحّي بالفروق في سبيل اطّراد القوَاعد والمعَايِير... وقد ضحّوا لأجل

---

[1] عبد الرحمن، الحاج صالح. السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 148.

[*] المنهج الوصفي الذي تناولوا من خلاله وصف اللغة ومختلف مستوياتها، ومختلف لهجاتها.

[2] المرجع نفسه، ص175.

[**] تبنى علماء اللغة الغرب المنهج الوصفي الذي يعمل على تحديد صفات الظاهرة اللغوية، وحيثياتها (والفروق الخاصة بالمستوى اللغوي).

[3] اسماعيل، أحمد عمايرة. بحوث في الإستشراق واللغة. ط1. عمان: دار البشير، 1417 هـ-1996، ص 80.

[***] النّحو المعياري ينادي أصحابه بصحة القواعد وأطرادها مطلقا ولا مكان لشذوذ قاعدة.

ذلك بالفروق بَيْنَ اللَّهجات. [1]

وقد عبّر عن فكرة اللّغة الأدبيّة المشتركة، المستشرق الألماني كارل بروكلمان، حيث يقول: "ولا شكّ أنّ لُغة الشّعر القديم هذه لا يمكن أن يكون الرّواة والأدباء اخترعوها، على أساس كثْرة من اللّهجات الدّارجة[*]، ولكنْ هذه اللّغة لَمْ تَكَدْ تَكُون لغةً جاريَّة في الاسْتِعمال العامّ، بل كانت لغةً فَنّيةً قائمةً فوق اللّهجات[**]وإن غذّتها جميع اللّهجات.[2]

وهناك من اللّسانيين العرب من ذهب في هذه المسألة إلى ما ذهب إليه بروكَلْمان، ومنهم إبراهيم أنيس الذي يرى أن الآثار الأدبيّة رُوِيَتْ لنا في لغة موحّدة، لا تَشْتَمِل على خصائص من تلك الّتي رُوِيَت عنِ اللّهجات العربيّة،[3] والغريب في الأمر أنّه يقول: "لو أنّ الرّواة وقفوا في اسْتِنْباط قواعدهم عند اللّغة الأدبيّة الّتي جاءت موحّدة وممثّلة في الآداب الجاهلية والقرآن الكريم، لجَنَّبُوا أنْفُسَهم الكثير من المهاترات والجَدَل حول مَا يَجُوز ومَا لاَ يجوز، ولكنّهم حاولوا إقحام الصّفات الخاصّة باللّهجات العربيّة، فَبَدَتْ لنَا القواعد اللّغوية مُضْطَرِبة مُتَعَدِّدة الوجود.

فهو هُنَا يُنَادي بِأَفْضَلِيّة الالْتِزام بمُستوى اللّغة الأدبيّة، منْ أجل الوُصول إلى قواعد مطّردة للّغة، يجنّب اللّغوي عواقب إقحام الخواصّ اللّهجية، ومَا يترتّب عنها من اضطراب، وتعدّد وُجُوه القواعد، لكنّه في مكان آخر من الكتاب نفسه يَعِيبُ على الرُّواة رِوَايَتَهُم للآثارَ الأدبيّة بلغةٍ موحّدة لا تَشْتَمِل على خصائص من تلك الّتي رُوِيت في اللّهجات العربيّة.

---

[1] اسماعيل، أحمد عمايرة. بحوث في الإستشراق واللغة، ص 81.

[*] هذه الفكرة طرحها المستشرق الألماني نولدكه في كتابه "اللغات السامية"، ص 45.

[**] هذه الفكرة من جهة ثانية، خالف بها المستشرق بريتوريوس نولدكه، حيث يرى أن مثل هذه اللغة الفنية كثيرا ما توجد أيضا عند شعوب أقل ثقافة.

[2] كارل، بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. ترجمة عبد الحليم النجار. ط5. مصر: دار المعارف، 1983م، ج1، ص 42.

[3] إبراهيم، أنيس. في اللّهجات العربية. د ط. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ص 43.

المطلب الثّاني: في الردّ عَلَيْهِمْ

وفي الرّد على هذه التّهمة، يرَى عبد الرّحمن الحاج صالح أنّ هذا قولٌ جُزَافٌ، فِيه ظلم كبير لعلمائنا، وازدراءٌ بما أبدعوه مِنْ عجيب التَّحليل، وما أظهروه من شدّة التَّحرُّجِ في أقوالهم العِلْميَّة. [1] فهو يَعْجَبُ من عَدَم تفطّن عباقرة أَمْثَال الخَلِيل وسِيبويه إلى وُجُود لُغَة أدبيّة مشتركةُ تُنْظَمُ بِها الأشْعار هي وحدَهَا دُونَ اللّهجات[*]المحلية التي يُتَحدَّثُ بها يوميّا كما يدَّعي أصْحاب هذِه الفِكرة.

وقَد اعْتَمَد على حُجَجٍ كَثيرة لردّ هذه التّهمة، فالأُولى أنّ القرآن الكريم نَعَتَ اللّغة العربيّة، والّتي نَزَل بها، مِن أوّله إلى آخره، بأنَّهَا لُغة لِسان قَوْم[**]رَسُولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، أيْ هِيَّ لُغةَ تَخَاطُبْ يَوْمِي، وأنَّهَا لُغة القرآن الّذي أُنْزِل بِلِسَان عربيّ مبيّن[***]، ولو كان هذا القرآن قَدْ نَزَل بِلُغَة قَبِيلة مَا، كقريش، أو لُغَةَ أَهْل الحِجَازِ لما تَرَدَّدَ الله فِي تَحْدِيد ذلك، ولكنّه نُعِتَ بِالعَرِبِي (سبع مرّات) وبِالعَرَبِي المبّين بالنّص الصّريح، أَيْ أنّ الرَّسُول، صلّى الله عليه وسلّم، خَاطَبَ العَرَبُ بِلُغَتِهِم جَمِيعاً، فَهِيّ لمْ تكن لُغَةٌ خاصّة بالشّعر، ولاَ خَاصَّة بِقَبِيلة بِعَيْنِها، واللّسان المبيّن هُوَّ اللّسان الّذي يَفْهَمُه كُلَّ العَرَبْ، لأنَّه لُغةُ تَخَاطُبٍ يَوْمِي وَلُغَةْ نظم أَشْعَارِهِمْ. [2]

وأَمَّا الحُجَّة الثّانية الّتي اعْتَمَدَهَا لِرَدِّ هَذِه التُّهْمَة فَتَتمثَّل فِي سُوء فَهْمِ كَلِمَة لُغَةَ الّتي اسْتَعْمَلَها النُّحاة المؤَسِّسُون كثيرا مِن قِبَلِ المسْتَشْرِقِينَ أَوْ اللُّغوِيين العَرَبْ المحْدثِيَن، فَهُمْ جُمْلَةً فَهِمُوها بِمعنى لَهْجة، وَرَاحُوا يَبْنُون عَلَى هَذَا الفَهْم فِكْرَتَهم عَنِ اللُّغة الأدبيّة المشْتَركة، واللّهجات المخْتلفة إلاّ أنّ حقيقة القَصْد مِنْ وَرَاء كَلِمَة لُغة[****] عند النُّحاة العَرَبْ الأوّلُون لاَ تَعْدُو أنْ تَكُونَ طَرِيقَة العَرَبْ في كَلاَمِهِم، أوْ فِي كَيْفِيَّة اسْتِعْمَالِهِم لِوحدة لُغَوِيَّة

---

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ، ص 150.

[*] يقصد باللهجة الصفات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي تميز جماعة من الناس عن باقي جماعات المشكلة لنفس اللغة.

[**] سورة إبراهيم: الآية 4 ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾، وذلك ليحدث الفهم والإفهام عند مخاطبته لهم.

[***] سورة يوسف: الآية 2 ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾، الآية هنا تثبت أن القرآن نزل بلغة العرب أجمعين.

[2] المرجع نفسه، ص 152.

[****] عرفت كلمة لغة تطورا دلاليا عند العرب، من الجاهلية إلى وقتنا الحاضر، وقد بين ذلك عبد الرحمان الحاج صالح في كتابه السماع اللغوي العلمي، ص 161.

خاصَّة، وَالْأَمْثِلة كَثِيرَة وَجَلِيَّة فِي الكِتَاب عِنْدَ سِيبويه، وهُوَ يَقْصِد بها النُّطْق بِصَوْتْ مُعَيَّن، أوْ اسْتِعْمَال لصِيغَة كَلِمَة مُعَيَّنة أوْ لِتَرْكِيب معيَّن، ولاَ يُطلقها على لَهْجَة بِأَكْمَلِها أي على لِسان خاصّ بِقَبِيلة أوْ بإِقْلِيم، بل القَصْدُ مِن كلمَة لُغَةْ هو طَرِيقة اسْتِعْمَالَ جَمِيع العَرَبَ، أَوْ أَكْثَرَهَم أوْ الكَثير مِنهم، أَوْ أَفْرَاد قَلاَئل مِنْهم لِوحْدَة منْ وَحَدات العربيّة على اخْتِلاَفِ مُسْتَوَيَاتِهَا. [1]

وَفِيمَا يَلي أَمْثِلَة عَنِ اسْتِعْمَال سِيبويه لِكَلِمَة (لُغَة) فِي الكِتَاب بهذا المعنى:

1- يَقُولُ سيبويه في كتابه في باب ما جاء معدولاً عن حدّه من المؤنث: [2] " فأمَّا ما كان آخره راءً فإنّ أهل الحِجاز وبني تَميم فيه متَّفِقُون، ويختار بَنُو تَمِيمِ فيه لُغَة أَهْلِ الحِجاز كما اتَّفَقُوا فِي يَرَى، والحِجَازِيَّة هي اللُّغة الأولى القُدْمَى. [*]

2- كما يقول في باب رفع وتأنيث بعض أسماء العلَم: و"أمّا أُلاَ فبمنزلة: هدى منوّنًا، وليس بمنزلة حُجَا ورُمَى، لأنّ هذين مشتقان، وأُلاَ ليس بمشتق ولا معدولاً، وإنّما أُلاَ وأُلاء بمنزلة: البُكَا والبُكَاءْ، إنّما هما لغتان. [3] أي طريقتان في أداء اليمين.

3- وَيَقُول كذلك فِي باب نُطق "ذَيتَ": "ومنهم من يقول: ذِيتَ فيخفّف، ففيها إذا خفّفت ثلاث لغات: منهم من يفتح كما فتَح بعضهم، حيث وحَوْتَ، ويَضمُّ بَعْضُهَم كَمَا ضَمَّتْها العَرب، وَيكسِرون أَيْضًا كَمَا كَسَرُوا هؤُلاَءِ، لأنَّ التَّاء الآنَ إِنَّما هي بِمَنْزِلة مَا هُو مِنْ نَفْسِ الحَرْف". [4]

وإِذَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ فِي الأمثلة الثّلاثة السَّابقة، والّتي تمّ اسْتِخْراجها من الجزء الثّالث، من الكتاب لِسِيبويه يَتَأَكَّد فِعْلاً مِنَ القَصْدِ الّذي يُرِيده سِيبَويه من كلمة ((لغة))؛ الّتي هي طريقَةً في الآداء لِبعضِ الكلمات لا غير مِن طَرَفِ جَمَاعة مِنَ النَّاسِ، مِنْ نَفْسِ القَبِيلَة أَوْ مِنْ قَبائل مُتَفَرِّقَة.

---

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم فصاحته، ص 154.

[2] عمر بن عثمان، سيبويه. الكتاب. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون.د ط. القاهرة: مطبعة المدني 1412 هـ-1992م، ج3، ص 278.

[*] يقصد بالقدمى الفصحى الأولى.

[3] المرجع نفسه، ص 281.

[4] المرجع نفسه، ص 292.

ثُمّ إنّ الكَيْفِيَّات فِي اسْتِعْمَال العَرَب لِوحْدة لُغويّة مُعَيِّنَة قَدْ تَكُوْن لَهْجِيّة وَغَيْر لَهْجِيَّة، وليْسَت بالضَّرورة خَاصَّة بِإِقْلِيم مُعَيّن أَوْ قَبِيلة مُعَيّنَة... وهَذَا يُفَسِّر أنّ العلماء العرب كَثِيرًا مَا يَسْكُتُونَ عَنِ القَبِيلَة أَوْ الجِهَةِ الّتي تَنْتَمِي إليها هذه اللّغة أوْ تِلك، كَمَا أنَّهُمْ لا يَغفلون عنْ ذِكْرِ أهل هَذِه اللُّغَاتِ إذا ٱنْفردوا بها" [1]، ومِثَال ذلك قولُ سِيبويه: "وسَمِعْنا العرب الفُصَحاءَ يَقُولون: انْطلقَتِ الصّيفُ، أجْرَوْه عَلى جَوَابِ مَتَى، لأنَّه أرادَ أنْ يَقُولَ فِي ذَلِكَ الوَقْت، ولَمْ يَرِدْ العَدَدْ وجَوَاب كَمْ [2]، وسِيبويه هُنَا يَقْصِد أنّ هذه الطّريقة هِي كَيْفِيَّة فُصَحَاءِ العَرَب، لاَ فُصَحَاء بَعْضِ العَرَب أَوْ قَبِيلة مُعيّنة مِن قَبَائِلِ العَرب.

وأَمَّا حُجَّة عبد الرّحمن الحاج صالح، الثّالثة فقَوْل سِيبويه وَزُمَلاَئِه: "ومِثْلُ ذَلِكَ فِي القُرْآن أو الشِّعر أو الكلام" [3]، وإذا تصفّحت الكتاب وجدته حافلا بالتّنويعات مِنَ الشَّواهد، حيْثُ لاَ يكاد سِيبويه يَذْكُر طَرِيقة في قوْل العَرب إلاّ وَجَاء بِمَثِيلَتِهَا فِي القرآن أوْ في الشِّعر أوْ فِي كَلاَمِ العَرَب، ومِثَالُ ذلِك مَا وَرَدَ فِي بَابِ "الإخْبَارِ عنْ النَّكِرة بِنَكِرة".

يقول سيبويه: "تقول: ما كان فيها أحد خيرًا مِنكَ، ومَا كَانَ أَحَدٌ خيْرٌ منك فيها... وجميع مَا ذَكَرْتُ لَكَ من التَّقْدِيم، والتَّأخِير، وَالإِلْغَاء، وَالاسْتِقْرَار عَرَبِيٌّ جَيّدٌ كثِير، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُه عزَّ وجل:﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [4]، وَأَهْلُ الجَفَاءِ مِنَ العَرَب يَقُولُون: وَلَمْ يَكُن كفوًا لَهُ أَحَدٌ كَأَنَّهُم أخّرُوهَا، حَيْثُ كَانَتْ غيْره مسْتَقِّرة، وقال الشّاعر:

لتقْرَبنَّ قَرَبًا جُلدِيًّا *** ما دام فيهِنَّ(*) فَصِيلٌ حَيًّا [5]

---

[1] عبد الرّحمن، الحاج صالح. السّماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم فصاحته، ص 155.

[2] عمر بن عثمان، سيبويه. الكتاب. ج1، ص 219.

[3] عبد الرحمان، الحاج صالح. المرجع نفسه، ص 164.

[4] سورة الإخلاص: الآية 04.

[*] هنا حدث تقديم لـ "لهُ" من الشاهد القرآني، وتقديم "هنّ" من الشعر.

[5] عمر بن عثمان، سيبويه. الكتاب. ج1، ص 56.

فَلَوْ كَانَ هُنَاكَ مُسْتَوَى لَهَجِيّ بَعِيد عَنْ مُسْتَوَى اللُّغة الأدبية (لغة القرآن والشِّعر) لمِا سَهُل على سيبويه إيجاد حَالَة تَقْدِيمٍ فِي القُرآن، وأُخْرَى فِي الشِّعر بهذه السّهولة، والقصد أنّ هذا التّناسب في الأبْنيَّة دَلِيلٌ على أنَّ لُغَة التّخاطب ولُغة القرآن، ولُغة الشّعر كانت على توافقٍ في الصّيغ [1]، والمتنَاوِل لِكِتاب سِيبويه بكلّ أجزائه، يتأكد أنّ هَذَا هُوَ مَنْهَجَهُ في الاسْتشهاد والتّقعيد، حيث يَجده يَنْتقِل من مستوى الكلام اليَوْمي إلى القرآن، ومنه إلى الشّعر دُونَما إشكال.

ويرى عَبْد الرّحمن الحاج صالح أنّ لغة التّخاطب لم تكن في الجاهليّة، وفي زمن النّبي صلّى الله عليه وسلّم مثل العاميّة في زماننآ أي؛ لغة مُغايِرة للّغة المشتركة، بلْ كانت جُزْءًا مِنها[2]، والدّليل على ذلك قوله: "إنّ هذه النّسبة الكبيرة من الألفاظ الّتي تشترك فيها لغة التّخاطب في زماننا بلغة القرآن، وهي في أغلبها ممّا يكثر تردّده في القرآن في جميع مستويات التّعبير: في التّخاطب، وفي التّعبير الأدبي، ولَوْ لَمْ تكن هكذا لما وُجدت هذه النّسبة الكبيرة في العامّيات المعاصرة، لأنّ لغة التّخاطب في عصرنا لا يمكن أن يكون أصلها إلاّ لُغة التّخاطب القديمة ليْس إلاّ، فهي متفرّعة عنها زمانيًّا، وناتجة عن التّحوّل الّذي يُصيب كل لغات التّخاطب عَبْرَ الزّمن (هي وحدها في الغالب) بالنّسبة إلى جميع اللّغات...ثمّ إنّ هذه اللّغة كانت أيضا لغة العرب جميعهم ولم تكن خاصّة بقريش أو أهل الحجار، وإن كان لأهل الحجار القسط الأكبر في القرآن من الألفاظ اللّهجية، أو اللّغات وهذه اللّغات قليلة في جملتها...[3] ثُمّ إنّ أَحدًا من العُلماء لَمْ يَقُل بأنّ مَا كانوا يُسَمّونه باللّغات هي لحْن، أي مَا لَمْ يتكلّم به أيّ عربيّ، وبِهذَا نردّ بِقوّة على مَا يَدّعيه المسْتشرقون". [4]

---

[1] عبد الرحّمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم فصاحته، ص 164.

[2] المرجع نفسه، ص176.

[3] عبد الرحّمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم فصاحته، ص209.

[4] المرجع نفسه، ص 176.

وأمّا ما ادّعاه المسْتَشرقون مِنْ أنّ النّحاة العرب، واللّغويين كانوا يَحْتقرون اللّهجات، ويَميلون إلى توحيد العربيّة تعسّفا، وتمسّكا بِصفائها، ومن ثمّ طَرْدُهم لقواعِدهم، وَنَبْذُهم لكلّ ما خرج عنها(*)، فذلك زَعْمٌ ليس إلاّ، والعرب القُدامى لمْ يَحْتقروا اللّهجات، ولمْ يجعلوا الفُصحى هي اللّغة الصّافية الّتي تستحقّ وحدها أنْ يُعتدَّ بها دون لغات العرب [1]، لأنّ الفصيح الصّافي عِنْد علماء العرب القدامى هو كلام النّاطق بالعربيّة الّذي لم تتغيّر لُغته الأصليّة، ويقابله الكلام الملْحون، أيْ ما ليْس من كلام العرب إطلاقا، أمّا اللّغات فقد يُطلق عليها، بلْ على أكْثَرِها، بأنّها فصيحة، أو عربيّة. [2]

وأمّا عن حقيقة المعيار اللّغوي، وماهيته من النّاحية العلميّة، فإنّ عمليّة وضع النّحو العربي، أَسَاسًا، كانت لسبب دِيني اجتماعي، وهو المحافظة على لُغة القرآن، ومقاصده، وكذلك كان الغرضُ من وضع النّحو للّغة السّنسكريتيّة؛ لغة النّصوص المقدّسة عِنْدَ الهنود، واللّغة اليونانية؛ لغة النّصوص الأدبيّة القديمة، فالقرار مِنْ حقّ الشّعوب هنا، ولا دَخْلَ لِلْعِلْمِ فيه، ونَعْنِي بذلك اختيار معيار لغوي معيّن، وتفضيله على غيره. [3]

(*) ما إدّعاه المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير حول نظرية المسلمين المؤلفين حول العربية الفصحى وتأثرهم بالمنطق، عند إنطلاقهم من أصل مسبق لبناء كل إستنتاجاتهم، وكذلك إداء كارل بروكلمان الألماني أن العرب كان لهم إعتقاد في القرن 2 هـ هو أنه يوجد معيار لغوي للعربية (صورة صافية يقابلها خليط من اللهجات، وأما اللهجات فما فسد من هذه اللغة المثالية).

[1] عبد الرحّمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم فصاحته ، ص 175.

[2] المرجع نفسه، ص 176.

[3] المرجع نفسه، ص 19.

الجدول رقم(2)

كلمة "لغة": تطوّر معناها من الجاهلية إلى وقتنا الحاضر[1]

الزمان	المعنى الأصلي لكلمة "لغة"	الأمثلة	أصل الاستعمال
قبل زمان نزول القرآن وما بعده إلى حدّ زمان سيبويه ليس إلاّ (لاتوجد في القرآن الكريم).	طريقة الكلام عموما – الاستعمال اللّغوي خاصّا أو عامّا	–"كلموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم"(الكتاب 167/1) –"في جميع لغات العرب"(256).	لَغَا إذا تكلّم (على طريقة معينة)
	المعنى الخاصّ(كمصطلح لغوي)	**الأمثلة**	**الأصل**
	طريقة استعمال كل العرب أو أكثرهم أو قلّة منهم لعنصر لغوي معين. وقد ترادفها كلمة قول في "قول العرب"(131/1) ولم تدل بعد على معنى اللّسان أو اللّسان الإقليمي(اللّهجة) فهو تنوّع في أداء عنصر من عناصر اللّغة	– لغة أهل الحجاز (إعمال ما) – لغة بني تميم (عدم إعمالها) – ولغة حجازية أخرى: أُرْدُدْ – "ذيت فيه ثلاث لغات" (48/2) – "في لغة من أنّث(32/2) أو "لغة من جرّ(34) أو "لغة من قال (269) – "وهذه أقلّ اللّغتين"(278)	لغا لغوا إذا تكلّم بعبارة أو نطق خاصّ بقومه وكذلك كانت كلمة"لحن" قبل زمان سيبويه وصارت تدل على الخطأ (الّذي لم يتكلّم به فصحاء العرب) ابتداء من ظهور البحث اللّغوي مع بقاء معنى "اللّغة الخاصّة" إلى غاية سيبويه.
	المعنى المحدث	**الأمثلة**	**الأصل**
ابتداء من بداية القرن الثالث (مع بقاء المدلول القديم كمصطلح عند النّحاة واللّغويين بجنب المدلول الطارئ).	طريقة الكلام الخاصة بأمة من الأمم: لغة العرب/لغة العجم=لسان أو أقل من ذلك(اللّهجة).	كتاب البيان للجاحظ ومعاني القرآن للأخفش والمذكر والمؤنث لأبي حاتم وأقدمهم الإمام الشافعي (مرة واحدة في الرّسالة)	لغة بعضهم لغة **أكثرهم = لسانهم**

[1] عبد الرحمن، الحاج صالح. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص161.

المبحث الثالث: الطّعن في صحّة المادّة المجموعة عن طريق الرّواية والرّد عليهم

اعتمد النّحاة العرب كما سبق عرضه في المبحث الأوّل من هذا الباب على الرّواية والمرويّات مصدرًا للسّماع، وكانوا يدوّنون المرويّات، أي المسموعات، من أفواه الرّواة والحفظة من العرب، وقد لجأ النّحاة إلى هذا الصّنيع لإيمانهم بأن العرب كانوا في جاهليتهم يُنتجون أدبًا، شعرًا، ونثرًا فيما يجدّ لهم من مناسبات، وما يعرض لهم من أحداث، فقد تدعو دواع للخطابة فيخطبون، وللمَثَلِ فيضربون، وللشّعر فيَنْظِمون، وكان هنالك عمل مكمّل لهذا النّتاج الأدبي، وهو حفظ هذا النّتاج في الأذهان، بعدما يُلقى النّص الأدبيّ شفهيًّا، وربما كان هناك من الأدباء من يدوّن أثره الأدبي، ولكن يبدو أنّ ذلك كان قليلاً ونادرًا، نظرا لشيوع الأميّة، وعدم معرفة الكتابة بين كثير منهم، وهذا رأي تطمئن إليه النّفس. [1]

وهناك من المستشرقين من يُنكر فكرة الرّواية، والرّواة أصلاً، وهناك من يؤمن بالرّواية والرّواة، لكنّه يُشَكّك في صحّة المرويّات بسبب تشكيكه في صدق بعض الرّواة.

وفيما يأتي سنقوم بعرض ذلك مع الردّ على المنْكِرين والمشَكِّكِين في وجود الرّواية وصِدق بعض الرّواة، ومدى مصداقيتها.

المطلب الأوّل: طعن المستشرقين في فكرة وجود الرّواية ومصداقيّة المرويّات

تزخر كُتب الدّراسات الاستشراقية بالتّصريح أو التّلميح إلى قصور الدّرس النّحوي العربي، الّذي اعتمد مُؤسّسوه على مادّة لُغويّة جمعوها مباشرة، من أفواه الرّواة، أو الأعْراب في مجتمعاتهم السّليقيّة. وتُنكر بعضها وجود الشّعر الجاهلي أصلاً، وفكرة الرّواية وحقيقة تناقله من طرف الرّواة، وتعترف بعضها الآخر بوجود الرّواية، والرّواة لكن، ومع اِعترافها، تطعن في صِدق الرّواة وصِحّة المرويّات.

[1] عبد المجيد، دياب. تحقيق التراث العربي: منهجه وتطوّره. ص 19.

بدءًا بتلك الدّراسات الاستشراقية الّتي تُنكر الشّعر الجاهلي أصلاً والرّواية إجراءً، وجُهود الرّواة[*]، والّتي تهدف أساسا إلى محاولة الهجوم على القرآن الكريم، نجد أنّ بعض المستشرقين لم يكتفوا بالتّشكيك في أصل الشّعر الجاهلي، وحقيقته، بل راحوا يَفْترون على القرآن ما قد يقلّل من شأنه، في نظرهم، وسَوّلت لهم أنفسهم أن يتجرّؤوا ويقولوا: "إنّ القرآن فيه اقتباسات من شعر بعض الشّعراء الجاهليين، كأميّة بن أبي الصّلت، وورقة بن نوفل[**]....، وتمادى بهم الشّيطان في غيّه وضلاله ليجعل منهم أُضحوكة للعقلاء في الدّنيا، و حصبًا لجهنم في الآخرة". [1]

وقد اِختصّ، بهذا الإدّعاء، المستشرق الألماني كليمان هوار، ومرجليوث اليهودي[***]. فأمّا هوار، فقد ادّعى أنه اكتشف مصدرًا جديدًا للقرآن، وأنّ المصدر الجديد هو شعر أميّة بن الصّلت، حيث وازن بين آيات القرآن الكريم، وبين قطعة من الشّعر، منسوبة إليه، ليخلص إلى أنّ القرآن عَمَد إلى معاني هذا الشّاعر، واستفاد منها، وصاغ على منوالها بعض الآيات. [2]

وقطعة الشّعر الّتي استشهد بها هي: [3]

وَيَوْم مَوْعِدِهم أَنْ يُحشروا زُمَرًا *** يَوم التّغابن إِذْ لا ينفع الحذر

مُستوْسِقين معَ الدَّاعي كأَنَّهـم *** رِجْلُ الجَرَاد نَزَّفته الرّيح منتشر

---

[*] اِدّعاءات مرجليوث المستشرق الإنجليزي، التي أنكرت الشعر الجاهلي، ونقلت سمومه إلى تلميذه، العربي المصري، طه حسين، الذي ألف كتاب "في الشعر الجاهلي" بكل ما فيه من هجوم على القرآن والإسلام، والعرب قديما وحديثا.

[**] كاهن نصر الحي، اِبن عم خديجة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم.

[1] عبد العظيم، إبراهيم المطعني. افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد.ط1. القاهرة: مكتبة وهبة، 1413هـ-1992م، ص 35.

[***] مستشرقان ألمانيان من أشد أعداء الإسلام والنّص القرآني.

[2] المرجع نفسه، ص36.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وأمّا الآيات الّتي اِدّعى أنّها أفادت من هذه القطعة الشّعرية فهي قوله تعالى: ﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ، خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾. [1]

والواضح أنّ هذا الشّعر هُراء، مكذوبٌ، منحولٌ، لغرض الإطاحة والتّقليل من شأن القرآن، وهذين البيتين ركيكين في النّظم، مضطربين في التّركيب، لا يُشبهان شعر أميّة، من جهة، ومن جهة ثانيّة؛ لو كان هذا شعر أمية فعلاً، لما تأخر مُشركو مكّة للوقوف في وجه النّبي، صلّى الله عليه وسلّم، واتّهامه بالسّطو على شاعرهم. [2] ومن المستشرقين أنفسهم، أُناس معتدلون، حكموا على مثل هذه المهاترات الّتي قال بها "هوار" و"مرجليوث" بالسُّخف والصّبيانية. [3]

أمّا الدّراسات الاستشراقية الّتي تُؤمن بوجود الرّواية وتُشكّك في صدق الرّواة وصحّتها فهي كثيرة، ولعلّ كتاب "تاريخ الأدب العربي" لكارل بروكلمان[*]من أهمّ الكتب الّتي يمكن اعتمادها في تقصّي الحقائق والتحرّي في هذه المسألة، للوصول إلى إصدار حكم عِلمي يُؤكّد أو يُفنّد كل اِدّعاء.

إنّ كارل بروكلمان يُشكّك حتى في انتماء بعض قوالب الشّعر العربي إلى فترة الجاهلية، يقول: "... ولا يوجد الهزج[**] إلاّ في قطعتين منحولتين، واحدة لِطُرْفَة، وأخرى لامرئ القيس، كما يوجد في قطعة يبدو أنّها منحولة لعمر بن أبي ربيعة". [4]

---

[1] سورة القمر: الآية 6، 7.

[2] عبد العظيم، إبراهيم محمّد المطعني. افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، ص 37.

[3] المرجع نفسه، ص 38.

[*] مستشرق ألماني، له الفضل في جمع شتات الأدب والتراث العربي المكتوب، إلا أنه له في الرواية والمرويات مواقف أخرى.

[**] بحر الهزج أحد بحور الشعر، سمّي بالهزج لأنه يضطرب، فشبّه بهزج الصوت، وهو ينتمي إلى دائرة المجتلِب التي تضمّ الهزج والرّجز والرّمل، وهو البحر السادس من بحور الشعر الخليلية، وقيل أن العرب تهزج به، أي تغنّي به وأصل تفعيلاته: مفاعيلن×6).

[4] كارل، بروكلمان. تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 53.

ورغم أنه كان يؤمن بفكرة أن لكلّ شاعر جاهلي كبير، على وجه التّقريب، رَاوِيّة يَصْحبه، ويروي عنه أشعاره، وينشرها بين النّاس، فهو يزعم أنّه ربما سوّلت له نفسه، فيحتدي آثاره الفنيّة من بعده ويزيد عليها من عنده، لأنّهم يعتمدون في الغالب على الرّواية الشّفويّة، ولا يستخدمون الكتابة إلاّ نادرًا. [1]

وعن عمليّة الجمع الّتي طالت الشّعر العربي في عصر الأمويين[*]، وبلغت ذروتها على أيدي العلماء في العصر العباسي، يرى أنّ معنى التحرّي في وثوق الرّواية والتّدقيق في النّقل اللّغوي، على النّحو الّذي نعرفه في العصر الحديث، كان أمرًا غريبًا بَعُدَ على جمّاع ذلك العصر، حيث أنّ كون معظم الرّواة شعراء يشكّل دافعًا قويًّا إلى الظّن بأنّه ليس من حقّهم فقط، بل ربّما كان واجبا عليهم في بعض الأحيان أن يصلحوا ما رووه للشّعراء القدماء، أو يزيدوا عليه، ومثال ذلك تصحيح خلف الأحمر[**] بيتا من الشعر، رواه الأصمعي لجرير. [2]

ويذهب بروكلمان إلى أبعد من ذلك، حيث يرى أنّ معظم الرّواة كانوا قد تعمّدوا تغيير بعض أشعار الجاهلية، ونسبتها إلى شعراء الجاهليّة الأولى، والغرض من ذلك، حسب رأيه، هو تمجيد بعض القبائل، أمّا عن نسبة الوضع فهي عاليّة ومرتفعة أكثر مما يمكن إثباته، وأمّا القصد إلى التّشويه والتّحريف، برأيه، فلم يلعب إلا دورًا ثانويًّا. [3]

وحسب بروكلمان، فإنّ رواية النّثر، كذلك، لم تسلم من النّحل والتّغيير، فالعرب كانوا قد اهتمّوا برواية أقاصيص السّلف ومُسَامراتهم المستمدّة من الأساطير، والخرافات السّائرة المتَنقّلة بين الأمم، والأخبار والأحاديث الخرافيّة، والتّاريخيّة المأثورة عن العرب، وكانت أحبّ القصص إلى النّفوس أخبار أيّام العرب الّتي جمعها الأدباء، في

---

[1] كارل، بروكلمان. تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 65.

[*] عملية جمع اللغة (شعرا ونثرا) من طرف النحاة والشعراء بهدف حفظ اللغة العربية من اللّحن وبالتالي الحفاظ على معاني النص القرآني المنزل.

[**] خلف الأحمر هو مولى أعتقه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري، من أصل أعجمي لكنه خاض في الشعر العربي حتى استطاع أن ينظم على سبيل التمويه شعرا يصعب تمييزه من شعر القدماء.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

مختلف الكتب، كشروح النّقائض للفرزدق وجرير، وكتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، وفي كلّها، لم يكن القاصّ حافلاً بالدّقّة التّاريخية بقدر ما كان حافلاً بعُنصر التّشويق وتمجيد(*)القبيلة. [1]كما لم تسلم الأمثال السّائرة والمشهورة في الجاهليّة، كذلك، من التّشكيك في صحّتها، وكذا صحّة الوقائع والحيثيّات الّتي حصلت قديمًا وأنطوت في زوايا النّسيان، وذلك لأنّ جامعي هذه الأمثال لم يقعوا مرّة في تفسيرها وإيضاحها وهذا يجعلها ليست جديرة بالثّقة. [2]

المطلب الثّاني: الرّد على مزاعم المستشرقين

في الرّد على من ادّعى "أنّ الأميّة في العرب أسطورة، وأنّ الرّواية الشّفوية مُنفردة للشّعر العربي أسطورة، كذلك، نجد أنّ العَرب فعلاً كانوا أمَّة أميّة، لا يقرؤون إلا ما تخطّه الطبيعة، ولا يكتبون إلاّ ما يُلقّنون من معانيها، فيأخذون عنها بالحسّ ويكتبون باللّسان، في لوح الحافظة، فكان كلّ عربيّ على مقدار وعيه، وحفظه: كتابا، أو جزءا من كتاب، وكانت كلّ قبيلة بذلك، كأنّها سجّل زمني في إحصاء الأخبار، والآثار، وذلك لأنّ العرب معنويّون، ولم يجر من الأحكام النّفسيّة على أمّة من الأمم ما جرى عليهم، ولهذا كان لابدّ في أصل الحلقة من الحوافظ القوية الّتي تربط مآثر النفوس ارتباطا، وإلاّ اختلّ تركيبهم الطّبيعي"[3]وهذا يعني أنّ العرب أخذوا من الطبيعة مجالاً للتّعلّم والحفظ والاسترجاع فحفظوا ماضيهم وتغنّوا به في حاضرهم، "ولو أنّ الكتابة كانت فاشيّة في العرب ما عدلوا إليها ولا استغنوا بها عن الحفظ، لأنّ سبيل تلك المعاني الطبيعيّة أنْ يجيء من أدلّة طبيعية أيضا، حتى تكون عند الخاطر إذا خطر، والهاجس إذا بدر، وليس لذلك غير اللّسان"[4] ومعنى هذا أنّ فطرة التعلّم من الطّبيعة تستلزم فطرة الحفظ والاسترجاع الطّبيعي متى دعت الحاجة."وهكذا صار الشاعر لسان قومه،

(*) نذكر مثال عن ذلك، ما رواه العرب والرومان فيما يتعلق بالأماكن والأحداث في قصة زنوبيا، ومدى غياب ما يسمونه بالدقة التاريخية في الرواية، حيث اتهم الرواة الحرب بتزييف التاريخ.

(1) كارل، بروكلمان. تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 128.

(2) المرجع نفسه، ص 129.

(3) مصطفى، صادق الرّافعي. تاريخ آداب العرب. ط1. القاهرة: دار ابن الجوزي للطبع والنشر والتوزيع، 2010م، ج1، ص 187.

(4) المرجع نفسه، ص 188.

يذوذ عنهم، ويدفع عن أحسابهم ويغتمر في أعدائهم، وصار إنّما يروي تاريخ قبيلته، وهذا أصل المعنى التّاريخي في الرّواية العلميّة عند العرب، حيث تميّزت الروّاية بالمعنى العِلْمي على يد أوائل روّاة العرب، قُبَيْل الإسلام، كدغفل بن حنضلة، وعُبيد بن شربة الجرهمي، وابن الكيس النّمري، وابن لسان الحمرة" [1] ويبرّر هذا مكانة الشّعر والشّعراء عند القبائل العربيّة قبل الإسلام ومختلف المواقف الّتي كان للشّعراء يدٌ في اتّخاذها في تلك الفترة. "وحتى الصّحابة كان منهم الرّواة في عزّ الإسلام، فأبو بكر، أحفظ الصّحابة للأنساب، وعمر، أرواهم للشّعر، وكلّ ما حفظوه، وتناقلوه في زمانهم، لم يدوّن منه شيء، ولم يكن فيه إسناد، واستمرّ هذا الحال حتى انقضاء الرّاشدين، فلم تدوّن قصيدة، أو خبر من أخبار العرب" [2]، تماما كما تركوا ذلك في السنة.[*]

إنّ المتمعّن في هذه المقتطفات، من أقوال الرّافعي، يلمس فيه سعة اطّلاعه على ادّعاءات المستشرقين، فيما يخصّ مسألة إنكار الرّواية في تاريخ الفكر العربيّ التّراثي، ويُدرك مدى قدرته على رصد الحجج ودَحض مزاعمهم.

وأمّا في الرّد على المشكّكين في صِدق الرّواة، فَقَدْ تحدّث أحْمد أمين، وَهو منَ المحدثين، طويلاً في الأمْر، ردّا على المسْتشرقين، أثناء تطرّقه للّغة والأدب، والنّحو، وذَكر أنَّ أكثر الشّخصيات الّتي رُوِيت عنها اللّغة، والأدب كانوا منَ البَصرة، نَذْكر مِنهم ثلاثةً كانوا أشْهَر هذه الشّخصيات هُم: الأصْمعي،[**]وأبُو زيد[***] وأبُو عُبيدة،[****] إلى جانب المفضّل[*****] الضّبي، وخَلَفْ الأَحمر، وَبَعْض نُحاة الكوفة مثل الكِسائي، وتِلْميذُه الفرّاء.

---

[1] مصطفى، صادق الرافعي. تاريخ آداب العرب. ج1، ص 188.

[2] المرجع نفسه، ص 195.

[*] السنة، يقصد بها الحديث، لأن الحديث لم يدوّن كذلك قبل تلك الفترة.

[**] الأصمعي: عربي من باهلة اِسمه: عبد الملك بن قريب نسب إلى جده أصمع، له حافظة جيدة وجودة الإلقاء والتعبير.

[***] أبو زيد الأنصاري، سعيد بن أوس، عربي من أنصار الخزرج: أكثر الرواة الثلاثة أخذا عن أعراب البادية، لا يضيّق رقعه الفصاحة بل يأخذ حتى الغريب النادر لديه رسائل كثيرة في النوادر، والمطر واللبن.

[****] أبو عبيدة معمر بن المثنى: فارسي الأصل، يهودي الأبوان، وهو أعلم الثلاثة وأوسعهم علمًا واطّلاعا.

[*****] المفضّل: عربي من ضبّة ، كان مربّي المهدي اِبن المنصور، صادق فيما يرويه له كتاب مهم في الرّواية هو "المفضليات".

هذا الأخير الّذي سَنَتَناوله فِي الباب الثّاني منْ هذا البَحْث، وَهُوَ الّذي خَطَا بِاللُّغة، والنّحو خُطْوة وَاسِعة نَحو الضَّبْطِ، وتَقْعيد القَواعد، وتَمْيِيز فُرُوعها، مِنْ أُصُولها، حيْثُ ظَهَر ذَلك فِي كُتُب مَنْ جَاء بَعْدَهُ لأنّ أَكْثر كُتُبِه لَمْ تَصِل إلَينا. [1] ولِيَقِينه بِضَرُورة الاحْتِراز فِي الأَخْذ عنِ الرّواة، وَضَرُورَة التَّأكّد مِن صحّة المرويّات، فَقَد تحدّث عن رِوايات تَعْرِض اخْتِلاف النّاس فِي الحُكْمِ عَلى الرُّوَاة، ويرجّح، هو الآخر، بعدَ ذلك العَرْض، تَوثِيقَه أوْ تَكْذِيبه لَهم، وَمِنْ أمْثِلة ذلك [*] الرّوايات الّتي تَنْسِب الأصْمعي إلى الخَلاعة، والزّيادة في اللّغة، والقُعود في الشّمس لِلْكَذب على الأعْراب، والأُخْرى الّتي تُوثّقهُ، وتُصَدِّقُه وَتُميّزه في الحِفْظ، واشْتقاق القرآن، والتحرُّج فِي الحديث. [2]

وأمّا في الرّد على صحّة المرويّات فذلك أمرٌ يتطلّب دِقّة كبيرة في الطّرح، والاستنتاج، حيثُ أنّ مزاعم بْرُوكلمان، للْوَهلة الأولى، تَبْدُو صَائِبة، لكنْ، بالعودة إلى كُتُبِ التّراث، المتَخَصِّصة فِي التّراجم والسّير، والتّأريخ للعَرب وعلومِهم، ومُخْتلِف جُهُود المحْدَثِين، والنّحاة الأوائل نُدرِك تَمَامًا مدَى إجْحاف مثْل هذه الأحكام وتَعَسُّفها اتّجاه العرب، فمِنْ كُتب التّراجم نَذْكر كِتاب طَبَقات الشّعراء لصَاحِبه محمّد بن سلاّم الجُمَحي الّذي كان أشدّ المصَنّفِين في الطّبقات تحرّجًا في الشّعر، حيْث أَرَادَ أنْ يحمل الّذين يُدَوّنون الشّعر على التّنْقية ويَدْعُوهم ألاّ يتْركوا للخَلَفِ إلاّ الثّابت الصّحيح... بل أراد خِدْمة الرّوح العلميّة بإسناد كلّ قولٍ إلى صاحبه، وكلّ شعرٍ إلى عَصْرِه. [**] [3]

وكِتَاب "الخَصَائص"، من أهمّ الكُتُب التي تحدّثت عن الرّواية، والرّواة وما يَشُوبُهما مِنْ شَوائب، فقد أَفْرَد صاحبه أبْوابًا قيّمة تُثْبِت مَدَى وَعْي النّحاة واللُّغويين العَرب بِضَرورة التَّثبّت في الرّواية من جِهة، ووَعْيِهم بِمَدَى خطُورة الانْتِحال، أو التَّزيف، سواء في الأدب، أو اللُّغة من جهة أخْرى، نَحْو "باب في أغْلاط العرب" ص540،

[1] أحمد، أمين. ضحى الإسلام. دط. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012، ج2، ص ص 619-626.

[*] من الذين يكذبون الأصمعي ثعلب الذي سمع إبن الأعرابي يكذب إدّعاءه أن أباه يملك فرسا، وكذلك قول رجل لما سئل عن مكان الأصمعي، فقال: قاعد نصي الشمس يكذب على الناس، أما من الذين وثقوه، فنذكر ابن معين وأحمد بن حنبل في الحديث.

[2] المرجع نفسه ، ص ص 620-621.

[**] هذا القول قاله فيه الأستاذ طه أحمد إبراهيم الذي تصدّر الكتاب مع دراسة عن المؤلف والكتاب بعد تمهيد الناشر الألماني جوزف هل.

[3] محمد بن سلام الجمحي. طبقات الشّعراء، ص 16.

"وباب في سَقَطَات العُلماء"ص545، و"بَاب في صِدْق النّقلَة، وثِقَة الرّواة والحَمَلة"ص557، و"بابَ الجَمْع بَيْنَ الأضْعَف والأَقْوى فِي عَقْد وَاحِدٍ"ص559، و"باب في الشّيء يُسْمع منَ العربي الفصيح، لا يُسْمع من غَيْره"ص200.

وفي كلّ هذه الأبْواب المذكورة، يقوم صَاحِب الخَصَائص بِتَقْدِيم أمْثِلة عنْ كلّ بَابٍ مِنْ أشْعار العرب، ويُحَلّل وَيُنَاقش، بِأسْلُوب عِلْمي، مُنْقَطع النّظِير، وَهُوَ فِي طَرْحِه هذا، يُصوّر لَنَا مَدَى التِزَام الجِدّية، والدّقة في الرّواية، ويُوَضِّح شُروط النّقلة، والرّواة تَمامًا كما في رِوَاية الحديث(*)، كما يُصِرُّ على شَرْط الفَصَاحة فِي المادّة المجموعة بالرّواية سَماعًا، أمّا المطعني فيقول: "إنّ جَامِعي اللّغة ومُسْتَنْبِطي أصُولِها، وقَوَاعِدها كَانُوا يَتَحرُّون الدّقّة في الرّواية، فَلَمْ يَأْخُذوا اللّغة عن كلّ منْ هَبّ ودبّ، بلْ كانوا يَقْبَلون رِوَايَات العَربِ الأقْحاح، والبَدْو الخُلّص، الّذين لم تَلْمَسْ ألسِنَتهم رخاوة الحضارة ولم تُفْسِد لَهَجَاتُهم مُخَالطَة الشّعوب غيْرِ العربية". (1)

فلا أحد يُنْكر مَرْحَلتَي الرّواية، فالأُوْلى كَانَت "خاصّة بالشِّعر وَحْدَه، وَتُعْنَى بِمُجَرّد حِفْظِه، وَنَقْله وإِنْشَاده، حَيْثُ كانَ هُنَاك رُوَاة للشِّعر فِي العَصْرِ الجاهِلي، وامْتَدَّ إلى عَصْر الإسْلام"، أمّا المرْحَلة الثّانية، فكانت فِي أَواخِر القَرْن 2 هـ، حيْثُ ظَهرت الرّواية العِلْميّة الّتي تَقُوم على التّحقِيق، والحِفْظ، والنّقْل والإسْنَاد، وقَد انكَبّ الرُّواة يَتَنَاقلون تُرَاث الجَاهلية، يَجْمعون مِنْه ما تَفَرَّق، ويُنَظِّمُون مِنْه مَا تَجَمّع، وَيُضِيفُونَ إِلَيْه مَا لم يَكُنْ فِيه، ممّا ثَبُتَ لَهُم صِحَتُه، وَينْفُون عنْه مَا ثَبُتَ لَهُمْ زَيْفُه، وَفَسَادُه، وَلَمْ يَأْلُوا جُهْدًا في التَّثبّتِ والتّحقِيق. (2)

(*) تعدّ رواية الحديث ومختلف شروط الرواية وشروط الرواة والنقلة في الحديث، الأصل الذي بُنيت عليها رِواية الشّعر العربي القديم.

(1) عبد العظيم، إبراهيم محمد المطعني. افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد. ص187.

(2) عبد المجيد، دياب. تحقيق التراث العربي: منهجه وتطوّره، ص ص 20-21.

ولاَ أَحَدَ يُنْكِر أَنْ حَرَكَة جَمْع القُرآن وتَحقيقه، وتَدْوينه، فِي عَهْدِ عُثْمان، هِيّ أوّل تحقيق، وَأنّ القرآن الكَريمُ هُوَ أوّل كِتاب وَصَل إلْيْنَا مَكْتُوبًا وَمُحَقِّقًا، أمّا حركة جَمْعَ الشّعر الجَاهِلي، وَتَدْوِينه، فِي النّصف الثّاني مِنَ القَرْن الأوّل، فهِي تُعْتبر أوّل حركة تاريخيّة لحِمايَتِه، وتَحْقِيقِه ونَشْرِه. [1]

وأمَّا حَقِيقَة تَعرُّض الشّعر الجَاهِلي لآفَات الرِّواية النَّقْليّة وَحَمْل عَلَيْه مَا لَيْسَ مِنه، واخْتِلاف الرِّوَايات، فهِي تَرْجِع لِهذِه الأسْبَاب على الأرْجح: [2]

- نِسْيَان السَّامع الّذي حَفِظَها لأوّل مرّة.
- تَغْيِير الشَّاعر لشِعْرِه بِسَبَبِ مُلاحظة مُسْتَمِع لشِعره.
- تحريف قِراءة الشّعر من الصُّحف الغير منقوطة ولا مشكولة.
- خصَائص اللّهجات الّتي تختلف بين الشّاعر والرّواية.
- التّغيير الّذي يحدثه الرّاوي باستحسانه لكَلمة.
- تغيير المؤلّف للكِتاب بسبب إمْلائه عدّة مرّات.
- تزيّد الرّواة في روايتهم للشّعر.

فضلاً عن هذه الأسباب، هُناك إمكانية السّهو في الرّواية، تماما كمَا نوّه إلى ذلك ياقوت الحموي في مُعجمه، فلأن الرّاوي إنسان، بحواس خمسة، خاضع للتّأثير والتَّأَثُّر بمختلف الظّروف والأحوال، فإن أقلّ ما يمكن أن يقع فيه هو السّهو، والمقصود بالسّهو هنا هو إمكانية الغلط في نسبة قول إلى قائله دون قصد، ولعلّ هذا المثال كفيل بتوضيح الفكرة:

---

[1] عبد المجيد، دياب. تحقيق التراث العربي: منهجه وتطوّره، ص 22.

[2] المرجع نفسه، ص ص 25-29.

أوْرَد أبُو الكَرَمْ خَمِيسْ بَنْ عَليّ الحُوزِي النَّحْوي الحَافِظ الوَاسِطِي في كِتَاب الأَمَالي أَنَّ أبا سعيد الحَسَنْ بْنْ الحُسَين السُّكّري قَدِمَ بِبَغْداد، وحَضَرَ أَحَدَ مَجَالسِ الفَرّاء، حيْثُ كَانَ يَوْمَها شَيْخَ النَّاسِ بِها، فَوَجَدَهُ يُمْلِي بَاباً في التَّصْغِير قَالَ فِيه: العَرَبُ تقول الهُنُّ، وتَصْغِيرُه الهُنَيُّ، وَتَثْنِيتُهُ فِي الرّفع الهُنَيَّان، وفي النَّصب والجرّ الهنيَّين، وَبَعْدَ مُغَادَرة الجَميع الدَّرس، تَقَدَّم السُّكّري، وقال أنَّ أشْيَاخه لاَ تَقُل بِهَذَا التَّصْغِير، فَسَأل الفَرَّاء أَوَّلًا عَنْ أَشْيَاخِه مَنْ يَكُونُوا، وعَنْ قَوْلِهم كَيْفَ يَقُولُوا، فَأَخْبَرَه أنَّهمْ أَبُو عُبَيْدةَ، وأَبُو زَيْد، والأَصْمَعِي.

وأمّا المؤَلِّف يَاقُوتْ بَنْ عَبْد الله فَيَقُول: "هَكَذَا وَجَدْتُ هَذَا الخَبَر فِي أَمَالي الحُوزيّ، وهُوَ مَا عَلِمت مِنَ الحُفّاظ، إلاّ أنّه غَلَطٌ فِيه مِنْ وُجوه: وذلك أنّ السكّري لَمَ يلْق الأَصْمَعِي، ولاَ أَبَا عُبَيْدة، ولاَ أَبَا زَيْد، وإنَّما رَوَى عَمَّنْ رَوَى عَنْهُم، كَابْن حَبِيبْ، وَابنْ أَبي أُسَامة والخَرَّازْ وَطَبَقَتِهم، ثمّ إنَّ السُّكَريّ وُلِد فِي سنة اثْنَتي عَشَر ومَائتين، وأَبَا عُبَيْدَة مَاتَ سنة تسعة عشر ومَائَتين، وأبَا زَيْد مَاتَ سَنَة خَمْسة عشر ومَائَتين، والأَصْمعِي مَاتَ في سنة ثلاثة عشر ومَائَتين أوْ خمسة عشر ومَائَتين، فَمَتَى قَرَأ عَلَيْهم، وَهذِه الجَمَاعة المذكُورَة هُمْ فِي طَبَقة الفَرّاء لأنَّ الفَرَّاء مَاتَ فِي سَنَة سَبْعُ ومَائتين، وَلَعلّ هذه الحِكَاية عنْ غَيْرِ السُّكّري وَأَوْرَدَهَا خميس عَنْهُ سَهْوًا وَأَوْرَدَتُهَا أَنَا كَمَا وَجَدْتُهَا".[1]

فَفِي هَذَا المِثال الّذي أَخَذْنَاهُ مُبَاشرة مِنَ مُعْجَم الأُدَبَاء لِلْحَمَوي، والّذي اخْتَرْنَاهُ بِعِنَاية وَعَنْ قَصْدٍ، كَوْنُه يَتضمّن رِواية عن الفرّاء، صَاحِب كِتَابَ "مَعَانِي القُرآن" الّذي سَوْف نَشْتَغِل عَلَيه فِي الشّقِ التّطبِيقي مِنْ البَحْثِ، نَجِد الخطوَات العِلْميّة الّتي قام بِها الحَمَوِي مِنْ أَجْل إِثْبَات غَلَطِ مَا وَرَدَ فِي رواية صَاحِب كِتَاب "الأَمَالِي" بَدْءاً بِنَقله بِأَمَانة مَا وَجَدهُ فِيه، ثمّ إسْنَادُه إلى الحُفّاظ، ثمّ إصدار الحُكْم عَلَيْه بالغَلَط، وَأَخِيرًا تَقْدِيم الحُجّة القَاطِعة، وهِي المقَارنة التَّاريخية لِفَتَرات الحَياة بِالنّسبة لشَخْصِيَّات الحَدثِ في الرّواية والرّواية في حدّ ذَاتِها، لِيَصِل في الأَخِير إلى تَبرِير ذَلك بِإمكَانيّة السَّهو في الرّواية.

[1] ياقوت، الحموي الرومي. معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب . تحقيق إحسان عبّاس. ط1. لبنان: دار الغرب الإسلامي، مج2، ص 855-856.

إنّ هذا المثال، وَاحدٌ، عَثَرْنَا عَلَيْه فِي طَيّات مُعْجَم الحَمَوي ولَيْسَ هُو بِالوَحِيد، فِي كُتُب السَّلَفِ، وَهَذَا يَبْعَثُ عَلَى الطُّمَأْنِينَة فِيمَا يَخُصّ التّشَدُّد فِي الرِّواية وَمَدَى مِصْدَاقِيّة المَرْوِيّاتِ.

المبحث الرّابع: الطّعن في مدى سلامة المنهج وكمال الاستقراء والردّ على ذلك

المطلب الأوّل: الطّعن في مدى سلامة المنهج وكمال الاستقراء

اتّهم بعض المسْتَشرقين النّحو العربي باعتماده على اللّغة الأدبيّة، مادّة لغويّة، للتّقعيد للّغة العربيّة، كما اتّهموه بِعدَم جدْوى هذه المادّة اللّغويّة، وشَكّكُوا في صحّتها، كونها جُمِعت عن طريق الرّواية. إنّ ثالث تُهْمة لهم في هذا المبْحثِ مبْنِية على أساس التّهْمتَين السَّابقتين، لأنّها تخصّ مدى شُمولية المدوّنة من جهة، ومَدى كمال الاسْتِقراء الّذي قام به النّحاة الأوائل للمادّة اللّغوية المجموعة ، وبالتّالي عدم نَجاعة منْهجِهم في التّقعيد للّغة من جهة أخرى.

فأمّا مدى سعة المدوّنَة، فيَنطلق من التّهمة الأولى، حيث طعن بعض المستشرقين فيها، بوصفها تمثّل اللّغة الأدبية للعرب، مُقْصِين بذلك الكلام العادي، أيْ المسْتوى اللّهجي الّذي تنادي بضرورة دراسته، ونجاعة الاعتماد عليه اللّسانيات الغربيّة الحديثة، كون هذا المستوى مُمَثِّلاً للّغة في الاستعمال، ومحقّقا للوظيفة التّواصلية لها، وأمّا قضيّة كمال ونُقْص الاستقراء الذي قام به النّحاة العرب الأوائل بعد جمعهم للّغة، بالطّرق المذكورة في الفصل الأوّل، فمردها انطلاقهم منْ اعتبار أنّ النّحو العربي مبني على أساس ما جاء به الفيلسوف اليوناني أرسطو(*)، القائم على الاستقراء البسيط(**)، والمركّز على النّمط الإخباري(***) من اللّغة.

(*) فيلسوف يوناني، ومؤسس علم المنطق القائم على صدق وكذب القضايا.

(**) أو هو الإستدلال الإستقرائي (تصميم أسفل/أعلى)، وهو أحد الأشكال الإستدلالية الذي ينتقل من الجزئي إلى الكلي، أي الحكم على الكلّي بما يوجد في الجزئيات جميعها، وهو الإستقراء الصوري الذي ذهب إليه أرسطو وهو القائم على التّعميم لكنه واجه إنتقادات من طرف ديفيد هيوم وكارل بوبر الذي لا يرى سببا في تعميم الحكم على باقي الأفراد إن لم تفحص كلها، ولا في تعميم الحكم على المستقبل ما دام أنه فحص الأفراد في الزمن الحالي أو الماضي.

(***) قضايا أرسطو تأخذ صفة الخبرية وبذلك تُسْتَثْنَى الجُمَل الإنشائية.

والمسْتَشْرِقون فِي طَرْحِهم هذَا انْطلقوا مِنْ عُثُورِهم على مُصْطلح الاستقراء عند علماء أصول النّحو العربي، بدءًا من ابن السّراج، فبمجرّد عثُورهم العَفْوي على هذا المصْطلح، ودُون تَدَبُّرٍ، وتَثَبُّتٍ من معناه الذي وُضع لَهُ أوّل مرّةٍ، رَاحوا يَرْبِطون النّحو العربيّ بكلّ ما يميّزه من أصالة، وعِلْمِيّة، بالمنطِق الأرِسْطي الذي وإنْ كَان الأسْبق فِي تَعاطي مُصْطلح الاسْتِقراء، لَمْ يَكُنْ يُطابِق البتَّة ما أبْدعه النّحاة العرب. ولِفهْم المسْألة، وحَسْمِها باتَ من الضّروري البَحْث فِي تَاريخ ظُهور هذا المصْطلح في الثّقافة العربيَّة، والتأكّد مِنْ ورود مُصْطلحات مُوازية له في المعْنى والاسْتعمال، ومُقَارنة ذلك مع ما جاء بِه أرِسْطو من منْطق، واسْتقراء للقضايا ليَتَسنّى لَنَا الردّ على هكذا تُهمة.

إنّ الاسْتقراء لَمْ يوجد عِند سِيبويه ومنْ جاء قَبْله إلاّ بلفظة الإحْصاء [1]، ومفهوم الإحْصاء مُلازم لِمفْهوم سُلّم الكَثْرة الّذي عمَل على أَساسه النّحاة الأوائل، حيثُ "عَنُوا في الواقع عناية كبيرة جدا بِحصْر الوحَدات اللّغوية منَ المفردات، وصِيَغ المفْردات، وأصْناف التّراكيب، ومُخْتلف البُنَى التركيبية، وغيْرها، فما من قَبِيل لُغويّ، في أي مستوى من مُسْتويات اللّغة، إلاّ وَقد حَاوَلُوا حَصْر مَا يَحْتَوِي عليْه حصرًا كَاملاً، ومَا مِنْ نصٍّ شِعْرًا أم نَثْرا، إلاّ وتصفّحُوه التّصفّح الكَامِل لإحْصاء ما جَاء فيه"[2]، كَمَا وَرَد مُصْطَلح الاسْتِقْصَاء، والتَّصفّح، والتّتبّع [*]ومعناها النّظر الشامل المنتظم في المصنّفات العربيّة التراثيّة، وأوّل نحوي عربي استعمل كلمة استقراء، مُصطلحا في عِلم العربية، كان ابن السّراج، يقول في مقدّمة كتابه "الأصول في النّحو": " النّحو إنّما أُرِيدَ به أنْ يَنْحُوَ المتكلّم، إذا تَعلّمَه، كَلاَمَ العرب، وهو علمٌ اسْتخرَجَه المتَقدِّمون فِيه مِنَ اسْتقراء كلام العرب حتّى وَقفوا مِنْه على الغرض الّذي قصده المبتَدِئون بهذه اللّغة، فباستِقراء كلام العرب، فأَعلَم أنَّ الفاعل رَفْعٌ، والمفعول بِهِ نَصْبٌ، وأَنّ فعلَ ممَّا عينُه ياءٌ، أَوْ وَاوٌ، تُقْلَبُ عِينُه، مِنْ قَوْلِهم: قَامَ وبَاعَ". [3]

---

[1] عبد الرحمن، الحاج صالح. منطق العرب في علوم اللسان. دط. الجزائر: موفم للنشر، 2012، ص 230.

[2] المرجع نفسه، ص 203.

[*] ذكر عبد الرّحمن الحاج صالح في كتاب "السّماع اللّغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة" ذِكر الجاحظ لمصطلح التصفّح في " رسائله"، وذِكر السّيرافي لمصطلح التتبّع كما بيّنه ابن السرّاج في "الامتاع والمؤانسة".

[3] محمد بن سهل، بن السراج. الأصول في النحو، ص 35.

مِن تحليل قول ابن السّراج، ندرك أن النّحاة العرب توصّلوا إلى أنّ الفاعل دائما مرفوع، وأنّ المفعول به دائما منصوب، وهذا التّوصل تمّ باستقراء كلام العرب، أي بتصفّحه، والنّظر فيه النظر الشامل، المنتظم كلمة كلمة، وجملة جملة، فلم يَتْركوا مِنَ المسموع شيئا، وبذلك اكتشفوا ثُبُوتَ رفعِ الفاعل ونَصْب المفعول به.

إنّ السّؤال الّذي نطرحه الآن هو: لماذا وصف بعض المسْتشرقين الاستقراء العربي بالنّاقص طالما قَصَدَ بِه ابن السّراج "التّصفح"، و"النّظر الشّامل" و"المنتظم" لكلام العرب؟

المطلب الثّاني: الردّ على طعن المستشرقين في كمال الاستقراء

إنّ الأمر الذي جعل المسْتشرقين يَطعنون في استقراء النّحاة العرب الأوائل هو مساواتهم بين اِستقراء أرسطو، واستقرائهم، أمّا استقراء أرسطو، أوْ استدلاله الاستقرائي فهو (تصميم أسْفلَ–أعْلَى) أَحدُ أشكال الاسْتِدلال الذي يَنْتَقِل من الجُزئي إلى الكُلِيّ، أي الحكم على الكلّي بما يُوجَد في جُزئياته جَمِيعِها، وهو استقراء صوريّ قائم على التّعميم [1] ، وهو الطّريق من الأمور الجزئيّة إلى الأمر الكلّي، وهو تجريديّ وبَسيط، وأرِسْطو لا يميّز بيْنَ طريقة الوصول بالاسْتِقراء إلى الكلّي، كجنس أو كصفة، والكلّي كقضيّة، حيث كلاهما يَحْدُث بِتَكرار الحِسّ في الذّهن، وكأنّ المفكّر لا دخل له في جميع الحالات، وهكذا خلط أرِسطو بين مشاركة المستقرئ في تحصيل الكلّي، وبين التّجريد العُضْوي، كما خلط بين التّعميم الموصِل إلى مجرّد مفهوم، والتّعميم الموصِل إلى إثبات علاقة لازمة في الوَاقع. [2]

ورغم هذا التّخليط الذي قام به أرِسطو، فقد أقبل ابن السّراج على استعمال لفظة استقراء، الّتي تَرْجمها المتَرجِمون مِنْ مَفْهوم "Epagoge" وجَعَلَه مُصْطلحا مِنْ مُصطلحات البَحْث في العربيّة على الرّغم مِنْ وُجودْ مُصْطلحات فِي زَمانه، تُسْتَعمل بِكثرة كالتّصفح، والتّتبّع، والاستقصاء، ويُرجّح أنّه أخذ هذا المصطلح إعجابًا

[1] ar.m.wikipedia.org، تم التصفح يوم 6 جويلية 2020م.

[2] عبد الرحمن الحاج صالح. منطق العرب في علوم اللسان.ص 234.

بالانسجام التّام، فيما يخصّ النّظام الاستدلالي الأرِسطي، والتّناظر التّام: حيث يَنْطلق الاستقراء من الجُزْئيّات إلى الكلّي ويَنْطَلِق القيّاس الأرِسطي من الكلّي إلى الجُزْئيّات، والقيّاس بالمثال من الجُزئي إلى الجُزئي. [1]

وبِمُجرّد عُثُور المسْتَشرِقين على لفظة "اسْتقراء" عِنْد ابن السّراج وجّهوا تُهمة النّقص، والقُصُور لهذا الاسْتقراء، وتُهْمَة ضُعْفُ المنْهَجِ المتّبع مِنْ طَرَف النّحاة الأوائل، دُون أدْنى اجْتِهَاد مِنْهم، وَلاَ حَتَّى تَحمّل عنَاء البَحث في التّراث النّحوي العربي الّذي يَنِمُّ عنْ الأصالة، وسَلاَمة المنْهجِيّة العِلْميّة وسِعَة الاسْتقراء، في زَمن مبكِّر جدًّا، وعنْدَ أُمَّةٍ بَعيدة كلّ البُعْد عن نظريّة المنَاهِج الحدِيثَة زَماناً، ومَكاناً.

إنّ الّذي جَعَل المستشرقين يَصِفُون استقراءَ النّحاة العرب بالاسْتقراء الأرِسْطي هوَّ وُجُود رَوَابط بينهما تَبْدو للْوَهْلة الأولى قَوِيَّة، لكن المتَمعِّن في المسْألة، يَجِدُ أَنَّ مَا يَربط الاسْتقراء النّحوي العربي بالاسْتقراء الأرِسْطي هُو مجرّد اسْتعمال مُصْطلَحَيْ (الجُزْئيّات والكُلِّيّات) الّتي تَتَعامل مَعَ تَرَاكِيب لُغَويّة، لكنْ أَرِسْطو ورغْم أنّ القضايا الّتي يُخْضِعُها للاسْتقراء هي منَ اللّغة، فهو لاَ يهتّم باللّغة إلاّ بِقَدْر مَا سَاهَمت فِي إقَامة الحُكْم، والقِّياس المنْطِقي، وبالتَّالي فِي التّمييز بيْن الصِّدق والكَذب مِنَ النّاحيَّة العقليّة، ولأَجل ذلك نجده يُحاول الكشف عن مَجَارِي الكَلام، وَوَظائِف كلّ عُنصر فِي الخطاب، كَخِطاب، بَلْ همّه الوَحيد هو البحث عن إقامة الحُكْم كَحُكْم مَنْطِقي باللّجوء إلى بِنْية اللّغة اليُونانيّة، كَمَا أنّه لا يَهمّه مِنَ الخِطاب إلاّ الخَبر تَصْديقه وَتكْذيبه. [2]

فِي حِين، نَجِد الاسْتقراء العَرَبِي الّذي عبّر عنه سيبويه وَغَيْره بِالإِحْصَاء، يدلّ على مَفْهومٍ هُوَ أَقْرب إلى العُلوم التّجريبية الحَديثة،[*] وَأَبْعدَ مَا يَكون مِنَ النّظرة الفَلسفِيّة التَأمّلية، إِذْ أنّ كَلِمة "إِحْصَاء" تَدّل على عملٍ يَقُوم به

[1] عبد الرحمن، الحاج صالح. منطق العرب في علوم اللسان، ص 234.

[2] المرجع نفسه، ص 63.

[*] العلوم التي تنطلق من الملاحظة العلميّة، والشكّ، ثم التّجربة بحثا عن اليقين الذي يجزم بطبيعة العلاقة بين الظواهر.

البَاحث لِمَعْرفة كثرة الشّيء أو كثرة حُدُوث الحَادث، أو قِلّته فِي نَفْسه، وَفِي اتّسَاع مجَاله بالنّسبة إلى غَيْره، ثمّ في داخل البَابِ الّذي يَنْتَمِي إليه، وَمِنْ ثمّ على اسْتمرار علاقة بيْنَ ظاهِرتين. [1]

أمّا مسْألة العُموم الّذي يَبْدُو مُطابقا لما أتَى به أرِسْطو، فهو عُمُوم يَتّصِف به الكُلِّي مِنْ جِهَة، والمطّرد منْ جهة ثَانيّة؛ الأوّل، هُوَ عُمُوم الجِنْس، وهو نَاتِج عنْ تَجْرِيدٍ عِنْدَ أرِسْطو، أمّا الثّاني، أيْ المطّرد، فهو عُمُوم التّلازم المادّي بيْن ظَاهِرتَين، وهو يَخصّ العلاقة بين شَيْئَيْن لاَ الجِنْس، ومَفهوم العلاقة يُعَدُّ أَهَمُّ منْ كلٍّ مِنَ الجِنْسِ، والماهِية، والذَّات، وهُو جَانِبٌ كَيْفِيّ، كَمِّي، مُهِمّ جدّا لَمْ يَتَبَادَر إلى أَذْهَان فَلاَسِفَة اليُونان كتَصَوُّر. [2]

إنّ الاسْتقرَاء النّحوي العَرَبي إذًا هُوَ الاسْتقرَاء الّذي سَنّتهُ المَنَاهِج العِلميّة الحَدِيثة، عَكْسَ الاسْتقرَاء الأرِسْطي الّذي انْتُقِد بِشِدّة، وَعِيبَ عَلَيْه التّجريد، والتّعمِيم المطْلق[*]، بَلْ هُوَ التَّتبُّع الشَّامل لِمَا تَحْتَويه الأبْواب لِلْكَشف عَنْ تَلاَزمٍ بيْن عُنْصرين، أَيْ إحْصَاء لِلْوَقَائِع كَمًّا ونَوْعًا مِنْ أَجْلِ إثْبات الثَّابت المسْتَمِرّ منِهْاَ عَلَى شَكْلِ قوانين أوْ عَلاَقَات لاَزِمة تَنْتَظِم أفْرَادها فِي أبْواب مُطّردة، والعلاقات اللاّزِمة لَيْسَتْ هي القَضَايا المسَلّمة أوْ الأَجْناس، كما اشْتَغل عَلَيْهَا أرِسْطو.

وعَنْ سَلاَمة مَنْهَج العَرَب فِي عُلوم اللّسان، فهو مَنهَج عِلْميّ لِتَمَسُّكِه المطْلَق بِالوَاقِع المشَاهد؛ فَلِلْمُشَاهدة الحِسِّية أهَمِيّة بالغة عند النّحاة الأوائل، حيث أَكْثَروا مِنَ المشَاهدة المباشِرة للظّواهر اللّغوية، ولَمْ يُسْبقُوا في ذَلِك مِنْ

[1] عبد الرحمن الحاج صالح. منطق العرب في علوم اللسان ، ص 237.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[*] عاب ديفيد هيوم، وكارل بوبر تعميم أرسطو، حيث لا يوجد ما يستدعي تعميم الحكم على باقي الأفراد إن لم تفحص كلها، ولا يوجد سبب في تعميم الحكم على المستقبل، ما دام أنه فحص الأفراد في الزمن الحالي أو الماضي.

أيّة حضارة أُخْرى فِي القديم، وَالجَاحِظ[*] مُولَع بِهذه النّزعةَ العلْميّة الّتي تَجْعل منَ الشّك المنهجي المبْدأ الأسَاسِي فِي كلّ مُحَاولة عِلْميّة خاصّة بِإثْبَات الحَقائِق. [1]

وفِيمَا يخصّ المنْهَجِية العِلْميّة "فالسّماع مُشَاهدَة أوْ نَقْل للمُعْطيات، وكل مُشَاهدة تَدْخل فِي المرْحلة الأولى منْ كلّ بَحْث عِلمي، وهي تَنْتَمي إلى الحِسّ في مُصْطَلح العرَب" [2]، وغَرَضُ النّحاة الأوائل عِلْمي كذلك، لاهْتِمامهم العظيم بالمشَاهدة، وَالتّثبّت الدّائم بالرّجوع إلى المسْمُوع والامتناع عنْ كلّ حُكْمٍ إلاّ بالاعتِماد عليْه وما يَترَتّب على ذلك من التّوثيق لكلّ ما يُسمع، ولكلّ مَا يُنْقَل ثُمّ تقديم السّماع على القِيَّاس وهَدفُهم كذلك عِلْميّ مَحْض، وذلك لتمسّكِهم المطْلق بالمشاهدة مع تحكيم بدِيهة العقْل، لِمُحاولة التّفسير لكلّ الظّواهر،كما أنّه عمليّ مِنْ جهة أُخْرى، حيْث أنّهم وَضعوا النّحو، بَادِئَ الأمْر لِيَلْحَق مَنْ لَيْسَ مِنْ أهْل العربيّة بِأَهْلها[**]، ويَسْتَوي مَنْ ليْسَ بِفَصِيحٍ، ومَنْ هَوَ فَصِيحٌ، وهَذَانِ الهَدَفَان اللّذان كَانَا مُسَطّران بِاتّبَاع المنْهج العَربي التّراثي بَعِيدان جِدًّا عمّا كَانَ يَهْدِف إِلَيْه أَرِسْطو مِنْ خِلال مَنْطِقِه، رغْمَ انْطِلاَقِه من النّظر في اللّغة اليُونَانيّة، ومُشَاهدةَ تَرَاكيب عَنَاصِرها، لأنّ كلّ ما كان يَهُمّه هُوَ ما تُؤَدِّيه هذه العناصر، وتراكيبها منَ معنى منَ الوِجْهة المنطِقيّة فقط. [3]

وبهذا نصل إلى أنّ استقراء العرب كان استقراءً شَامِلاً نسبيًّا، "ولأوّل مرّة في تاريخ اللّغات وتاريخ العلوم، حَاوَلت جَماعة أهْل المعرفة بِاللّغة أنْ يَتَعَرّفوا مُباشرة، وفي عين المكان على ما كانت عليه اللّغة التي كانت تَعْنِيهم، وما احْتَوَت عليه مِنْ ألفاظ وعِبَارَات بِمدْلُولاتها، وذلك بالسّماع الفِعلي من أفْواه النّاطقين بِهَا، وهذِه اللّغة هيّ العربيّة الّتي نَزَل بها القرآن، وهؤلاء اللُّغوِيُون هم عُلماء العربية مِنَ القَرْنَيْنِ الثّاني والثّالث الهِجْريين، وكان في نَفْس

---

[*] هو صاحب الطّرح القائل بمعرفة مواطن الشّك وحالاته الموحية لمعرفة بها مواضع اليقين.

[1] عبد الرحمن، الحاج صالح. منطق العرب في علوم اللسان، ص 95.

[2] المرجع نفسه، ص 104.

[**]هكذا حدّد ابن جني مفهوم النحو، في كتابه المنصف.

[3]المرجع نفسه، ص 107-108.

الوَقْت أوْسَع سَمَاع لُغَوي حَصَل في التّاريخ"[1]، وكان عَمَلَ النّحاة يَتّسِم بالموضُوعية، ودِقّة المنْهَج، أمّا الموضُوعيّة فتَجلّت مِنْ خِلاَلِ تَصَوّرِهم الوَاضح، أوّلا، لِلْمِعيار اللّغوي الّذي عَزَمُوا على وَصْفِه، وتَدْوِينه، وثَانِيًّا، لِلْكَيْفيَّة الّتِي مَكّنَتْهُم منْ التّعرف على النّاطق بهذا المِعيار، فاعْتَمَدُوا عَلَى مقايِيس موْضُوعية أهمّها المرْجع، الخاصّ بهذَا المِعيار، ومقياس الفَصَاحة، ومِقْياس اللّغة المِجْموعة أساسًا بالسّماع والمشَافهة، ومِقْياس المِصْدر بالنّسبة للمَروِيّات وأخيرًا معيار الكثْرة، مركّزين على الشّعر والنّثر على حدّ السّواء. [2]

[1] عبد الرحمن، الحاج صالح. السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 398.

[2] المرجع نفسه، ص ص 388-399.

الباب الثّاني: المسموع والشّاهد

في الجزء الأوّل من "معاني القرآن"

للفرّاء

مدخل

تعريف الفراء

تقديم كتاب "معاني القرآن"

أوّلا: التّعريف بالفرّاء

1- مولده ونسبه ونشأته:

هُوَ أبُو زَكَرِيّا يحْيى بنَ زِيّاد بنَ عَبْد الله بْنَ مَنْظُورْ بْنَ مَرْوَان الأسْلَميّ الدَّيْلَميّ، وهذه النّسْبَة إلى الدَّيْلَمْ،(*) وُلِدَ بها، وأبُوهُ هُوَ الأقْطَع زِيَّاد، قُطِعَتْ يَدُه في الحَرْب مَعَ الحُسَيْن بنَ عَليّ، و كانَ مَوْلَى لأَبِي ثَرْوَان،(**) وأبُو ثَرْوان كان مولى بَنِي عَبْس. قِيلَ لَهُ الفرّاء لأنَّهُ كَانَ يَفْرِي الكَلاَم. [1]

نَشَأ بِالكُوفَة وعَاش كثيرًا بِبَغْداد، وكَان يَعُود إلى الكوفة، في آخر كلّ عامٍ فَيُقِيم بهَا أرْبَعِين يَوْمًا، يُنْفق على أهْله ما جَمَعه في بغْداد. [2]

2- مذهبه:

كان يُحِبُّ الكَلام، ويَمِيل إلى الاعْتِزال، مُتدينًا، مُتوَرّعًا، على تَيْهٍ، وعجَبٍ وتعَظّمٍ، [3] حيْث كان يُجَادل الفُقهاء ويَنَال إعْجابهم بفِطْنته، رغْم أنّه نحويٌّ، وله إجَابةً حَسَنة في مسْألة فِقْه الصَّلاة، عِنْدَ السّهو، [4] قَدَّمَها لأَبِي حَامِد أَحْمد بنَ بَشِير. (***)

(*) ترجم له ياقوت الحموي في معجم الأدباء، مج3، ص 1225، والسيوطي في بغية الوعاة، ص 333 و غيرهما.

(**)مقاطعة فارسية، ذكره الزبيدي في طبقاته، ص 131.

[1] جلال الدّين، السيوطي. بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. ط2. القاهرة: دد، 1399هـ-1979م، ج2، ص 333.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] ذكره السّيوطي في بغية الوعاة، ج2، ص 333، وأبو الطيب اللغوي في مراتب النحويين، ص 87.

[4] ياقوت، الحموي. معجم الأدباء: إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، مج1، ص 17.

(***) ذكره أبو حيّان في كتاب محاضرات العلماء وذكر حديثه مع الفرّاء في مسألة فقه الصلاة عند السّهو، وذكر ذلك ياقوت في معجمه، ص 17.

3- شيوخه وتلاميذه:

أَخَذَ الفرّاء العِلم عَنِ الكِسَائي وَعَلَيْه اعْتَمد في النَّحو، كمَا اسْتَكْثَر مِنَ الأخْذ عنْ يُونس بن حَبيب البَصَري، والبصريونَ يُنْكِرون ذلك، وصَارَ أعْلَم الكُوفيين بالنّحو مِنَ الكِسائي، [1] ثمّ أخَذَ عَنْ الأعْراب الّذين وَثِقَ بِهم، مثل: أبِي الجرّاح،[*] وأبِي ثروان،[**] وأبِي زِيّاد الكِلابي. [2]

ورَوَى عنْ قيْس بن الرّبيع، ومَنْدل بن عَلي والكِسَائي، أمّا مِنْ تَلاَمِيذه الّذين رَوَوْا عنْه فَسَلَمَة بنَ عاصِم،[***] ومُحمّد بن الجُهم السَّمري، الّذي حدَّثَ بِكُتُبِه ومِنْ بَيْنِها "مَعَانِي القُرآن"، ومحمّد بن قَادِم.[****] [3]

والفرّاء كانَ نَحويًّا مُتَميّزا في عِلْمِه، ومَذهبه النّحوي فكان له بذلك رأْي في بعْض أهْل العِلْم واللُّغة، وكانَ لأهْل العِلْم واللُّغة رَأْي فيه، كَمَا كانَ له ما خَالَفَ به أهْل اللُّغة.

4- رأي الفرّاء في بعض أهل العلم واللّغة

فأمّا رأْيُه في بعْض أهلِ العِلم واللُّغة، فنذكر أنّ أبا العبّاس قال: حدّثني سَلَمة قال: قَالَ الفرّاء: مات الكِسَائي، وهو لاَ يُحْسِن حدّ "نِعْمَ"، و"بِئْسَ"، ولاَ حَدَّ "أنَّ المفْتوحة"، ولاَ حَدَّ "الحِكَاية"، ولما سُئِل الفرّاء عن سَبَب عدَم مُناظرته للكِسَائي قال: أشْفَقْتُ أنْ أُحَادِثه، فَيَقُول فِيّ كَلِمةً تُسْقِطُني فأمْسَكتُ. [4]

---

[1] ذكره جلال الدّين، السّيوطي، بغية الوعاة، ج2، ص 333، وياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج3، ص 1225، 2851، وأبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص 86.

[*] من خطوط العلماء، ذكره ابن النديم في الفهرست، ص 46.

[**] أعرابي فصيح ذكره إبن النديم في الفهرست، ص 43.

[2] أبو الطيب، اللغوي الحلبي. مراتب النحويين، ص 86.

[***] وكتابه "معاني القرآن" أجود نقلا عن الفراء، لأنه كان عالما، ذكره الزّبيدي في طبقاته، ص 137.

[****] هو أستاذ ثعلب الذي كان يُسْعِده تفوّق تلميذه في اللغة ذكره الزّبيدي في طبقاته، ص 138.

[3] ذكر ذلك الزّبيدي في طبقاته، ص 137.

[4] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج4، ص ص 1744، 1745.

والغَريب في الأمْر أنّ الفرّاء يُجِلّ، ويُمجِّد الكِسائي فِي مَوْقِف آخر، فَقَدْ قال: "مَدَحَنِي رَجُلٌ مِنَ النَّحوِيين، فَقَال لِي: مَا اخْتِلافك إلى الكِسائي وأَنْتَ مِثْله؟ فَأَعْجَبَتْني نَفْسي، فأَتَيْتَه فَنَاظَرْته مُنَاظَرَة الأكْفَاء، فكأنّي كُنْت طَائِرًا يَغْرِف مِنْ البَحر بِمِنْقَاره". [1]

كما قال الفرّاء: "لَمْ يَكُن الخَليلِ يُحْسن النِّداء، وَلاَ كَان سِيبويه يَدْري حَدَّ التّعجّب". [2]

وقد وَصَف الفرَّاء سِيبَويه بالأَلْكَن المتَغَلِّق، الأعْجَم، الّذي لا يَفْصِحُ، حتّى أنّه غادَر مَجْلِسَهُ لهذا السَّبب،[3] لكنْ الْمُفارَقة أنّ ثعْلَب رَوَى يَومًا أنّ الفرّاء ماتَ وتحْت رأْسِه كتابُ سِيبويه، وادّعى عَلى أبِي مُوسى الحامِض أنّه كانَ لا يُفارِقُه لأنّه كان طُول الوَقت يتّبع خَطَأَهُ ولُكْنتَهُ. [4] بَلْ كان شَدِيد العَصبيّة علَى سِيبويه [5]، وقَدْ حضَر المنَاظَرَة المشْهُورة الّتي جَمَعت بيْنه وبيْن الكِسائي، وبَعْض فُصَحاء الأعْراب، كما شَهِد حَادِثَة الزُّنْبُور[*] التي تناقلتها كُتُب التَّراجم والتي حِيكَتْ ضِدَّ سِيبَويه، وتعمّد الكِسائي بِتَوَاطئ مع مَجْلِسِه، تَخْطِئَتَهُ، وبالتّالي رَحَل سيبويه إلى الفُرس ومَاتَ هناك. وقد نقَل الفرّاء مُجْرَيَات المنَاظرة، وأخَذَهَا عَنْهُ "بالرّواية المرزّباني". [6]

وعن أبِي عُبيدة، [**]قال الفرّاء: "لَوْ حُمِل إليّ أبُو عُبَيدة، لضَرَبْته عِشْرِين فِي كِتَاب "المجَاز"" [7]، وقَدْ رَوَى هذا القَوْل تِلميذه سَلَمة، وعن اللّحياني كان يقول بأنّه أحفظ النّاس للنّوادر. [8]

---

[1] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج4، ص1748، وانظر طبقات النحويين للزبيدي، ص 129.

[2] المرجع نفسه، ص ص 1744-1745.

[3] المرجع نفسه، ص 56.

[4] المرجع نفسه، ص 2064، وانظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي، ص 87.

[5] أبو الطيب، اللّغوي. مراتب النحويين، ص 87.

[*] حادثة مشهورة حيث سئل سيبويه، في حضرة أمير المؤمنين والكسائي، والفرّاء وبعض فصحاء الأعراب المتفق معهم مسبقا على تخطئة سيبويه، عن كيفية القول: "فإذا هو هي" أو "فإذا هو إيّاها" في حديثهم عن أيّ الكائنين أشدّ لسعة، العقرب أم الزّنبور.

[6] ياقوت، الحموي. المرجع نفسه، مج4، ص 1745، الزبيدي في طبقاته ص ص: 68-69-70.

[**] صاحب كتاب "المجاز في القرآن"، وقد عاب عليه الفرّاء تفسيره للقرآن فيه، كما كان للأصمعي إعتراضات عليه.

[7] المرجع نفسه، مج6، ص 2707.

[8] محمّد بن الحسن، الزبيدي. طبقات النّحويّين واللّغويين، ص 135.

5- أقوال بعض أهل النّحو واللّغة، وبعض تلاميذه فيه:

وأمّا عن أقوال أهْل العِلم، واللُّغة وبعْض تَلاميذه فيه، فنَذْكُر ما قَاله أبُو العبّاس أحمد بن يحيى ثعلب: "لَوْلاَ الفرّاء، ما كَانَت اللُّغة، لأنّه حصّلها، وضَبَطَها، ولَوْلاَه لسَقطت العربيّة، لأنّها كانت تَتَنازع، ويدّعيها كلّ من أرَاد، ويَتَكلَّم النّاس على مقَادير عُقُولهم وقَرَائحهم، فَتَذْهب". [1] وحكى ثَعْلَب كَذَلِك عن بن نَجْدة قال: لما تصدّى أبو زَكريّا يحْيَ بنَ زيّاد الفرّاء للاتّصال بالمأمون، كانَ يَتَردّد إلى البَابِ، فلمّا كَانَ ذاتَ يَوْمٍ بالبَابِ، جَاءَ ثُمَامَة بنُ الأشْرس، المتكلّم المشهور، وقَالَ: "فرأيْتُ صُورَة أَدِيب، وأُبَّهَة أَدَب، فَجَلَسْتُ إِلَيْه، وفَاتَشْتَه عنِ اللُّغة، فَوَجَدتْه بَحْرًا، وعَنِ النّحو، فشَاهَدَته نَسِيج وَحْدَه، وعَنْ الفِقْه فوجَدَته فَقِيها، عَارفًا باخْتِلاف القَوْم، وفِي النُّجوم ماهرًا، وبالطِبّ خَبيرًا، وبأيّام العَرب، وأخبارِها، وأشْعارها حَاذِقًا، فَقُلتُ: منْ تَكون؟ وما أظنك إلاّ الفرّاء، فقال: أنَا هُوَّ، قال: فَدَخَلتُ، فَأَعْلَمْتُ أَميرَ المؤْمنين بِمَكَانِه، فاسْتَحْضره، وكان سَبَبَ اتصاله به" [2]، وهُنَا ثَعْلب يُخْبِرُنَا عنْ المناسَبة الّتي دخل بها الفرّاء قَصْرَ المأمُون[*]، وأَقَامَ به طويلاً.

أمّا سَلَمة، تِلْميذُه، فقال: "... حَتَّى نَتصَرّف وَنَصِير إلى الفَرّاء، فَيَخْرُجْ إِلَيْنا معبّسًا، قَدْ اشْتَمَل بِكِسَائِه، فيَجلسُ لنا على بابه، ونجلس في التُّراب بيْنَ يَدَيْه، فَيكُون أحْلَى في قُلُوبِنَا مِنَ الأَحْمَر وَجَمِيل فِعْلِهِ" [3]، وسَلمة، هُنَا، يُبيّن لنا تفْضيلهم للفرّاء، رغم وَضَاعة ظُروف الأَخْذِ والتّحصيل عنه، على الأحمر، صاحِب الكِسَائي، الّذي كان يَعِيش في ظُروف أَفْضَل.

---

[1] محمّد بن الحسن، الزّبيدي. طبقات النّحويين واللّغويين، ص 132.

[2] ياقوت، الحموي. معجم الأدباء، مج6، ص 2814.

[*] الخليفة العبّاسي الذي طلب من الفراء أن يؤلف له كتابا في النّحو واللّغة، ووفّر له كلّ الظروف في قصره، فألف كتاب "الحدود" المشهور.

[3] المرجع نفسه، مج4، ص 1672.

وكان الفرّاء متواضعا مع تلاميذه، يَسْمع إليهم، ويتحرّى ما أَتُوا بِهِ، ويعْتَرِف بالزّلل، ويَشْكر لهم جُهْدهم في الاجْتِهاد والتَّصْحيح، [1] ولهذا مَدَحَه تِلْمِيذُه، وراوية كتابه "معاني القرآن"، مُحمّد بن الجُهَم بن هَارُون السّمري، واصفًا مذهبه في النّحو، فقال في أبيات من الشّعر: [2]

أَكثَر النّحو يزْعم الفَرّاء *** مِن وُجوهٍ تأويلُهنّ الجَزَاء

نَحْوَهُ أحْسَن النَّحو فَما فِيـ *** ـهِ مُعيبٌ وَلا بِهِ إزْرَاءُ

لَيس مِنْ صَنْعَة الضّعائف لَكِنْ *** فِيه فِقْه وحِكْمَةٌ وضِياءُ

وأمّا الخليل بن أحمد بن محمد بن الخليل بن موسى، فقد مدحه في بيت من الشّعر فقال: [3]

وَأَجْعَل، فِي النَّحو الكِسَائي عُمْدَتي *** وَمِنْ بَعْدِهِ الفَرَّاءُ مَا عِشْتُ سَرْمَدَا

6- أشهر ما خالف به الفرّاء أهل النّحو واللّغة:

ومِنْ أشْهر ما خَالَفَ بِه أهْل النّحو واللّغة، تِلك المسائل الّتي خَالَف بِها الكِسَائي، أُسْتَاذه، وسِيبويه، والخليل فأمّا الكسائي فكَان يُخالِفه في كَثير منْ مَذَاهِب الكُوفيين، وأمّا مخالفَتهُ لسِيبويه، فإنّه يَتعمَّد خِلافه، حتّى في أَلْقَاب الإعْرَابِ، وتَسْمِيّة الحُروف. [4]

ومن أمْثلة مَا خَالف الفرّاء الكِسائي وَسِيبويه فيه، مَسْأَلة عَمَل العربيّة والنّحو علَى كَلاَم العَربْ، حيثُ قالَ: كلّ مسْألة يُوافق إعْرَابِها مَعْنَاهَا، ومَعْنَاها إعرابها فهو صحيح، وإنّما لَحِقَ سِيبويه الغَلَط لأنّه حَمَل كَلاَمَ العَرب عَلَى المعَانِي وخَلَّى عن الأَلْفَاظ... أمّا الكِسَائي فقد سَلَكَ بعض ما سَلَكه سِيبويه، فحَمَل العربيّة عَلى المعَانِي وتَرَك

(1) ياقوت، الحموي. معجم الأدباء، مج3، ص 855.
(2) المرجع نفسه، مج6، ص ص 2478-2479.
(3) المرجع نفسه، مج3، ص 1273.
(4) أبو الطيب، اللغوي. مراتب النحويين، ص 87.

الأَلْفاظ، والفرّاء بِمخالفته لَهُما يكون قَدْ حَمَل العرَبيّة على المعاني والألْفاظ معًا، فبرَع وهو، حَسْب الزّبيدي، يَسْتحِق التَّقدمِة عليهما. [1]

أمّا الخليل، فقد خالفه في ماهية "كِلاَ"، حيْثُ كانَ يُحِسُّها هذا الأخِير اسْمًا، في حِين، الفرّاء يراها تَتَوسّط بَيْن الأسْمَاء والأفْعَال، فهي لَيْسَت بِاسْم، لأنّها حَشْو في الكلام، ولا تَنْفرِد كما يَنْفَرِد الاسْم، وهي تُشْبه الفِعْل لتغيُّرها فِي المكنّى (المضمر)، والظّاهر. [2]

وكان الفرّاء قد صحّف[*] في بيت الحجّاج،[**] التّالي:

حتّى إذا أشْرف في جَوْف حبا، والصّحيح:

في جوف جَبَا [3]. أي أنّ الفرّاء قد صحّف في جَعْل الجيم حاء. كما أنّ الفرّاء قال بأنّ المفضّل قد صَحّف حين قال:

كلّ النساء يتيّم، وإنّما أصْلُها: يئيمٌ في البيت التّالي: [4]

أفَاطِمَ إنّي هالكٌ فتبّيني *** ولا تَجْزعي كلّ النّساء يئيمُ[***]

ومِنْ طَرائفه مَع هَارون الرّشيد أنّه كَانَ قَدْ كَثُر لَحْنه في حَضْرة الخَليفة الرّشيد، ولما سَأَله عنْ ذلك، ردّ اللّحن إلى كوْنه طَبْعَ أهْل الحَضر، فاسْتَحْسَن الخليفة جَوابه. [5]

---

[1] محمد بن الحسن، الزّبيدي، طبقات النّحويين واللّغويين، ص 131.

[2] المرجع نفسه، ص 133.

[*] صحّف من التصحيف، أي أخطأ في نقط الحرف، فتغيرت الكلمة ومعناها،

[**] صحّف من التصحيف، أي أخطأ في نقط الحرف، فتغيرت الكلمة ومعناها،

[3] المرجع نفسه، ص 131.

[4] المرجع نفسه، ص193.

[***] يقال آمت المرأة، إذا مات زوجها، أو قُتِل، وأقامت لا تتزوج.

[5] المرجع نفسه، ص 131.

7- وفاته:

وأجمع المترجمون أنّه توفي بطريق مكّة سنة 207 هـ عن عمر 63 سنة،[*] وقد قال سلمة بن عاصم، تلميذه، بأنه مرض في أواخر حياته، وكان قد دخل عليه يومًا، فوجده قد زال عقله، وهو يقول: إنْ نصبًا فنصبًا وإن رفعًا فرفعًا. [1]

8- مؤلفاته:

أ- من النّثر:

ترك الفرّاء مُؤلفات عديدة أغْلَبها في النّحو، ذَكَر منْها صاحب الفَهْرست 13 مصنّفا، وذَكَر السّيوطي 11 مصنّفا، وذكر ياقوت الحَمَوي 19 مُصَنّفا، وقد أوْرَد مُحقّق كِتاب "معاني القرآن" 17 مصنّفا وهي كالتّالي: [2]

1- آلة الكِتاب.

2- الأيّام واللّيالي.

3- البَهاء، أو البَهيّ.

4- الجَمْع والتّثنية في القرآن.

5- الحدُودُ، وهو في قَواعد العربيّة.

6- حرُوف المعْجمُ.

7- الفَاخِر في الأمثال.

8- فَعَلَ وَأَفْعَل.

9- اللُّغات.

---

[*] ذكر ذلك ابن النديم في الفهرست، ص 67، وياقوت الحموي في معجمه، ص 2814.

[1] جلال الدّين، السّيوطي. بغية الوعاة، ص 333.

[2] يحيى أبو زَكريّا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص ص 10-11.

10- المذَكّر والمؤنّث.

11- المشكِّل الصّغير.

12- المشكِّل الكبير.

13- المصادر في القرآن.

14- معاني القرآن وفيه 3 أجزاء، وهو الذي سنطبّق عليه ما جاء في الباب الأوّل من هذا البحث، في جزئه الأوّل.

15- المقصور والممدود.

16- النّوادر.

17- الوقف والابتداء.

ب- من الشّعر:

أمّا الشّعر، فما نَظَم الفرّاء غير هَذه الأبْيات الثّلاثة، رَواها عنْه تِلميذه سَلَمة بن عاصم، وهي: [1]

لَن تَراني لكَ العُيون بَبابٍ *** لَيسَ مِثْلي يَطِيقُ ذُلّ الحُجّاب

يا أميرًا عَلى جُرَيْبٍ مِنَ الأرْ *** ضِ لَهُ تِسْعَةٌ مِنَ الحُجّابِ

جَالِسًا في الخَرَابِ يُحْجَب فيه *** مَا رَأَيْنَا إمارةً في خَرَابِ

وهو يبدو مخاطبًا لأحَدِ الأُمَراء، مُتَرفِّعا عن ذلّ السُّؤال مستاءً مِنْ حَال الأَمِير المزْرِي الجَالِس في الخَراب.

[1] جلال الدّين، السيوطي. بغية الوعاة، ص 333.

المبحث الثّاني: تقديم كتاب "معاني القرآن"

هو كِتاب بِثلاثة أجْزاء يَحمِل تَفْسِيرًا نحويًّا للقُرآن، ألَّفَه الفرّاء بِناءً على كِتابي "مَعَاني القُرآن" للأخْفَشِ، وكِتَاب فِي "الْمَعَاني" لِلْكِسَائي، [1] أملاه بين سنَتَي 202 هـ و 203 هـ.[*]

وكَان رَاوِيتُه تِلميذُه مُحمّد بن الجُهَم، أمّا سبب تأليفه فقد وَرَد في الرّواية أنّ بن الجُهَم قَالَ: قَالَ أبو العبّاس: "وكان السّبب في إمْلاَء الفرّاء كِتَابَهُ فِي "مَعانِي القُرآن"، وهُوَ كِتَاب لَمْ يُعْمَل قَبْله، ولاَ بَعْده مِثْلُه، ولَمْ يَتَهيّأ لأحَد من النّاس جميعا، أن يزيد عليه شيئا، أنّ عُمَر بنْ بَكير[**]، وَهُو من أصْحابه، وكان مع الحسَن بنَ سَهلٍ[***]، فكتب إليه: إنّ الأمير الحسَنَ لاَ يَزَال يسْألني عن أشْياء مِنَ القرآن لا يَحْضُرُني جوابُ عنها، فإنْ رَأَيْت أنْ تَجْمع لِي أُصُولا، أو تَجْعَل في ذلك كِتابًا، نَرْجع إليه فَعَلْتَ. فلمّا قَرَأَ الفَرّاء الكِتاب[****]، قَالَ لأصحابه: اجتمعوا حتى أملَّ عليكم كتابًا في القرآن، وجعل لهم يومًا، وكان من القرّاء، فقال له: اقرأ، فبدأ بفاتحة الكتاب، ففسّرها، ثمّ مرّ في الكتاب كلّه، على ذلك، يقرأ الرجل، ويفسّر الفرّاء، وكتابه في القرآن نحو من ألفِ ورقة". [2]

---

[1] ياقوت، الحموي. معجم الأدباء. مج3، ص 1375.

[*] هكذا أتّفقت معظم كتب التّراجم والطّبقات.

[**]هو عمر بن بكير، ذكره السّيوطي، فقال بأنه صاحب الحسن بن سهل، وذكر الحموي بأنّه نحوي، أخباريٌّ، راوية، وناسب، عمل له الفرّاء كتابه معاني القرآن، ذكر ذلك ياقوت في معجمه ص 2064.

[***]هو أبو محمد الحسن بن سهل، وزير الخليفة المأمون بعد أخيه الفضل.

[****]يُقصد بـ"الكتاب" رسالة عُمَر بن بكير إلى الفرّاء.

[2] ابن النديم. الفهرست، ص 66.

ثالثا: الجزء الأوّل من" معاني القُرآن" بَيْن ظاهر العنوان و حقيقة المُحتوى:

يُعْتبر عُنوان الكِتاب مكوِّنًا هَامًّا لأيّ كِتاب، لِمَا يُقدّمه مِنْ فِكْرِة عَنْ مُحْتَواه، و"مَعاني القرآن" بِصِفَتِه عُنْوانًا يُقدّم لَنَا مُؤشِّرًا عنْ دَلاَلة القُرآن وَمَعَاني آيَاتِه ظَاهِريًّا، فَهلْ هَذَا هُو كُلّ مُحْتواه أمْ أنّه يَحْمِل بيْن دفّتَيه مَبَاحِثٌ أُخْرى تَنَاوَلها الفَرّاء أثْنَاء تَفْسِيره لِكِتَاب الله.

بَعْد قِراءة الجُزْء الأوّل مِنْ "مَعانِي القرآني"، وتسجيل كلّ فِكْرة بَدَت بَعِيدَة عنْ عَمليّة التّفْسِير المبَاشَر والشّرح المعْجَمي لآيَات، وكَلمات كِتاب الله ثمّ التّوصّل إلى أنّ الفرّاء كان قد ناقش مَبَاحِث مُخْتَلفة في العربيّة.

إنّ أوّل ما نُصَادِفه في هذَا الجزء هُو اهْتِمام الفرّاء باللّهجات، في سورة الفاتحة في الآية ﴿**الحَمْدُ لله**﴾ [1]، حيْث أَقرّ أنّ أَهْلَ البَدو يَخْتَلِفون فِي نُطقها [2]، فَمِنْهم من يَنْصُب الحمدَ، ومِنْهُم من يَكْسِرها، ومِنْهم من يَرْفَعُها ويَرْفَع لاَم لله بَدَل كَسْرِها. وقدْ اهْتمّ الفرّاء باللّهجات والفَوارق اللّهجية لِمُخْتَلَف العرب الّذين صادَفهم عبْر سُوَرِ، الجُزْء الأوّل العَشْر (الفاتحة، البقرة، آل عِمران، النّساء، المائدة، الأنْعام، الأعْراف، الأنْفال، التّوبة، يُونس)، وسَنُفصّل في ذلك، في فصل الردّ عن مَزَاعِمِ المسْتَشْرِقِين بخصوص اعْتِماد النُّحاة القُدامى للُّغة الأدبيّة، وإهمال لُغة التّخاطب اليومي، واللّهجات.

أمّا ثاني مَبْحث يُصَادِفُنا في هذا الجُزء مِن "مَعَانِي القُرآن" هو تطرّقه لِمُخْتَلِف مبَاحِث علْم الصّرف كالحَديث عَنِ التّخفيف والتّشديد في الأفْعال، وبيان الفَرْق في المعنى الّذي يُحْدِثَانه، والأمثلة عن ذلك كثيرة، نختار منها قوله تعالى: ﴿... **فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**...﴾ [3]، حيْث جَاء الفعل مُشَدّدًا لأنّه وقع من الجَمْعِ، لكنْ، إذا جاءَ مع المفْرَد، فَفِيه وَجْهَان: التّشدِيد إذَا كَانَ هذا الفعل يَتردّد في الواحد (المفْرَد) وَيَكْثُر، أَوْ التّخفيف، مثل قولك: مرَرْت

---

[1] سورة الفاتحة: الآية 02.

[2] يحي أبو زكريا، الفرّاء. معاني القرآن. ج1، ص 3.

[3] سورة النساء : الآية 78.

بثَوْبٍ مُمَزّق، لكن عدم تردّد الفعل في المفْرَد وعدَم كثْرَته لاَ يَجُوِّزُ التّشْدِيد بَلْ نَكْتَفِي بالتَّخْفِيف، نَحْو: مَرَرْت بِكَبْش مَذْبُوحٍ ولَيْسَ مُذَبَّحٍ، فِي حِين يَجُوز مَعَ الجَمْع: مَرَرْت بِكُبَش مُذَبّحةٍ. [1]

كما يمكن أن نُصادف مبَاحِثًا في الدّلالة كالّتي تتعلّق بتَعَدّد الْمَعنَى على سَبِيل المِثَال، ومِثَالُ ذَلِك ما جَاء في قَوْلِه تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ**﴾ [2]، فيَذْكُر الْمَعنَى الأوّل (لأحسَّ) وَهُوَ (وجَدَ)، أيْ لما وَجَدَ عِيسَى مِنْهُم الكُفْر، أَمّا المعْنَى الثّاني فَهُو: الإفْناءَ والقَتْل، وَذَلِك عِنْدَ قَوْلك: حسَسْتُ مِن دُون أَلِفْ، ومنه يُحِسُّونه والحِسُّ كذلك العَطْفُ، والرِّقة كَمَعْنى ثَالثٍ. [3] وهذه الطّريقة الّتي يُتْبِعُها الفرّاء في توليد الدّلالات يَعْتَمِد عَلَيْها عِلْمْ المعَاجِم الحَدِيث كآليَّة في الشّرح و الصِّناعة المعجميّة.

وكذلك تطرّق الفرّاء لِمَا أَسْمَاه بِوُجُوهِ العربيّة في أكثر منْ مرّة على مَدَار السُّور العشر، والمقصود بِوُجُوه العربيّة طرق نُطْق كَلِمَة مَا رَفْعًا، أوْ نَصْبًا أوْ خَفْضًا، وتفسير سَبَبَ كلّ حرَكة. ومِثَال ذَلِك، مَا جَاء فِي قَوْله تعالى: ﴿...**وَاللَّهِ رَبِّنَا**...﴾ [4]، حيْث يَرَى الفرّاء أنّها تُقْرَأ خَفْضًا وَنَصْبًا، فَمَنْ خَفَضَ جَعَل الله مَحْلُوفا بِه، ومن نَصَب جَعلَ "ربّنَا" مُنَادَى حُذِفَت قَبْلَه أدَاة النِّداء "يَا". [5]

وَلَمْ يُغْفَلِ الفَرّاء مَبْحَثَ مَعَانِي الحُرُوف ومَالَهُ مِنْ تَأْثِير فِي تَفْسِير آيّ القُرآن، ومِثَال ذَلِك، مَا أَوْرَده الفرّاء في مَعاني "أنّ"، حيْثُ يَرَى أنّه فِي قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى**﴾ [6]، تَأْخُذ مَعْنَى اللاَّم، ويُصْبِح

[1] يحي أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 277.
[2] سورة آل عمران: الآية 52.
[3] المرجع نفسه، ص ص 316-317.
[4] سورة الأنعام: الآية 23.
[5] المرجع نفسه، ص 330.
[6] سورة يونس: الآية 37.

التّركيب: مَا كَان هَذَا القُرآن ليُفْتَرى، والأَمْر عَكْسِيّ إذَا أَرَدْتَ أنْ تُبْدِل اللاَّم بِأَنْ: فِي نَحْوِ: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً**﴾ [1]، أَيْ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُم أنْ يَنْفِرُوا، لِأنّهم كَانُوا قَدْ نَفَرُوا كَأَفة. [2]

كَمَا لَمْ يُغْفِل الفرّاء عِلْم المعَانِي، فَأَوْرَدَ كَثِيرًا مِنَ الأسَالِيب الإنْشَائيّة في العربيّة وبيّن غَرَضَها، ومِثالُ ذلك أُسْلوب التّعجب على معنى الجُحْدِ أيْ "النّفي[*] في نَحْو مَا جَاء فِي قوله تعالى: ﴿**كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ**﴾ [3]، فَهَذا تَعجُّب واضِحٌ لكنّه مُتضمّن لمعْنَى الجُحْدِ، حيْث المقْصُودَ هُنَا هُوَ لاَ يَنْبَغِي لِلْمُشْركين أنْ يَكُونَ لهَمُ عَهْدٌ عنْدَ الله.[4]

إلاَّ أنَّ أَكْبَر المبَاحِث اللّغوية تَنَاوُلاً فِي هذا الجُزء منَ الكتَاب هُوَ النّحْوُ، حيْث أفْرَدَ موَاضع لإعْراب بعضِ الآيات، ومواضع لتِبْيَان مُخْتَلف الوُجُوه الإعْرَابيَّة لبَعْضِها الآخر، ومَواضِع، وهي الأكثر تَوَاجُدًا، للتّقعيد للّغة العربيّة، أيْ أهمّ المسَائل النّحوية التي كان لها الأصْل فِي تِبْيَان المعَاني القُرآنية للآيات، وهذَا مَا يُطلَقُ علَيْه بمِعَانِي النَّحْو، ولَيْسَ إعراب بعض الآيات وَلاَ مُخْتَلف الأوْجَه الإعْرابية بالأَمْر المهِمّ فِي جُزْئِنا التَّطْبِيقي، بَلْ إنّ مُخْتَلف المسَائِل النّحوية والشّواهد الّتي اخْتارها صاحِب الكِتاب في الجُزء الأوّل هي مَا نُرَكّز على تَوْضِحِيهَا، ومُحَاولَة التّمثيل لَهَا مِنَ الكتاب، في الفصْل الأوّل منْ هذا الباب، منْ خِلال مبْحث مصادر السّماع/الشّاهد. ومبْحث طُرق جَمْع المادّة اللّغوية.

---

[1] سورة التوبة: الآية 122.

[2] يحيى أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 464.

[*] الجُحْد عند الكُوفِيين، مُصْطَلَحٌ يُقَابِله النَّفْي عِنْد البَصْرِيين.

[3] سورة التوبة: الآية 07.

[4] المرجع نفسه، ص 423.

الفصل الأوّل: المسموع والشّاهد في "معاني القرآن" للفرّاء

تمهيد

المبحث الأوّل: أقسام السّماع

المطلب الأوّل:السّماع عن طريق المشافهة المباشرة

المطلب الثّاني: السّماع عن طريق الرّواية

المبحث الثّاني: مصادر المسموع/الشّاهد في الجزء الأوّل من "معاني القرآن"

المطلب الأوّل: القرآن الكريم وقراءاته

المطلب الثّاني: الحديث الشّريف

المطلب الثّالث: كلام العرب

أوّلا: الشّواهد الشّعرية

ثانيّا: الشّواهد النّثرية

تمهيد:

لقد تمّ تَقْدِيم المسْمُوع في الفصْل الأوّل مِنَ البَاب الأوَّل، وتَمَّ ذِكْرُ مَصَادِره وطُرُق جَمْعِه، وكذلك تَمّ ذِكْر العَرب المسْموع عَنْهم، وتَحْدِيد الجُغْرافيا (المكَانِيَّة) الخاصّة بِالفَصَاحة، كَمَا تَمَّ تَقْدِيم الشَّاهِد فِي الفَصْل الثَّاني وذُكِرت العلاقة بين المسْمُوع والشَّاهد، حيْث وَصَلنا إلى أنَّها عَلاقة الكُلِّ بِالجُزْءِ، لِذلك عِنْد حَدِيثِنا عَنْ مصَادِر المسْمُوع فِي هَذَا الفَصْل سَنَكْتفي بِذِكْر شواهد محْدُودة منَ الكتاب، تُمثِّل جُزْءًا بَسيطا منْ مَسْمُوع الفَرّاء، قبل تَأْلِيفه للكتاب، وكذلك تمّ ذِكْر طُرق جمع المسْمُوع، فبيّنا أنَّ النُّحاة الأوَائِل، اعْتَمدوا على الخَرجات الميْدانية المباشرة، وجمَعُوا اللُّغة من أفواه المتحدّثين بها، في بيئاتهم الطّبيعية، كما اعْتَمَدوا على مرويّات الرُّواة المؤْثُوقين، المحْفُوظة في صُدُورِهم، والّتي قد تَعُود إلى العَصْر الجَاهِلي كَأَبْعد تَقْدِير، لذلك، قُمْنَا بعَرْضِ بعض ما يُثْبِتُ صِحّة ذلك في الجُزْء الأوّل، مِنْ هذا الكِتَاب، على سبيل التّمثيل لا الحصْر، فِي الفَصْل الأوّل مِن هذا البَاب، وبيّنا طُرق جَمْع الفَرّاء لمسْمُوعِه، من خلال كَلِمات، وعِبارات وظَّفَها في كتابه، كما ذكَرْنَا بَعْض العَرب المسْمُوع عَنهم الّذين ذَكَرهم الفَرّاء، بأمّ لسانه في كِتابه، وبعض القبائل الّتِي تَنْتَمِي إلى جُغْرافْيا الفصاحة الّتي حَدّدَها النُّحاة الأوائل، ومنهُ، صادفْنَا الكَثير منَ الشّواهد الشّعرية الّتي تُبيّن لنا الحدود الزّمانيّة والمكانيّة لمسْمُوعِه.

وأمّا في الفَصْل الثّالث، مِن البَاب الأوّل، فعَرَضْنَا أَهمّ النّقاط الّتي رَأَيْناهَا حجة تَرُدُّ مزاعِم المستشرقين بِخُصوص قُصُور الدّرس النّحوي العربي، حيث اتّهم المسْتشرقين النُّحاة الأوائل، باعْتِماد اللُّغة الأدبيّة، لُغة القُرآن والشِّعْر، مهملين في ذلك اللّهجات العربيّة، وتجَاهل لُغة التَّخاطب اليوميّ والمسْتَوى اللَّهْجي، كَمَا اتَّهَمُوهم بالاعْتِماد على الرّواية، والنّصوص الشّفاهية الّتي تَفْتَقِر إلى معايير الدّقة، والعلميّة، كمَا اعْتَمَدُوا على روّاة ليْسُوا أهْلاً لجَمْع مَادَّة تُوفّر اللُّغة السّليمة والقَابلة للاسْتِقْراء، وأبعد من ذلك، اعْتَبَروا اسْتِقْراء النُّحاة للمسْمُوع، اسْتِقْراء ناقصًا، عَقِيمًا، لا يَكَاد يَعْدُو أَنْ يَكون اسْتِقْراء أرسطو، غَيْر الشّامل لكلّ المسْمُوع، وهكذا فقواعِد العربيّة الّتي توصّلوا إليها، تَبْقى قاصرة ولا تُغَطي كلّ العربيّة. ولأجل هذا تمّ الرّد، في هذا الفصل من هذا البَاب، على مَزاعم

المسْتشرقين منْ خِلال مضْمون الجُزء الأوّل منْ "معاني القرآن"، ردًّا يتحرّى العِلميّة منْ خلال الإحصاء والتّمثيل مِنَ الكِتاب مُبَاشرة.

وهكذا باتَ واضحًا أنّ هذا البَاب يَنْقسم إلى فَصْلين، فأمّا الأوّل فيخصّ مصادر المسْموع، وطُرقه والعَرب المسْمُوع عَنهم (أفْرَادًا وقبائِلاً)، كمَا أَشَرْنا إلى مَدَى احْتِرَام الحُدود الزّمكانية الّتي رَسَمَها النُّحاة الأوائل منْ طَرف الفرّاء في هذا الجُزء مِنَ الكِتَاب، وطَبْعًا عَمَدْنا إلى تَعْزيز كُلّ مَا وَصَلْنا إليه منْ أحكام بأَمْثِلة تَوضِيحيّة منْ شَواهد هذا الجُزء، وأمَّا الفصل الثّاني فكان للردّ على مزاعم المسْتشرقين، وذلك باقتفاء كلّ ما يُفنّد تُهَمَهم فِي هَذا الجُزء من الكتاب، وعَمَدْنا إلى الإحْصَاء، والتَّصْنيف، والتَّمْثيل، والتَّحْليل، قَدْرَ مَا أَمْكن، لِتَكون الأحْكام الصّادرة في حقّهم عِلْمِيّة حِيَادِيّة لاَ علاقة لها بالتعصّب للعربية ولاَ لِجُهود العَرب.

المبحث الأوّل: أقسام السّماع

المطلب الأوّل: السّماع عن طريق المشافهة المباشرة

كان الفرّاء تِلْمِيذَ الكِسائي، أَحَد مُؤَسّسي مدرسة الكُوفة كمَا رأينا في القِسم النظري، من هذا البحث، لِهذا، فقد حَذَا حَذْوه في عمليّة جَمع المادّة اللّغوية، فجال الأمْصار، وخالط الأعْراب، وشافه الفُصحاء في بيئاتهم الطّبيعيّة، والجُزء الأوّل مِنْ مَعاني القرآن حافل بالدّلائل على ذَلك، ومِثَالُ ذَلِك قول الفرّاء:

أ- سمِعْت بعْضَ العربَ يَقُول: ما رَأَيْتُ عُقَيْليًّا إلا حسَسْتُ لهُ، وحَسِسْتُ لُغة، وهُنَا يَقْصِد لَهْجَةً بِكَسر السّين.[1]

ب- وسَمِعتُ كثيرًا من بَنِي أسَدٍ يُسمّي المغَافِير[*]، المغَاثِير. [2]

---

[1] يحي أبو زكريا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص 217.

[*] ضمغ يخرج من شجر الرّمث، حلو المذاق، يؤكل رغم أن رائحته ليست طيبة.

[2] المرجع نفسه، ص 41.

ج- سَمِعْنَا العَرَب منْ أهْل هذه اللّغة يقُولون: فَوِّموا لَنَا بالتَّشديد، بِمْعنى اختبروا لَنا. [1]

د- سَمعتُ أبَا ثَرْوان[*] يَقُول لرَجل: بِعْ لي تمرًا بِدِرْهم، يُرِيدُ اشتَري لِي تَمرًا. [2]

هـ- سَمِعْتُ العَرب تَقُول في "نِعمَ المكْتَفِيّة بما: بِئْسَمَا تزويجٌ ولاَ مَهْرُ، حيث يَرْفَعُون التَّزْويجَ بـ "بِئْسَمَا". [3]

و- قال الفرّاء: سَمِعْتُ بعض العرب يقول: كان مرّةً وهُو يَنْفَع النّاسَ أحْسَابُهم. [4]

ز- وسَمِعْت بعض بنِي الحَارث يقول: كان به جَرَب فَنَشَر، أيْ عَادَ وَحَيَ. [5]

وكثيرا ما تردّدت عبارة سَمِعْتُ العرب أو سَمِعْت بَعْضَ العرَب في هذا الجُزء من الكِتاب، وهذه دَلالة قاطعة على أنّ الفرّاء قد خَرج إلى ميْدان التّحري، وجَمع مادّة كتابه مُباشرة منْ أفواه العرب، ويمكن أنْ نُضِيف إلى مَا سَمِعَه منْ عامّة العرب مُباشرة، مَا نَقَلَهُ عن أُسْتَاذِه الكِسائي مُباشرة، فهُو سَمَاع مُبَاشر من تِلميذ عنْ أسْتاذه الّذي يُعَدّ مُؤسّسا للمذهب الكوفي، والأمثلة كثيرة عن هذا السّماع نختار منها:

أ- كان الكِسائي يقول: "ما" و"اشتروا" بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه والتّقدير: بِئس اشتراؤهم أنْ يكفروا، كما يعارض الفرّاء ما ذهب إليه أستاذه فيقول: وقد أجاز الكِسائِي هذا المذهب، وأنا لا أجيزه. [6]

---

[1] يحيى أبو زكريا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص41.

[*] أعرابي فصيح تم تقديمه فيما تقدم من البحث.

[2] المرجع نفسه، ص 56.

[3] المرجع نفسه، ص 58.

[4] المرجع نفسه، ص 51.

[5] المرجع نفسه، ص 173.

[6] المرجع نفسه، ص 56.

ب- وأنشدني(*) الكِسائي. [1]

إنّي سأُبدي لك فيما أُبدي *** لي شَجَنان شجنٌ بَنجْدٍ

وشجنٌ لي ببلاد السِّند

جـ- وكان الكِسائي يقول: جعلته – يعني النعت- تابعا للاِسم المضْمر في الفعل، والفرّاء يعارض أستاذه كذلك في هذه المسألة، فيقول: وهو خطأ وليْس بِجائز. [2]

والفرّاء، بِنقله المباشر لأقوال أستاذه الكِسائي، يوازي سيبويه في نقله المباشر لأقوال أستاذه الخليل عبر "الكتاب" الذي يُمثل المذهب البصْري في النّحو العربي، هذه الموازاة تجعل منه إمام النّحو الكوفي فِعْلا، ومُرْسي دعائمه.

المطلب الثاني: السّماع عن طريق الرّواية

رغم أنّ الفرّاء كان قد خرج إلى ميدان التّحريات اللّغوية، وجمَع مباشرة من أفْواه العرب الفُصحاء ما تيّسر من كلامهم، فإنه لم يُغفل ما يحفظه الرّواة، والأعراب والنّحويّون في صدورهم من أشعار العرب، وأقوالهم المأْثورة و قد زخر الجزء الأوّل، من هذا الكتاب، بمروياته نذكر منها:

أوّلا: ما رواه عن الأعْراب الفُصحاء وبعض الرّواة

1-وقال الأعمش:(**) وسُئل عنها فقال: هي مصرُ الّتي عليها صالح بن علي(***). [1]

(*) الكسائي نحوي، قال الشّعر أيضا.

[1] يحي أبو زَكريّا، الفرّاء، معاني القرآن، ص 80.

[2] المرجع نفسه، ص 471.

(**) أعرابي من الفصحاء الموثوقين.

(***) هو بن العباس، أوّل من ولى مصر سنة 133 هـ، ت 154 هـ.

2- أنشدني أبو ثروان:

قال الجواري ما ذَهَبْتَ مذهَبا *** وعْبَنني ولم أكُن معيَّبا [2]

3- وأنشدني القاسم بن معنٍ [*] عن العرب [3]

حلفت لهُ إنْ تُدْلجِ اللّيل لا ينزلْ *** أمامك بيتٌ من بيوتي سائر

4- أنشدني أبو الجرّاح: [4]

أزجْرًا تريدُ أم قريضًا *** أم هكذا بينهما تعريضًا

5- أنشدني المفضّل، ويقصد به المفضّل الضبّي. [5]

حسِبت بُغام راحلتي عَناقًا وما هي وَيْب غيْرِك بالعَناق

ثانيًا: ما رواه عن العرب عموما

1- وقد أنشدني بعض العرب: [6]

يا رُبّ يومٍ لو تَنَزاهُ حول *** ألْفَيْتني ذا عنزٍ وذا طولِ

---

[1] يحي أبو زكريّا، الفرّاء، معاني القرآن، ص 43.

[2] المرجع نفسه، ص 4.

[*] قاضي الكوفة من ذرية عبد الله بن مسعود، ت 175.

[3] المرجع نفسه، ص 68.

[4] المرجع نفسه، ص 140.

[5] المرجع نفسه، ص 61.

[6] المرجع نفسه، ص 31.

2- أنشدني بعض العرب: [1]

إذَا ما انْتَسبْنا لمْ تلِدْني لئيمةٌ *** ولمْ تَجِدِي مِن أنْ تُقِرِّي بها بُدًّا

3- أنشدني بعضهم: هذه العبارة تتكرر في الكتاب بشكل كبير، نذكر مثلا الصفحات: 91، 99، 106، 128، ...

ثالثا: ما رواه عن قبائل عربية بعينها

خرج الفرّاء إلى قبائل العرب، وجاب شرق الجزيرة العربية وغربها وشمالها وجنوبها، ودليل ذلك أسماء القبائل الّتي ذَكرها في هذا الجزء من الكتاب عند سرده لمرويّاته، نذكر منها:

1- أنشدني بعض بنِي عامر. [2]

2- أنشدني بعض بنِي فَقْعس. [3]

3- أنشدني بعض بنِي عبْس. [4]

4- أنشدني بعض بنِي عُقيل. [5]

5- وأنشدني بعض بنِي أسَد. [6]

6- وأنشدني بعض بنِي رَبيعة. [7]

---

[1] يحي أبو زكريّا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص 61.
[2] المرجع نفسه، ص 170.
[3] المرجع نفسه، ص 171.
[4] المرجع نفسه، ص 169.
[5] المرجع نفسه، ص 40.
[6] المرجع نفسه، ص 14.
[7] المرجع نفسه، ص 56.

7- وأنشدني بعض بنِي كِلاب. [1]

رابعاً: ما رواه عن النّحاة من المذهبين[*]

أكثر الفرّاء من الرّواية عن النّحاة خاصة أستاذه الكِسائي الّذي جال في شبه الجزيرة العربية، وسمع من العرب مباشرة، كما ذكر بعض ما سمعه من نحاة البصرة أمثال يونس بن حبيب، لذلك نذكر:

1- قال: وأنشدني يونس عن العرب قول الأعشى: [2]

إلى رجلٍ منهم أسِيفٍ كأنّما *** يضمّ إلى كَشْحَيْه كفّا مُخضّبَا

2- زَعم الكِسائي أنّ العرب تستحبّ نصْب الياء عند كلّ ألِفٍ مهموزة سوى الألف واللاّم. [3]

3- فزَعم الكِسائي أنّه سمِع العرب تقول: سِرنَا حتى تطلعُ لنا الشّمس بزُبالة.[**] [4]

4- وحكى الكِسائي عن بعض العرب: الشَّنَقُ ما خمسًا إلى خمسٍ وعشرين، يُريد ما بيْن هذين العددين.[5]

5- قال الكِسائي: سمِعت أعرابيا ورأى الهِلال فقال: الحمد لله، ما إهْلالُك إلى سَرارك، يُريد ما بيْن إهلالِك إلى سَرارِك. [6]

وهكذا يتبيّن لنا أنّ الفرّاء اعتمَد المسْموع بقِسمَيه، القِسم الأول، عن طريق مُشافهة العرب الأقحاح، بالخروج إليهم في بيئاتهم السّليقية، وهذا منطقي، لأنه ينتمي إلى زمن الاِحتجاج (ت 207 هـ)، وعايَش فُصحاء

---

[1] يحيى أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 42.

[*] الكوفي والبصري.

[2] المرجع نفسه، ص 127.

[3] المرجع نفسه، ص 28.

[**] الشَّنَقُ: ما لم تجب فيه الفريضة من الإبل.

[4] المرجع نفسه، ص 134.

[5] المرجع نفسه، ص 23.

[6] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

العرب، والتقى بهم في الحواضر والبوادي، كما اعتمَد على الرّواية، في نَقْله لكلام العرب، وهذا منْطقي كذلك، لأنّه عايَش عمليّة جمْع اللّغة، وشهِد نشاط الرّواة وحركة الرّواية العربية زمانا ومكانا.

المبحث الثّاني: مصادر المسموع/الشّاهد في الجزء الأوّل من "معاني القرآن "

لقد تمّ، في مبحث سابق، التّفصيل في العلاقة بين المسْموع والشّاهد، وتوصّلنا إلى أنّ الشّاهد هو عيِّنة من مُجْمَل المسْموع، يلْجأ إليها النّحوي لإثْبات ما يَذْهب إليه منْ آراء نحويّة، وبذلك سنعتَمد على شواهد الجزء الأوّل من الكتاب، من أجل رصْد مصادر المسْموع عند الفرّاء، حيث، وبَعْد تصفُّحنا للجزء الأول من "**معاني القرآن**" للفرّاء، تم التّوصّل إلى أنّه اِعتمد في اِستشهاده على ثلاثة مصادر هي:

المطلب الأوّل: القرآن الكريم وقراءاته

إنّ التصفُّح الدّقيق والمسْح الشّامل للظّواهر اللّذان يقوم عليهما المنهج الوصفي، للجزء الأوّل من "**معاني القرآن**" مكّننا من التوصّل إلى أنّ الفرّاء، من خلال تفسيره لكتاب الله، تمكّن من توضيح قواعد كثيرة تقوم عليها اللّغة العربية، فقدّم شُروحا وتفْسيرات كثيرة لمخْتلف المسائل النَّحوية، ودعّم آراءه بعرض مخْتلف الوجوه الإعرابية للكلمات وما لهَا من تأثير في توجيه المعنى العام للآيات، وكان اعتماده على النّص القرآني اِعتمادا كبيرا، في إثبات ما يذهب إليه من آراء نحويّة، وذلك لأنه يرى أنّ الكتاب أعْرب وأقْوى في الحُجّة من الشّعر. [1]

[1] يحي أبو زكريا، الفرّاء، معاني القرآن، ج1، ص 14.

أوّلا: أمثلة الإستشهاد بالقرآن

1- الرّفع بالإضْمار:

في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ**﴾ [1]، حيث يرى الفرّاء أنّ "أمواتٌ" جاءت مرفوعة لأنّ أصْلهَا: "هُمْ أمواتٌ، بل هُمْ أحياءٌ"، ومنهُ لا يجوز في "أموات" النّصب لأنّ القول لا يقع على الأسماء إنْ أُضمرت وُصوفها أوْ أُظهرت، وإنّما يجوز النّصب فيما قبله القول، إذا كان الإسم في معنى قولٍ، ومن ذلك: قلتَ خيرًا، وقلتَ شرًّا، فترى الخير، والشرّ منصوبين لأنهما قولٌ، فكأنك قلت كلامًا حسنًا أو قبيحًا، كما أنك تقول: قلت لك خيرًا، وقلت لك خيرٌ، فنُصِبَ خير لأنه بمعنى: قلت لك كلامًا، أما إذا رفعته فليس بقول إنما هو بمعنى: قلت لك مالٌ،[2] فالفرّاء هنا يفسّر سبب الرّفع وسبب عدم جواز النَّصب، ثمّ يشرح حالة إمكانية النّصب، ويستشهد بالقرآن فيقول قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾ [3]، الّتي هي عبارة عن إخبار فيه إسم مُضمر: سيقولون هُمْ ثلاثةٌ. [4]

2- نصب واو العطف الّتي أدخلت عليها ألف استفهام:

جاء في قوله تعالى: ﴿**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ**﴾. [5]

يرى الفرّاء أنّ هذه الواو في العربية تُنصب لأنّها واو عَطف أُدْخِلت عليها ألف الإستفهام وليست بـ (أَوْ) الّتي واوهَا ساكنة، لأنّ الألف من أَوْ لا يجوز إسقاطها وألف الإستفهام تَسْقُط، فتقول: وَلو كان، أوَلو كانَ إذا أردت الإستفهام. [1]

---

[1] سورة البقرة: الآية 154.

[2] يحي أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 92.

[3] سورة الكهف: الآية 23.

[4] المرجع نفسه، ص 94.

[5] سورة البقرة: الآية 170.

ويستشهد بصحّة هذه المسألة بقوله تعالى:﴿**أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ**﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا**﴾[3]

3- وجها إنّما:

جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ**﴾ [4].

يرى الفرّاء أنّ "إنّما" في العربية لها وجهان، الأوّل أنْ تَكون حرفًا واحدًا، ثمّ تَعْمل الأفعال الّتي بعدها في الأسماء، فإنْ كانت رَافعةً رَفَعت، وإنْ كانت ناصِبة نصبت ومثل ذلك: إنّما دخلتَ دارَك، وإنّمَا أَعْجَبَتْني دَارُكَ، وإنّما مالي مَالُكَ، والوجه الثّاني أنْ تَجعل "مَا" مُنْفصلة مِنْ "إنّ" فتكون (ما) على معنى "الّذي"، فإذا كانت كذلك وصَلْتَهَا بما يُوصل به الّذي، ثمّ يُرْفع الاِسْم الّذي يأتي بعد الصّلة، كقولك: إنّ مَا أَخَذْت مالُك، ومعناها: إنّ الّذي أخذتَ مَالُك.[5]

لكن الفرّاء يَقُول أنّ هذا الوجه في التّنزيل في غير ما مَوْضِع ويستشهد فيذكر قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾[6]، وقوله: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ**﴾ [7]، و"إنّما" في هذين الشّاهدين كلِمةً واحِدةً لأنّ "الّذي" لا تَحْسُنُ في موضع "مَا".

---

[1] يحيى أبو زكريا، الفرّاء. معاني القرآن، ص 94.

[2] سورة لقمان: الآية 21.

[3] سورة الروم: الآية 09.

[4] سورة البقرة: الآية 173.

[5] المرجع نفسه، ج1، ص 94.

[6] سورة النساء: الآية 171.

[7] سورة هود: الآية 12.

ثانيا: اِحترام الفرّاء للقراءات القرآنية

اِحترم الفرّاء قراءات كِتاب الله، ولم يُغْفل الفوارق الّتي تُحدثها على مُستوى تفسير الآيات القرآنيّة، بلْ لم يتغاض حتّى عن تلك الفوارق الصّوتية الّتي تُمثل مختلف الطّرق الآدائية للكلمة الواحدة من طرف مختلف قبائل العرب، والجزء الأوّل من "**معاني القرآن**" حافل بالشّواهد الدّالة على ذلك.

1- ﴿**آلَمَ**﴾

هذه أوّل آية من سورة البقرة، يقول فيها الفرّاء(*): "قرأت القرّاء "آلمَ" بفتح الميم،كما يُزَكّي قراءة أبي جعفر الرّؤاسي ويقول: "الّذي قرأها رجل من النّحويين، وهو أبو جعفر الرؤاسي، وكان رجلاً صالحًا"[1] كما يقول أن عاصم قرأ بقَطع الألف(**)، لكنّه يرجّح أنّ القراءة بطرح الهمزة". [2]

2- قوله تعالى: ﴿**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ**﴾ [3]

يركّز الفرّاء في كلمة "يخطف" على مختلف القراءات لها، فيقول أن بعض القرّاء قرأت بنصب الياء والخاء وتشديد الطّاء يَخَطِّف، وبعضهم يكسر الياء، والخاء ويشدّد، فيقول يِخطِّفُ، وبعض من قُرّاء أهل المدينة يُسَكِّن الخاء والطّاء فيجمع بين ساكنين فيقول: "يَخْطِّفُ، ولم يذكر الفرّاء أي اِختلاف دلالي بين مختلف الطّرق الأدائية لنُطق "يخطف" بل راح يُبرّر صوتيًا سبب نصب أو كسر حرف من حروف الكلمة، [4] وأمّا منْ جمَعَ بين السّاكنين، فإنّه كضمَنْ بَنَى على إظهار الحرف وعدم إدغامه إلا أنّه إدغام خفيّ، ويستشهد الفرّاء بالقرآن على

(*) يقصد بهم أصحاب القراءات الصحيحة المتواترة المشهورة.

(1) يحي أبو زكريا، الفراء، معاني القرآن، ج1، ص9.

(**) قرأ عاصم بقطع الألف كالرؤاسي على تقدير الوقف على "ا لم".

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) سورة البقرة: الآية 20.

(4) المرجع نفسه، ص ص 17-18.

ذلك [1]، فيُدرج قوله تعالى: ﴿**أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى**﴾ [2]، حيث أُدْغِمت الميم في الميم، كما أُدْغِمت الخاء السّاكنة في الطّاء المشدّدة.

3- قوله تعالى: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ**﴾ [3]

يدرج الفرّاء قراءة كلمة "سَتُغْلبون" بالياء، ومن قرأها هكذا ذهب إلى مخاطبة اليهود إلى أنّ الغَلَبة على المشركين بعد يوم أُحُد، الّذين انتصروا فيه على المسلمين، أمّا من قرأها بالتّاء، فقد جعل اليهود والمشركين داخلين في الخطاب، أي: الغَلبة ستكون على كلّ من اليهود والمشركين، ومثل هذا الإختلاف الصّرفي يؤدّي بالضّرورة إلى هذا التّباين الدّلالي، ومثله كثير في القرآن [4]، فقد إستشهد الفرّاء على ذلك بقوله تعالى: في قراءة عبد الله: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ تَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَكُمْ مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ [5]، وفي قراءة أهل الكوفة ﴿**إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ**﴾.

4- قوله: ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ**﴾ [6]

يقول الفرّاء أنّ أكثر القُرّاء قرأ على فتح القاف، وقد قرأ أصحاب عبد الله: قُرِحٌ، وكأنّ القُرْحَ هو ألم الجراحِ، أمّا القَرْحُ فهو الجراحُ بعينها، وذلك في القرآن كثيرٌ، نذكر منه قوله تعالى:﴿**أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ**﴾ [7]، وقُرِأَتْ بـ "وَجْدِكُم"، وقولهُ تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ**﴾ [8]، وقُرِئَتْ "وَجَهدَهُم"، ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾.[9] قُرِئَتْ "وَسعهَا". [10]

---

[1] يحيى أبو زكريا، الفرّاء. معاني القرآن، ص 18.

[2] سورة يونس: الآية 35.

[3] سورة آل عمران: الآية 12.

[4] المرجع نفسه، ص 191.

[5] سورة الأنفال: الآية 38.

[6] سورة آل عمران: الآية 140.

[7] سورة الطلاق: الآية 6.

[8] سورة التوبة: الآية 79.

[9] سورة البقرة: الآية 286.

[10] المرجع نفسه، ص 234.

5- قوله تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾ [1]

يقول الفرّاء أنّ هذه هي قراءة العامّة، لكنّ زيْد بن ثابت قرأ "فَلْتَفْرَحوا"، أيْ: خاطَب أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم، وقد جاء في قراءة أُبَيّ "فافرحوا" وهذا هو البناء الخاصّ بالأمر في العربيّة، إلاّ أنّ العرب حذفت اللاّم من فعل الأمر لكثرته في كلامهم، فحذفوا اللاّم كما حذَفوا التّاء من الفعل، لكنّهم أَدْخلوا ألفًا خفيفة يقع بها ابْتداء الحرف الّذي بقي ساكنًا،لأنّ العربيّة، هنا، لم تستقم أن تستأنف بحرف ساكن، نحو اضْرب، وافْرَحْ. [2]

وذكر الفرّاء أنّ الكِسائي يَعِيب قولهم "فلْتَفرحوا" لأنّه وجده قليل فيما وَجدَ، فجعله عيبًا، ويرى الفرّاء أنّ هذا هو الأصل، ويعزّز الفرّاء مَوْقِفه هذا بالإستشهاد بحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، فيقول: "ولقد سمعت عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنّه قال: في بعض المشاهد (**لتأخذوا مصافّكم**)(*) يريدُ خذوا مصافّكم. [3]

(3)

وقد يقول قائل أنّ الفرّاء ممّن خَطّؤُوا القُرّاء، ورفضوا بعض القراءات القرآنية، لكن التّصفّح الشّامل للجزء الأوّل من كتاب "**معاني القرآن**" يُثْبِت أنّه اعتدّ كثيرا بها، حيث لا يكاد يُعثر في هذا الجزء على عبارة، أو كلمة تدلّ على عدم قبوله لها، غير ما ورد في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ** ﴾، [4] حيث رجّح الفرّاء نصب الأرحَام، ويُريد من المعنى اتّقوا كذلك الأرْحَامَ أنْ تَقْطعوها، واسْتَقْبَحَ الخَفْض في "الأرحام"، حيث قال: حدّثني شريك بن

---

[1] سورة يونس: الآية 58.

[2] يحي أبو زكريا، الفرّاء. معاني القرآن، ص 469.

[*] المصافّ جمع مصفّ، وهو الموقف في الحرب وموقعها الذي تكون فيه الصّفوف.

[3] المرجع نفسه، ص 470.

[**] هو أبو عمران إبراهيم بن زيد النّخمي الكوفي، ت 96 هـ، وقد قرأ حمزة بالخفض، وقُتادة والأعمش.

[4] سورة النساء: الآية 01.

عبد الله عن الأعمش عن إبراهيم(**) أنّه خَفض الأرحام، قال: "هو كقولهم: بالله والرّحيم، وفيه قُبْحٌ لأنّ العرب لا تَرُدّ مَخْفُوضا على مَخْفُوض وقد كُنِّي عنه"، لكن الفرّاء يُجِيز هذا الأمر في الشّعر لضيقه، وكان هذا الشّاهد دليله: وقد قال الشّاعر:

تُعَلَّقُ في مثلِ السّواري سُيُوفُنا وما بينها والكعبِ غوط نَفانِف [1]

لكن هذا الاِسْتِقْبَاح لا يُنْقِص من الشّأن الّذي أولاهُ الفرّاء للقراءات، حيث اعتمد عليها في ذكر أوجه العربيّة مرّة، وفي ذِكر مختلف لهجات العرب مرّة أخرى، وكان يستغلّ ذلك في توجيه مختلف المعاني المتضمّنة في النّص القرآني، فأمّا المثال عن ذكر أوجه العربيّة فهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿**يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ، لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ، وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ، وَحُورٌ عِينٌ**﴾ [2]، فَخَفَض بعض القرّاء الحور العين، ورفعها بعضهم، فأمّا الّذين خَفَضُوا فهذا الوجه الأوّل، وهو مُعَلّل بِعَطف "حُور" على أكوابٍ، وكأسٍ، وفاكهةٍ، ولحمٍ، لكنّ الّذين رَفَعوا، وهذا هو الوجه الثّاني، فإنهم يرون أن الحور العين لا يطاف بهنّ، بل كان تأويلهم "وعِنْدهُمْ حُورٌ عينٌ"، ويقول الفرّاء أن هذا كثير في كلام العرب. [3]

وهذا النّوع من القراءات (أي الّذي يبيّن مختلف وجوه العربيّة) هو الأكثر ورودًا في القرآن الكريم، وفي الجزء الأوّل من "**معاني القرآن**"، وأمّا المثال عن مختلف اللّهجات، فهو ما أورده الفرّاء في قوله تعالى: ﴿**وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَ**﴾، [4] والفُوم فيما ذُكِر لغة قديمة وهي الحنطة، والخُبز جميعا، حيث قال بعضهم: "سمعنا من العرب أهل هذه اللّغة يقولون: فوّموا لنا بالتّشديد لا غَيْر، يريدون اخْتَبِزوا"، أمّا في قراءة عبد الله فهي: "وثومها

(1) يحي أبو زكريا، الفرّاء. معاني القرآن ،ج1، ص 252.
(2) سورة الواقعة: الآية17-22.
(3) المرجع نفسه، ص 14.
(4) سورة البقرة: الآية 61.

وعدسِها" بالثّاء، فكأنّه أشبه المعنين بالصّواب، لأنّه مع ما يشاكله: من العدسِ، والبصلِ، وشِبْهِهِ، والعرب تُبْدِلُ الفاء بالثّاء في كثير من الكلمات، فيقولون جدثٌ بدل جدفٌ، والمغاثير(*) بدل المغافير. (1)

المطلب الثاني: الحديث الشّريف

رفض البصريّون، كما رأينا في الشقّ النّظري من هذا البحث، الإحتجاج بالحديث الشّريف، واحتجّوا بكونه مرويّا بالمعنى عن غير فُصَحاء الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، أمّا الكوفيون، وإن لم يُكثروا منه في مصنّفاتهم فقد اعتمدوا عليه شاهدا على ما يذهبون إليه في مسائلهم النّحوية والدّلالية وغيرها، والفرّاء في هذا الجزْء من الكِتاب، اعتمد على شواهد من الحديث نذكر منها:

1- حديث رسول الله: (**أوصي امْرأً بأمّه**)(2)، حيث الفرّاء هنا جاء به لذكر أوجه الرّفع والكسر في همزة (أُمِّه)، وشاهدا من شواهده الّتي عزّز ما يذهب إليه في تفسير سورة الفاتحة في مسألة كَسْرِ ورفع هاء "عَلَيْهُمْ" وهما لُغتان في العربيّة، فأمّا من رفع فهو الأصل في الأمّ (3)، وأمّا من كسر فإنّه استثقل ضمّة قبلها ياء ساكنة أو كسرة، أمّا إذا كان ما قبلها مُنْفَتِحًا أو مجزومًا أو مضمومًا، فقد وجب ضمّ همزة "أُمِّه" في العربيّة(4)، والفرّاء هنا قدّم أوجه همزة أمّه لتفسير أوجه عليهم في العربيّة.

2- قال الفرّاء: وبَلغنَا أنّ النّبي، صلّى الله عليه وسلّم، قال: (**الكَمْأَةُ من المنّ وماؤها شفاء للْعَيْن**)(*)(5)، وهذا الحديث ذكره الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، لشرح معنى كلمة "المنّ" في الآية رقم 57 من سورة البقرة، ومنه فالغرض من ذِكر هذا الحديث لُغوي (معجمي) لتفسير الآية الكريمة.

(*) هو صمغ يسيل من شجر الرّمث حلو المذاق، يشرب لكن رائحته ليست طيّبة.

(1) المرجع نفسه، ص 41.

(2)،يحي أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 5.

(3) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المرجع نفسه، ص 6.

(*) هذا حديث رواة الشيخان وغيرهما من المحدثين.

(5)المرجع نفسه، ص 38.

3- قال الفرّاء: وذلك أنّ رسول، الله صلى الله عليه وسلّم، قال: (**والله لا يقوله أحدٌ إلا غصَّ بريقهِ**)[**] [1]، وهذا الحديث ذكره الفرّاء ليبيّن أن الّذين أشركوا خافوا أن يتمنّوا الموت، فيذهب الله بروحهم، لأنّ هذا هو مضمون هذا الحديث: أي أنّ الله أمرهم في هذه الآية: ﴿**فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ بتمنّي الموت، لكنّهم خافوا الموت لعلمهم بصدق النّبي محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، في هذا الحديث، ومنه: فإنّ الإتيان بهذا الحديث ليس لغرض لُغوي، بل لتبرير سلوك المشركين.

4- قال الفّراء: وحدثني قيسٌ[*] عن هشام بن عروة بإسناد يرفعه إلى النّبي، صلى الله عليه وسلّم، أنّه سمع رجلا يقرأ، فقال: (**يرحم الله هذا، هذا أذكرني آيات قد كنتُ أُنْسِيتُهُنَّ**). [2]

والفرّاء في هذا الحديث، يثبت وجود الوجه الثّاني من معنى "النّسيان"[**]في العربية، وهو التّأخير، والإرجاء [3] إضافة إلى معنى التّرك، والغرض من ذِكر هذا الحديث هو شرح كلمة "نُنْسيها" وهي تأخذ الوجه الأوّل لأن عمليّة نسخ الآية تستدعي بالضّرورة نِسْيَان وترك الأولى.

5- اِستفسر رجل[***] بعد سماعه لقوله تعالى: ﴿**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ**﴾ عن معنى هذه الآية، فقال للنّبي، صلّى الله عليه وسلّم: أهو الخيط الأبيض والخيط الأسود، فقال له النّبي صلّى الله عليه وسلّم: (**إنك لعريض القفا، هو الليل والنهار**). [4]

[**] ورد نص هذا الحديث كما ذكرناه في كل الأصول، أما رواية البهيقي عن ابن عباس مرفوعًا: لا يقولها رجل منهم إلا غص ريقه.

[1] المرجع نفسه، ص 62.

[*]هو قيس بن ربيع الأسدي الكوفي المذكور في التهذيب وتاريخ بغداد.

[2]يحي أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 65.

[**]النسيان لها وجهان: التّرك، والتأخير، أما الترك ففي الآية:﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**﴾.

[3] المرجع نفسه، ص 65.

[***] هذا الرجل هو عدي بن حاتم، ينظر: البخاري في الصوم وتفسير سورة البقرة.

[4] المرجع نفسه، ص 115.

[****] تسقط أسنانه.

وقد جاء هذا الحديث هنا ليشرح المقصود بالخيط الأبيض والخيط الأسود، فغرضه الشّرح والتّفسير لكلام الله تعالى.

6- يقول الفرّاء: ونقلنا في الحديث أنّ رسولن الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: (**أُمِرْتُ بالسّواك حتّى خِفْتُ لأَدْرَدَنَّ**)،(****) [1] وخِفْتُ في الحديث تأخذ معنى ظنَنْتُ وهذا الحديث جاء تعزيزا لمعنى "تخافون" في الآية الكريمة: ﴿**واللاّتي تخافون نشوزهنّ**﴾ [2]، حيث جاء الفعل هنا بمعنى تظنّون، والفرّاء هنا اِستشهد بمعنى الفعل "خفتُ" على معنى الفعل "تخافون" في الآية. [3] ومنه فالغرض من الإتيان بهذا الحديث هو إثبات معنى "تخافون" من خلال معنى حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

7- قال الفرّاء: ولقد سمعت عن النّبي، صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال في بعض المشاهد: (**لتأْخذوا مصافّكم**)(*)

يريد الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، به خذوا مصافّكم،[4] وهذا الحديث أتَى به الفرّاء شاهدًا على صحّة صيغة "فلتفعلوا" الّتي تُقَابل صيغة الأمر المباشرة: "افعلوا" في قوله تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾[5]، وهذه قراءة العامّة، أما قراءة زيد بن ثابت فكانت "فبذلك فتفرحوا"، أي أن الله يخاطب أصحاب محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، ويشرح الفرّاء عملية التحوّل الّتي طرأت على الصيغتين فيقول: "إلاّ أنّ العرب حَذفت اللاّم من فعل المأمور المواجه لكثرة الأمر خاصة في كلامهم، فحذفوا اللاّم، كما حذفوا التّاء من الفعل، وأنت تَعْلم أنّ الجازم، أو النّاصب لا يقعان إلاّ على الفعل الّذي أوّله الياء، والتّاء، والنّون والألف، فلمّا حَذْفَت التّاء، ذَهَبْتَ باللاّم وأَحْدَثْتَ الألف في قولك:

---

(1) المرجع نفسه، ص 266.

(2) سورة النساء: الآية 34.

(3) يحي أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 266.

(*) جمع مصفّ، والمصفّ هو الموقف في ساحة الحرب وموضعها الذي تكون فيه الصفوف.

(4) المرجع نفسه، ص 470.

(5) سورة يونس: الآية 58.

اضْرِبْ، وافْرح، لأنّ الضّاد ساكنة، فلم يَسْتَقِم أنْ يُسْتَأنَفَ بحرف ساكن، فأدخلوا ألفًا خفيفةً يقع بها الإبتداء".[1]

وخلاصة القول أنّ الفرّاء اعْتَدَّ بالحديث، وجعل من بعضه شواهد على صحّة بعض قواعد اللُّغة العربيّة، كما اعتمد على بعضه في إثبات معاني ودلالات بعض الآيات من خلال الإتْيان بألفاظ من الحديث تحمل نفس دلالات ألفاظ الآيات القرآنية.

المطلب الثالث: كلام العرب

لقد بيّنا في فصل سابق من القسم النّظري لهذا البحث أنّ كلام العرب الّذي إعتمده النُّحاة في إستقراء المادّة اللُّغوية بهدف التّقعيد لها، وتِبْيان وجوهَا يجمع الشّعر والنّثر على حدّ السّواء، مهما كان نوعه، أي كلامًا تُحُصِّلَ عليه مباشرة من مصدره السّليقي، أو بالرّواية والأخذ عن حَفَظَة العرب، لكنّ أكثر ما تتداوله كُتب العرب المحدثين[*] الّذين يبحثون في جهود أسلافهم من النّحويين هو أن "المتأمل لكتب اللُّغويين يجدهم أوفر حظًّا في الإستشهاد بالشّعر والنّثر من النّحويين الّذين يكاد يقتصر إستشهادهم على الشّعر، وذلك إذا قابلنا الشّواهد النّثرية عندهم بالشّعرية» [2]، ولنؤكّد هذا الطّرح أو نفنّده قمنا بتصفّح الجزء الأوّل من هذا الكِتاب "**معاني القرآن**" وتحصّلنا على هذه الحقائق الّتي نُركّز فيها على ذِكْر الشّاعر وشاهده، دون التطرّق لزمانه وتاريخ وفاته، لأنّنا ذكرنا طبقات الشّعراء وزمنهم في القسم النّظري.

أوّلا: الشّواهد الشّعرية معلومة القائل:

بما أنّ الفرّاء هو إمام المدرسة الكوفية، فقد سهر في كتابه هذا على تجسيد أصول هذه المدرسة، وإرساء دعائم المذهب الكوفي، حيث استشهد بالشّعر على نطاق واسع، وكتابه هذا يعدّ المصدر الأوّل الّذي تصلنا فيه آراء مدرسته الكوفة النّحوية، فهو يهتمُّ فيه بالقواعد النّحوية وصياغتها، والتّعريف بها مما يجعل منه "مرجع نحو

[1] المرجع نفسه، ص 469.

[*] أهم ما يميز هذا المذهب عن نظيره البصري الاتساع في رواية الأشعار وقبولها عن جميع العرب، بدوهم، وحضرهم.

[2] سعيد، الأفغاني، في أصول النحو، ص ص 59-60.

بمعناه الشّامل لا كتاب إعراب وتوجيه نَحوِ فقط" [1]، وقد استشهد بالشّعر الجاهلي كله، ولم يستثنِ شعر بعض الجاهليين الذين أسقطهم البصريّون من دائرة الاِحتجاج. [*]

كما احتجّ بشِعر مجهول قائلهُ، وشعر المخضرمين، والإسلاميّين، والمولّدين عمومًا لأنّ أهل الكوفة أعلم بالشّعر من أهل البصرة، فقد جاء عن حَمَّاد الرَّاويّة قال: أمر النُّعمان فنسختُ له أشعار العرب في الطّنوج، وهي الكراريس، ثم دفنها في قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبي عبيد، قيل له: إنّ تحت القصر كنزًا، فاحتَفِرْهُ، فلمّا فتحه أخرج تلك الأشعار [2]، فأطّلع عليها الكوفيون وحفظوا منها، وهكذا، لا يُدْهشنا التّنوع الّذي يتّسم به كتاب "معاني القرآن"، من حيث شواهده الشّعرية، ولإثبات ما نذهب إليه نعرض فيما يلي نماذج من شواهد الفرّاء الشّعرية من مختلف الطبقات.

1- الشعراء الجاهليون الموثوق بفصاحتهم: لقد أكثر الفرّاء من شواهد الشّعر الجاهلي وخاصّة الشّعراء أصحاب المعلّقات المشهورة، ومن بينهم نذكر على سبيل الذّكر لا الحصر:

أ- امرؤ القيس:

يقول امرؤ القيس:

فَقلتُ لهُ صوِّبْ ولا تجهدَنّهُ *** فَيُدْرِكَ من أُخرى القطاةِ فَتَزْلُقِ [3]

وقد استشهد الفرّاء بهذا البيت عند تفسيره لقوله تعالى:﴿**وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا**﴾ [4]، حيث يُقدم لنا وجهين في إعراب الفعل بعد الفاء. فإن كان جزْما، فهو يعود إلى العطف على أوّل الكلام، أمّا إذا كان نصبًا، فهو جواب، تمامًا كما في بيت الشّاعر (نصبًا)، وأمّا الجزم فمعناه تكرير النهي، كقول القائل: لا تذهب ولا

---

[1] المختار أحمد، ديره. دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفراء، ط1، 1411هـ-1991م، ص 116.

[*] أمثال أمية بن أبي الصّلت، وعديّ بن زيد العبّادي، والأعشى وغيرهم، لمخالطتهم الأجانب وتأثر لغتهم بهذه المخالطة.

[2] جلال الدين السّيوطي، الاقتراح في أصول النحو، ص 53.

[3] يحي أبو زكريّا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص26.

[4] سورة البقرة: الآية 35.

تعرِض لأحد، وأما النّصب والجواب فمعناه: لا تفعل هذا فيُفعلَ بكَ مُجَازَاةً، فلمَّا عُطِف الفعل على غير ما يُشَاكله، وكان في أوّله حَادث(*) لا يصلح في الثّاني نُصبَ. (1)

ب- زهير بن أبي سلمى المزني: وقد أعقب بيت امرئ القيس ببيت لزهير يُشَاكل مَا طَرحه فيه، يقول زهير:

قف بالدّيار التي لم يَعْفُها القِدَمُ *** بَلَى وغيّرَها الأرواح والدِّيَمُ(2)

حيث أنّ هذا البيت فيه نفي وجزمٌ، وعطف و نصب ، كما أورد له هذا الشّاهد:

أمِنْ أمّ أوْفَى دمنةٌ لم تكلّمي *** بحومانة الدّراج فالمتثّم(3)

وفي هذا الشّاهد يذكر الفرّاء أن العرب توصل القوافي بإعراب رويّها، ومنه فالياء، في "تكلّمي" ليست بلام الفعل، بل هي صلته لكسرة الميمِ.

2-الشعراء المخضرمون:

اِعتمد الفرّاء على شواهد من شعر المخضرمين(**)، وحتّى وإنْ لم تُصَادِفْنَا بنفس درجة الكثرة الّتي صادفتنا شواهد الشّعراء الجاهليين، فإنّها تبقى واردة في قائمة شواهده الشّعرية، ومنها نذكر:

1- حسّان بن ثابت:

يقول شاعر الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، حسّان بن ثابت:

فكفى بنا فضلا على من غَيرنِا *** حبُّ النّبيِّ محمد إيَّانَا

(*) نفي أو نهي أو قسم....

(1) يحي أبو زكريّا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص ص 26-27.

(2) المرجع نفسه، ص27.

(3) المرجع نفسه، ص162.

(**) رأينا سابقا الطبقة الثانية من الشعراء الفصحاء وهم من أدركوا الجاهلية والإسلام.

وقد جاء الفرّاء بهذا الشّاهد، عند تفسيره للآية:﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ [1]، حيث اِشتغل بإظهار أوجه نَصب "بَعُوضة" الثّلاثة، أمّا الوجه الّذي اسْتشهده له في هذا البيت فهو أنْ تجعل "ما" اِسمًا، و"البعوضة" صلةً، فتُعَرّبها بتعريب "ما"، ويرى الفرّاء أنّ "من" و"ما" سواء في جواز ذلك لكونهما معرفة ونكرة في حالين مختلفين، وفي بيت حسّان بن ثابت، لدينا وضع الخفض الّذي تَكَوّن من اِسم موصول، وغيرنا صلة مجرورة مثله. [2]

2- أبو ذؤيب الهُذلي:[*]

يقول: أبو ذُؤيب:

فتخالَسَا نفسيهَما بنوافذ *** كنوافذ العُبطِ التي لا تُرقَعُ

وجاء الفرّاء بهذا الشّاهد ليبّين أنّ العرب قد تُثَنّي اِسمًا اِعتادت على ذكره في صيغة الجمع، وقد جاء به عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾ [3]، حيث جاءت "أيديهما" في صيغة الجمع وتبريره لهذا أن في العربيّة: كل شيء موحّد (مفرد) من أعضاء الإنسان، إذا ذُكِر مضافا إلى اثنين فصاعدًا جُمِعَ. نحو: هَشَّمتُ رؤوسكما، وملأت ظهوركما ضربًا [4]، وإنما أجيز الجمع على التّثْنية لأنّ أكثر ما تكون عليه الأعضاء في خلق الإنسان اِثنين: اليدينِ، الرّجلينِ، العينينِ....، أمّا في هذا الشّاهد، فإنّ الفرّاء يُجِيز التّثنية لأنّ أبا ذؤيب قال: "نفسيهما" أي ذهب بالواحد مذهب التّثنية، وهذا جائز عند العَرب. [5]

3- عبد الله بن الزّبعري:

يقول الزّبعري:

---

[1] سورة البقرة: الآية 26.

[2] يحي أبو زكريّا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص 21.

[*] تجده بالتفصيل في ديوان الهذليين.

[3] سورة المائدة: الآية 35.

[4] المرجع نفسه، ص 306.

[5] المرجع نفسه، ص 307.

ورأيت زوجك في الوغى *** متقلّدا سيفًا ورمحًا

وقد جاء بهذا الشّاهد ليفسّر ما جاء في قوله تعالى: ﴿**فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ**﴾ [1]، حيث يرى الفرّاء أن الإجماع في قوله تعالى هو الإعداد والعزيمة على الأمر، والفعل "أجمعوا" عمل في "أمْرَكم" فنصبها، أمّا "شركاءكم" فقد نُصِبَت بفعل مُضمر تقديره و"ادعوا"، والمضمر هنا يصلح حذفه لأن معناه يُشَاكل ما ظهر من القول. [2] أمّا في الشّاهد، فقد نَصَب "متقلّدًا" سيفًا، أمَّا "رُمْحًا" فقد حُذف ناصبه لكنه فُهم ممّا ذُكر لأنّ كل من "سيفًا"، و"رمحًا" سلاح.

3-الشعراء الإسلاميون:

أ- جرير:

وظف الفرّاء شواهد جرير في أكثر من موضع، اِخترنا منها هذا الشّاهد:

يقول جرير في هجاء الأخطل[*]

ما كان يرضى رسولُ الله دينهم *** والطّيبان أبو بكر ولا عُمَرُ

جاء الفرّاء بهذا الشّاهد عند تفسيره للآية:﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ [3]، حيث قال بعض من لا يعرف العربيّة بأنّ معنى "غير" في "سورة الفاتحة" هو معنى سوى، وأنّ "لاَ" صلة في الكلام، أي صلة بالنّفي الوارد في الآية، فردّ عليهم الفرّاء بعدم جواز هذا الزّعم، وأنّه يَجُوز أنْ تُجعل "لا" صلة إذا اتصلت بجحدٍ[**] قبلهَا، وفي هذا الشّاهد اِتصلت "لا" بالجُحد في مطلع البيت: "مَا كان"، وهكذا فالفرّاء هنا يقرّر أنّ "لا" في العربيّة تكون صلة إذا اتّصلت بنفي سبقها في التّركيب. [4]

---

[1] سورة يونس: الآية 71.

[2] يحي أبو زكريّا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص 473.

[*] من شعراء النقائض إلى جانب الفرزدق، لم يأخذ البصريون بشعرهم لعدم وثوقهم في فصاحة أشعارهم.

[3] سورة الفاتحة: الآية 7.

[**] يقابله النفي في اِصطلاح البصريين.

[4] المرجع نفسه، ص 8.

ب- الفرزدق:

اعتمد الفرّاء في اِستشهاده على شعر الفرزدق في أكثر من موضع، اِخترنا منه هذا البيت:

يقول الفرزدق:

كم عمّة لك يا جريُر و خالة *** فَدْعَاءَ قد حلبت عليَّ عِشاري

جاء الفرّاء بهذا الشّاهد، عند تفسيره للآية: ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً**﴾. [1]

حيث يرى الفرّاء أنّ الاِسم بعد "كم" يأتي عند العَرب رفعًا ونصبًا وخفضًا، فمن نصب قال: كان أصل "كم" الاِستفهام، وما بعدها من النّكرة مفسر[*] كتفسير العدد، ومن خفض قال أصل القول: كم من عمّةٍ، فلما حذفنا "مِنْ" تركنا عملها، أمّا مَنْ رفع فقد أَعْمل الفعل في ما بعد"كَم" ونوى تقديم الفعل الآخر، كما في قول العَرب: كم قد أتَاني رجلٌ كريم. [2]

4- الشّعراء المولّدون:

لم يتردّد الفرّاء في ذِكر شواهد من طبقة المولّدين، وأخذ عن الأخطل في أكثر من موقع في كِتابه، وهذا الشّاهد ما اخترناه لإثبات ما ذهبنا إليه.

يقول الأخطل: [**]

لا تنهَ عن خلقٍ وتأْتيَ مثلَهُ *** عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

وهذا الشّاهد أورده الفرّاء عند تفسيره للآية: ﴿**وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [3]، حيث يذهب الفرّاء إلى أنّ العرب تَنْصب ما بعد حرف العطف على الصّرف.[***] حيث أن "تأْتِيَ"

---

[1] سورة البقرة: الآية 249.

[*] في اِصطلاح البصريون يسمى تمييز العدد.

[2] يحي أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 169.

[**] نسبه سيبويه للأخطل في كتابه (ج424/1) ويروى لأبي الأسود الدؤلي، والأخطل عايش جرير والفرزدق وكان أعجميّا فاعتبر من المولّدين.

[3] سورة البقرة: الآية 42.

[***] هو أن تأتي بالواو معطوفة على كلام في أوله حادثة لا تستقيم إعادتها على ما عُطف عليها.

في الشّاهد جاءت منصوبة على الصّرف، أي أنّ "لا" وهي الحادثة التي في أوّل الكلام، وهي ناهيّة جازمة، ولا يستقيم إعادتها على ما بعد الواو، فوجب نصب ما بعد الواو على الصّرف. [1]

ثانيّا: الشّواهد الشّعرية مجهولة القائل

يمثل الفرّاء كما قلنا سابقا المدرسة الكوفية، واستشهاده بشواهد شعريّة مجهولة القائل هو ما ميّز الكوفين عن البصرين، من خصائص، والجزء الأوّل من "معاني القرآن" حافل بمثل هذه الشّواهد، نختار منها:

1- قول الشاعر:

وبلدٍ ليس به أنيس *** إلاّ اليعافيُر وإلاّ العيسُ

جاء الفرّاء بهذا الشّاهد ليُبيّن أنّ المسْتَثْنى يأتي منصوبًا، إذا كان مُنقَطعا ما قبل، إلاّ إذا وقع الإستثناء على طائفة من المسْتَثْنى منه، كان حكم المسْتَثْنى الرَّفْعُ، كما أنّ المسْتَثنى المختلف في الجنس عن المسْتثنى منه، يَرِدُ بالرّفع نحو ما ذُكِر في الشاهد السّابق حيث: "اليعافِيرُ" جاءت مرفوعة، و"العيسُ" كذلك، لأنّهما مختلفان في الجنس عن "أنيسُ" [2]، فهذا الشّاهد ومثله يَنْسَبُهم إلى شاعر مجهول ويعبّر على ذلك بـ "قول الشّاعر".

2- وأنشدني بعض العرب: [3]

لمّا رأيتُ نبطًا أنصارًا *** شمّرتُ عن ركبتيَّ الإزارًا

كنتُ لهًا من النصارى جارًا

وقد جاء بهذا الشّاهد ليبيّن أنّ العَرب لما تتحدّث بكلام مُكْتَفٍ لا تعقبه بواوٍ، بل يأتي له جواب مجرّد منها، ففي هذا الشّاهد: أخبرنا الشّاعر أنّه لما رأى نبطًا أنصارًا، شمّر عن رُكْبَتَيه الإزارَ، ثم وصف علاقته بتلك

---

[1] يحي أبو زكريّا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص 34.

[2] المرجع نفسه، ص 479.

[3] المرجع نفسه، ص 44.

المرأة فقال كنت لها من النّصارى جارًا. فأفعاله مُنْفَصِلة عن بعضها البعض، وكلّ فِعْلٍ متضمّن لخبر مستقل عن الخبر الآخر، لذلك وجب إسقاط الواو هنا. [1]

3- وأنشد بعضهم:

تعلّقت هندًا ناشئًا ذا مئزرٍ *** وأنت وقد قَارَفْتَ لم تدرِ ما الحُلُم

هذا البيت مجهول القائل جاء به الفرّاء ليُبين أنّ العَرب تَحذف الباء، أو تُلْصِقها ببعض الأفعال نحو:

اِعتصمَ، تعلّق، اِلتقى وغيرها [2]، وجاء هذا البيت شاهدًا على قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا**﴾ [3]، حيث جاء في الآية "اعتصموا" مع إتّباعه بالباء.

4- كما أنّ الفرّاء ذكر شواهد سمعها عن بعض القبائل وصرّح باسم القبائل دون اكتراثه لأصحابها الأصليّين، نذكر مثالاً على ذلك فيما يلي:

أ- يقول الفرّاء: وأنشدني بعض بني عقيل: [4]

فقلنا السّلامُ فاتّقت من أميرَها *** فما كان إلا وَمْؤُهَا بالحواجبِ

جاء الفرّاء بهذا البيت عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾ [5]، حيث جاءت ثلاثة بالرّفع، ثم أتى بوجه آخر هو النّصب، وشرَحَ سَبَب ذلك، وأمّا الشّاهد الّذي ذكرناه هنا فيرى أنّ الرّفع مُبَرّر لأنّ

---

[1] يحي أبو زكريّا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص44.

[2] المرجع نفسه، ص 228.

[3] سورة آل عمران: الآية 103.

[4] المرجع نفسه، ص 40.

[5] سورة الكهف: الآية 23.

السّلام هو محتوى القول أي قلنا لها: السّلامُ عليكِ. وهذا عند العرب واردٌ، أمّا إذا قال العرب: قُلنا السّلامَ، فالمقصود هنا هو أنّهم ألقوا السّلامَ، حيث يقع الفعل قلنا على السّلامَ وهو مفعول به. [1]

ب- كما أنّ الفرّاء قد يَذْكُر رواية أحد الأعراب الفُصحاء عن العرب:

يقول الفرّاء: وأنشدني القاسم بن معنٍ (عن العرب):

حلفتُ لهُ إنْ تُدْلِجِ اللّيل لا يَزَلْ *** أمامك بيتٌ من بيوتي سَائِرِ

وقد جاء به الفرّاء ليقرّ أنّ العرب إذا جاءت بفعل في محلّ رفع بعد المجزوم، صُيِّرَ هذا الفعل جوابًا للجزم، ومنه وَجَب جَزْمُه وتَجَنَّبُوا رَفْعَه. وفي هذا الشّاهد، جاء الفعل "يزلْ" مجزومًا، والأصل هو: حلفتُ لهُ لا يزالُ أمامك بيتٌ، أي بالرّفع، فلمّا سبقه الفعل المجزوم "إنْ تُدْلِج" وَجَب جزمه. [2]

ثانيّا:الشّواهد النّثرية:

بعد التّصفّح الشّامل للجزء الأوّل من كتاب "معاني القرآن" للفرّاء، تمّ التّوصّل إلى أنّ الشّواهد النّثرية تَطْغَى على الكتاب، ولا تكاد تكون مسألة لُغَويّة، إلاّ ويدعّم الفرّاء رأيه بشيء من النّثر، وذلك عكس ما يدّعيه كل من درس كتب النّحو التّراثية، واشْتَغَل على شواهدها.[*]

وقد كثرت في الكتاب هذه العبارة: "وزعم الكِسائي أنّه سَمِع العَرب تقول"، حيث أنّ الكِسَائي كان أستاذ الفرّاء المبجّل، وكان قد خرج إلى ميدان التّحريّات ومزاعمة لا تردّ، كما أكثر الفرّاء من عبارة "ومثله في الكلام"، وهو يقصد بها الكلام العربّي العاديّ المتداول في زمانه، أمّا الأمثلة التّوضيحيّة الّتي تفوق الشّواهد القرآنية،

---

[1] يحي أبو زكريّا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص40.

[2] المرجع نفسه، ص 69.

[*] السعيد الأفغاني في كتابه أصول النحو صرح بهذا مباشرة بقوله: ومن ينعم النظر في معاجم اللغة وكتب قواعدها، يجد كتب اللغويين أوفر حظا من الإستشهاد بالشّعر والنثر على السواء، في إثبات معنى أو إستعمال كلمة، ويجد النحاة يكادون يقتصرون على الشعر...ونحن إذا قابلنا الشواهد النثرية عند هؤلاء، وأولئك بالشواهد الشعرية وجدناها ضئيلة. ص ص 59-60.

والشّعرية، فهي تعدّ جزءًا من الشّواهد النّثرية، حيث يُقحمها الفرّاء بعد قوله، ومثال "ذلك قولك"، و"كأنْ تقول"، وغيرها، وهو هنا يخاطب تلاميذه، لأنّه في وضعية إملاء لكتابه، كما يُخَاطب متلقّي الكتاب عامّةً، ويُحَاوره، ويُحَاول إقناعه لأنّه في موقف تفسير، وشرح لكتاب الله، وتقعيد للُّغة العربيّة من جهة، ومن جهة أخرى، يُجَادِل كُلّ مَنْ يخالف ما يذهب إليه في طرحه، سواء كان من المدرسة الكوفية، أو من البصريّة، ونظرًا لضخامة عدد شواهد النّثر، يجدر بنا انتقاء بعضها لإثبات ما نذهب إليه:

1- اِعتمد الفرّاء على كلام العَرب، سواء سَمِعَه مباشرة منهم، أو سَمِعه عن روّاة نقلوه عن العَرب مباشرة، ومن أمثلة سماعه المباشر:

أ- والعرب تقول: عجبْتُ من ظُلْمِك نفسَكَ، فيَنْصِبُون النّفس، لأنّ تأويل الكاف رفع، ويقولون: عجبت من غَلَبَتْكَ نفْسُكَ، فيَرْفَعُون النَّفْسَ، لأنّ تأويل الكاف نصب.

وقد ذَكَر هذا الشّاهد عند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾[1] ، حيث أنّ الملائكةِ والنّاسِ في موضع خَفْضٍ، تُضَافُ اللّعنة إليهم على معنى "عليهم لعنة اللهِ" و"لعنة الملائكةِ" و"لعنة النّاسِ"، أمّا قِراءة الحَسَنِ "لعنة اللهِ والملائكةُ والنّاسُ أجمَعون" فهو جائز في العربيّة وتعليل ذلك أنْ تأتي بالفعل من "لعنة" فيصير التّركيب: «يلعنهم اللهُ ويلعنهم الملائكةُ والنّاسُ». [2]

ب- يقول الفرّاء: ومن شأن العرب أنْ تَقول: أذهبت بصرَهُ، بالألف إذا أسْقَطوا الباء، أي حذفوها، فإذا أظهروا الباءَ أسْقَطوا الألف من أذهبتَ. [3]

---

[1] سورة البقرة: الآية 161.

[2] يحيى أبو زكريا، الفراء، معاني القرآن، ج1، ص 96.

[3] المرجع نفسه، ص 19.

وقد جاء الفرّاء بهذا الشّاهد النّثري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ولوشَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**﴾ [1] لِيُثْبِتَ أنّ البَاء قبل "سمعهم" ظاهرة، ومنه جاء الفعل الّذي قَبْلها ثُلاثيًّا (ذ.هـ.ب) أمّا إذا أُضْمِرَت البَاء قبل الفِعل، فالعَرب تأتي بالألف لِيُصْبِح الفِعل على وزن "أفْعَلَ" بَدلاً من "فَعَلَ". [2]

ج- يقول الفرّاء: والعَرب تقول في النَّكِرَاتِ كما يقولونه في المعرفة، فيقولون: مررت برجل جميل وشابًّا بَعْدُ، ومَرَرْتُ برجُلٍ عاقلٍ وشرمحًا[*] طُوَلاَ. وفي هذا الشّاهد يبيّن الفرّاء أنّ العرب تَنْصِب بغرض المدحِ، وتَخْفِض (تجرّ) إتْباعًا لأوّل الكلام. [3]

وقد ذَكر الفرّاء هذا الشّاهد عند حديثه عن نصب الصّابرين في قوله تعالى: ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى**﴾، حيث يرى أنّ نصبَها على إيقاع الفعل عليها، والوجه أن يكون نصبًا على نيّة المدح، لأنّه من صفة شيء واحد.

2- أمثلة سماع الفرّاء النّثر عن أساتذته:

سِرْنَا حتى تطلعُ لنَا الشمس بزُبالَة[**]، فرفع الفعل بعد "حتى" وسمع: إنّا لجُلُوسٌ، فما نَشْعُرْ حتى يَسْقُطُ حجر بينَنَا، بالرفع، وكان أكثر النّحويين يَنصبون الفعل بعد حتّى، والفرّاء يُفَسّر ذلك بأنّ الفعل المرفوع غير متعلق بالفعل الّذي يَسْبِق "حتّى" لذلك جاز رَفْعِه، بلْ مُتَعلق بـ "الشّمس"، و"الحجر" في هذا الشّاهد. [4]

---

[1] سورة البقرة: الآية 20.

[2] يحي أبو زكريّا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص 108.

[*] من الرجال القويّ الطويل.

[3] المرجع نفسه، ص 19.

[**] زبالة على وزن ثمالة، وهي منزلة من مناهل طريق مكّة.

[4] المرجع نفسه، ص 134.

ب-يقول الفرّاء: قال الكِسائي: سمعت أعرابيّا ورأى الهلال، فقال: الحمد لله، ما إهلالَك إلى سرارِكَ، يريد: ما بينَ إهلالِك إلى سرارِك، فجعلوا النّصب الّذي كان يكون في "بيّنَ" فيما بعده إذا سقطت "بين" لِيُعلَم أن معناها هو المرادُ. [1]

وقد أتى الفرّاء بهذا الشّاهد عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ [2]، حيث المراد في الآية الكريمة بنَصْب "بعوضة" هوَ معنى: بين حجم بعوضة فما فوقها، فَحُذِفت "بين" وبقي النّصب للدّلالة عليها.

ولتتّضح الفكرة أكثر، فإنّ الفرّاء لم يعتمد على أقوال أفراد بعينها بل تجده، في مئات الشّواهد النّثرية، يُصَرِّح أنّها من الكلام، أي من لُغة التَّخَاطب اليوميّ الّذي كان في زمانه، فيقول: "ومثله في الكلام"[*]، ثم يُورِدُ الشّاهد، فتفهم من ذلك أنّه يقصد لُغة الحديث اليوميّ في زمانه، والأمثلة كثيرة في الجزء الأوّل من الكِتاب، أو يقول: "وهو كثير في الكلام"، فهو يشير إلى النّثر بصفة عامّة، ودليلنا على أنّ الفرّاء يقصد بالكلام "النّثر" قوله: فهو "كثير في الكلام والشّعر". [3]

كما يمكن لنا أن نعدّ كل الأمثلة التّوضيحية الّتي جاءت في الجزء الأوّل نثرا، لأنّ الفرّاء في وضعية مخاطبة لتلاميذه عند إملائه لكتابه، وقوله: "كأن تقول"، أو "مثل قولك" وغيرها تعود بالمتَلَقِّي إلى كلامه اليوميّ في زمان الفرّاء ومكانه، وعلى هذا الأساس، فإنّه لا تخلو آية فسّرها الفرّاء، إلاّ واستشهد بالنّثر، سواء من كلام العَرب مباشرة، أو من مرويّات الرّواة عن العرب، أو من الأمثلة التّوضيحية الّتي أَخَذَها الفَرّاء من لُغة التّخاطب اليوميّ الّتي يَتَوَاصَل بِها في مَجْلِسِه مع تلاميذه، وهم مُتَعَلّمون، مُتَمكّنون من لُغة العَرب.

---

[1] يحي أبو زكريّا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص 23.

[2] سورة البقرة: الآية 26.

[*] طالع الصفحة 28، ص 36 وغيرها.

[3] المرجع نفسه، ص 19.

[**] فصّل سعيد الأفغاني في كتابه "أصول النحو" في المسألة ورأى أن إستقراء النحاة لشعر العرب وحده، يجعل إستقراءهم ناقصًا بالضرورة، ص 60.

وهكذا، يُمكِننا تَفْنِيد مزاعم الّذين يُرجِّحُون تَفوّق عدد الشّواهد الشّعرية على النّثرية في كُتُب النّحو القديمة، كمَا يَسِمُون اِسْتقراء النُّحاة بالنّاقص، والمدوَّنة المسْتَقْرَاة بالضَّيْقة، حيث يرون أنّ النُّحاة قَعَّدُوا للُّغة العربيّة بناءً على اِسْتقرائهم لشِعْر العرب وحده.

الفصل الثّاني: الرّد على مزاعم المستشرقين من خلال الجزء الأوّل من "معاني القرآن"

المبحث الأوّل: مدى اعتماد الفرّاء على العربية الفصحى واللّغة الأدبيّة وإهماله اللّهجات العربيّة

المطلب الأوّل: إحصاء اللّهجات العربيّة المعتمدة بدل لهجة قريش

المطلب الثّاني: مصادر المادّة اللّغوية في الجزء الأوّل من الكتاب ومدى تطابق لغتها

أوّلا: مصادر المادّة اللّغوية

ثانيّا: إثبات تطابق لغة القرآن والشّعر والتّخاطب اليومي

المبحث الثّاني: المبحث الثاني: مدى تشدّد الفرّاء في الرّواية ومدى ضبطه للسّند

المطلب الأوّل: مدى تشدّد الفرّاء في الرّواية

أوّلا: سماعه فصحاء العرب

ثانيّا: سماعه من فصحاء الأعراب والرّواة الثّقاة

المطلب الثّاني: مدى ضبط الفرّاء للسّند

المبحث الثّالث: مدى كمال وشموليّة استقراء الفرّاء في الجزء الأوّل

المطلب الأوّل: حجم مدونة الفرّاء

المطلب الثّاني: منهج الفرّاء في مسح المادّة اللّغوية

المبحث الأوّل: مدى اعتماد الفّراء على العربيّة الفُصحى واللّغة الأدبيّة وإهماله للّهجات العربيّة

زَعَمَ المسْتَشرقون أنّ نُحاة العَرب الأوَائل أَهْملوا اللّهجَات العربيّة عِنْد تَقْعِيدهِمْ للعربيّة، فبِاْعْتِمَادِهم عَلَى اسْتِقْراء لُغَة القُرآن الكَريم، فَقَدْ اُعْتمَدُوا عَلَى لُغَة قُرَيْش لِوَحْدِها، أَوْ لَهَجَات نَجِد أَوْ لَهْجة الحِجَاز مَعَ بَعْض اللَّهَجَات النَّجْدِيَّة (*)، وبِاعْتِمَادِهم عَلَى اسْتِقْراء الشّعر العَرَبِيّ، فَقَدْ اعْتَمَدُوا عَلَى اللّغة الأدَبِيَّة الرّاقِيّة البَعِيدة عَنْ لُغَة التّخَاطب اليَوْمي لِلْعَرب، كَمَا أَطْلَق المسْتَشْرِقون علَى لُغَة قُريش اللّغة العربيّة الفُصْحَى (المشْتَرِكة)، ولِتَأْكِيد هذه المزَاعِم أَوْرَدَها قُمْنا بِتَفَحُّص الجُزْء الأوّل مِنْ مَعَاني القُرآن لِلْفرّاء وكَانَت نَتَائج ذَلِك كَمَا يَلِي:

المطلب الأوّل: إحْصَاء لَهَجَات العَرب المُعْتَمدة بَدَلَ لَهْجَة قُريش

بَعْد تَصفُّح الجُزْء الأوّل وَصَلْنَا إلى أَنّ الفرّاء لمْ يَعْتَمِد في تَحْليل مُخْتَلف المسَائِل الصَّرفيَّة/النَّحوية على لُغَة قُرَيْش لِوَحْدِها بَلْ عَثَرنا على لُغَة هذِه الأَخِيرة مرّة واحِدة. في حين وَجَدْناه قَدِ اعْتَمد عَلَى لَهَجات قَبَائِل عَدِيدَةَ تَنْتَمِي إلى خَرِيطَة الفَصَاحة، وعبّرَ عَنْها بكلمة "لُغَة"، وقد أَحْصَيْنَا مُعْظم لُغَات القَبائِل الّتي ذَكَرَها في الجزْء الأوّل، من كِتَابِه، كَمَا يُبَيِّنه الجَدْول أَدنَاه:

(*) بلاشير ذهب إلى أن لغة قريش هي لغة القرآن، رابين يراها مزيجا من لهجات العرب.

الجدول (3)

جدول يبيّن معظم القبائل العربيّة الّتي ذكرت لغتها في الجزء الأوّل من "معاني القرآن"

القبيلة الّتي ذُكِرت لغتها	الصّفحة
الحجاز	480-356-212-174
أسَد	382-356
هُذَيْل	174
سُلَيْم	323-285-174
تَميم	480-285-174-109
عُكَلْ	212
هَوازن	91
بنُو الحارث	173
عُليا قيس	91
قُضاعة	382
عُقيل	216
طَيْء	440
العَالية	232

نأخذ مثال عن لُغة بَنِي الحَارث:

في قوله تعالى: ﴿**نُنْشِرها**...﴾ [1]، بقراءة ابن عبّاس، انْشَارُهَا يَعْنِي إحْيَاؤُهَا (لِلمَوْتى)، والوَجْه مِنَ النّشر: أَنْشَر الله الْمَوتى فَنَشَروا إذَا حَيُوا، ثمّ يقول الفرّاء: "وسَمِعتُ بَعْض بَنِي الحَارِث يَقول: كَانَ بِه جَدَبٌ فَنَشَر، أَيْ عَادَ وحَيَ". [2]

بِناءً عَلَى هذه النّتائج، وَصَلْنا إلى أنّ الفرّاء باعْتِمَاده على القرآن، لَمْ يَعْتَمِد على لُغة قُريش لِوحْدِها، كَما وَصَلنا إلى أنّه اعْتَمد على لهَجات قبائل مُتعدّدة، وبِتَفَاوُت في نسبة الاعتماد عليها، حَيْثُ ذَكَر لُغَة الحِجاز، وَأَسَدَ وعُكَل، وهُدَيل، وسُلَيْم، وتَمِيم، وَهَوَازِنْ، وَعُلْيَا قَيْس، وقُضَاعة، وَطَيْء، وعُقَيْل، والعَالِية، وبَنُو الحَارِثْ، وبِهذا التّنوّع في لهَجَات العرب نُثْبِت اهْتِمام الفَرّاء الكبير بالفَوارِق اللّهْجيّة مَا أَمْكَنه، وعَدَم اعْتِمادهِ على لُغَة قُرَيْش وَحَدَها، كَمَا نعودَ فَنُذَكِّر بأَن هَذِه الفَوَارِق لاَ تَعْدُو أنْ تَكُون طَفِيفَة، وَبَسِيطَة لاَ دَخْل لَهَا في تَغْيِير الهَيْكَل العامّ للتّرْكيب العَربِيّ، وهَذَا الهَيْكل العَامّ للتّركيب هُوَ ما أَطْلَق عَلَيه عبد الرّحمن الحاج صالح لُغَة العَرَبَ جَمِيعًا، ولَعَلَّ النَّمَاذِج التّالية تُثْبِتُ ذَلِك مَا أَمْكَنَ:

أ- جاء في قولِه تعالى:﴿ **فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**﴾[3]، في هذه الآية الكريمة، يَذْكُر الفرّاء أنّ العّامّة قدْ ضمُّوا الصّاد، وَكَانَ أَصْحَاب عَبْد الله يَكْسِرُون الصَّاد، ويَقُول: "وَهُمَا لُغَتَان، فأَمَّا الضَّمُ فكَثير، وأمّا الكَسْر فَفِي هُذَيل وسُلَيم" [4]، ثمّ يُعطي شَاهِدا مِنَ القَلِيل الّذي يُكْسَر فيقول: "وَأَنْشَدَني الكِسَائِي عَنْ بَعْضِ بَنِي سُلَيْم: [5]

---

[1] سورة البقرة: الآية 259.

[2] يحي أبو زكريا، الفرّاء. معاني القرآن. ج1، ص 173.

[3] سورة البقرة: الآية 260.

[4] المرجع نفسه، ص 174.

[5] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

*وَفَرْعٍ يَصِيرُ الجِيدَ وَحْفٍ كَأنّه *** عَلَى اَلّتيتِ قِنوَانُ الكُرومِ الدَّوَالِحِ*

ومَعْنَى صُرْهُنَّ: قطّعهنّ، ويُقَالُ: وَجّهْهُنّ.

نَرَى فِي هذا المِثَال الفَرّاء يَذْكُر كَلِمَة لُغَتَان، عَلَى أنّهما طَرِيقَتَان فِي التّلفّظ بحرف الصَّاد فِي "صرهنّ" عند العرب، وأنّ كَسْر الصَّاد قَليل مُقَارنَة بالوَجْه الثّاني، وهُوَ الرّفْع، وأمّا القبائل المعنيّة بالكَسْر فَقَبِيلَتي هُديل وسُلَيْم".

ب- جاءَ في قوله تعالى: ﴿...**هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ**﴾ [1]، يَقُول الفرّاء بأنّ "بِزعْمهم في الآية جَاءَت بفَتْح الزّاي، وَهُنَاك "بزُعمهم" و"بزِعمهم"، أيْ ثَلاثَ لُغَاتٍ، وَلَمْ يَقْرأ بكسر الزّاي مَنْ نَعْلَمه، والعَرب قد تَجْعل كَلِمات في مِثل هذا، فَيقولون: الفَتْكُ، والفُتْكُ، والفِتكُ، والوَدُّ، والوُدُّ، والوِدُّ، وأجْوَدُ الأوْجُه مَا اختارهُ القُرّاء الذين يؤثر عنهم القِراءة". [2]

وقد قرأ الكِسائي، ويحيى بن وثّاب والأعْمَش بالضّم، وهو لُغة بَنِي أسد، وقرأ بالفتح الباقون، وهو لُغة أَهْل الحِجَاز. [3]

في هَذَا المِثال نَجد أنّ الفرّاء يُقدّم عَدَدَ اللُّغات، أيْ اللّهجات الّتي يَنْطِق بها العَرب كلِمَة "بزعمهم" ثمّ يقول "أجْودُ ذَلك مَا اخْتَارته القرّاء"، والأرْجَح أنّه يَقْصِد الأفْصَحَ بَيْنها، أيْ الضَّمّ، والفَتْح.

ج- جَاء في قَوله تعالى: ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا**﴾ [4]، يَقُول الفَرّاء بأنّ مَنْ شدّد "كَفّلها" جَعَلَ زكريَّا فِي مَوْضِع نَصْبِ أَيْ، يَقع عَلَيْه الفِعْل، أمَّا مَنْ خَفّف الفَاء جَعَلَ زكريّا فِي موْضِع رَفْع(أي فَاعِل)، ويَرَى أنّ في "زَكريّا" ثلاثُ

---

[1] سورة الأنعام: الآية 137.

[2] يحيى أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 356.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] سورة آل عمران: الآية 37.

لُغاتٍ، القصْر في ألفِه فلاَ يَظْهر فِيها رَفْع ولاَ نصْبٌ ولا خَفْضٌ، وتُمدُّ أَلِفه، فَتُنْصَب وتُرْفَع بِلاَ نُونٍ، لأنّه لاَ يُنَوَّنْ، وكَثير مِنْ كلام العَرب أنْ تُحْذف المدَّة واليَاءُ السَّاكنة، فيُقال: هذا زَكْرَى قَدْ جَاءَ، فيُنوَّنُ. [1]

ج- جَاء في قَوله تعالى: ﴿**جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ**﴾ [2] وَهُوَ يَعْني الفُلْك، وهُناك وَجْه ثانٍ حيْث تَعود الهاء على الرّيح والتّقدير: جاءَت الرّيح الطّيبة ريحٌ عاصِف، يَقُول الفرَّاء والعَرب تَقول: "عَاصِفٌ وعاصِفة، وقَدْ أَعْصَفَت الرّيح، وَعَصَفت، وبالألف لُغَة بَنِي أَسد" [3]، أَنْشَدَني بَعْضُ بَنِي دَبِير [*].

حَتّى إِنْ أَعْصَفَت رِيحٌ مُزَعْزِعَةٌ *** فِيهَا قِطَارٌ [**] وَرَعْدٌ صَوْته زَجِل

هـ- جاء في قَوْله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ**﴾ [4]، يَقُول الفَرَّاء: "لِلْعَرب فِي (لكن) لغتان: تَشْدِيد النّون وَإِسْكَانِها[5]، فَمَنْ شدّدها نَصَب بها الأسماء، وَلَمْ يَلِهَا "فعَلَ"، ولاَ "يفْعَلُ" وَمَنْ خفّف نُونَها، وأَسْكَنها، لم يُعْمِلها في شيء اسم، وَلاَ فِعْلٍ، وكان الّذي يَعمل في الاسْم الّذي بَعدها، ما مَعَه ينْصُبه أو يَرْفَعُه أوْ يَخْفَضه" [6]، فالفَرّاء هنا يَقْصدُ أَنْ (لكن)، قدْ تَكُون عَامِلةً أيْ مِنْ أَخَوات إنّ، وَقَدْ تَكُون غَيْر عَامِلة، وفي هذا الوَجْه الأَخِير تَأْوِيلاَت كثِيرة، وَلِيتَّضِح الأمْر، نَخْتَار مَا أُختَاره الفَرّاء مِنَ الشَّواهِد: [7]

1- ولكنْ النّاسُ أنفُسَهم يَظْلِمُون ← في هذه الحالة جاءت لكن مخففة وعملت الأفعال

2- ولكنْ اللهُ رَمَى ← المسطر تحتها في الأسْماء بَعْدَ لكن

---

[1] يحيى أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن ، ص 208.

[2] سورة يونس: الآية 22.

[3] المرجع نفسه، ص 460.

[*] بنو دبير بن مالك بن عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد (من بطون بني أسد قديما)، ينظر: ar.wikipedia.org، تم تصفح الموقع يوم: 2020/09/10، على الساعة: 01:38 صباحا.

[**] القطار جمع قطر، ما قطر وسالَ من المطر.

[4] سورة يونس: الآية 44.

[5] المرجع نفسه، ص 464.

[6] المرجع نفسه، ص 465.

[7] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- ولكنْ الشياطينُ كفروا فَرفَعَتْها.

4- ما كان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم ولكنْ رسُولَ الله: هنا يوجد إضمار "كان" بعد لكنْ، وهي ما نصَبَ "رسُولَ"، ولو كَانَ إضمار "هو": بِتَقْدِير: ولكنْ هو رسولُ الله، فإنّ رسولُ، رُفِعَت بـ "هو" المضْمَر.

كَمَا قَام الفرّاءُ بإدْراج تَفْسير قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا**﴾ [1]، على أساس لَهَجِي، حيْثُ يقول: "يريدُ اقْضِ بَيْنَنَا، وأَهْل عُمَان يُسَمّون القَاضِي الفَاتِحَ، والفَتَّاحَ". [2]

حيثُ نرى في هذا المثال أنّ الفَرّاء، أُنتقل من الفوارق الصّوتية إلى مستوى آخر، وهو المسْتوى المعْجمِي، وَتفسير هذه الآية يتوقّف على مَعْنَى "أفتح" في لُغَة أَهْل عمّان.

وخُلاَصة القَوْل، فإنّ الفَرّاء، لَمْ يُهْمِل اللّهجات، رَغْمَ أنّ فِي زَمانه، لَمْ تَكُن اللّهجات والعَربيّة الّتي نَزَل بِها القرآن بَعِيدَة عنْ بَعْضِها بُعْد لَهَجات العربيّة في أيّامها هذِه، بَلْ كَانَتْ الفَوارِقُ بَيْنهما مُجرّد اخْتلاف في بَعض الطّرق الأدائية في الكلام، في مُعْظمها، وهَذا مَا بيّناه مِنْ خلال ما وَرَد في الجُزْء الأوّل مِنْ كتابه، وذَلك التَّطابق في لغة القُرآن، ولُغة الشّعر، ولُغة التّخاطب اليومي عِنْد العَرب إلى زَمَانِه، يُفَسِّره وُجُود مُجرّد اخْتلاف فِي طُرق أداء بعض الكَلِمَات بَيْنَ بَعْض القَبائل العربيّة إلى حدٍّ مَا.

المطلب الثّاني: مصادر المادّة اللّغوية في الجزء الأوّل من الكتاب ومدى تطابق لُغتها

أوّلا: مصادر المادّة اللّغوية

إنّ إحْصاء مصادر المادّة اللّغوية المعتمدة مِنْ طرف الفرّاء، مكّننا من رصد مصادر اللّغة لمادّته وهي كالتّالي:

أ- القرآن الكريم بقراءاته وبِنسِبة عالية.

---

[1] سورة الأعراف: الآية 89.

[2] يحيى أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص385.

[*] ذكر السّيوطي في المزْهرْ أنّ الأحاديث الّتي اعتمدَها النّحاة هي القصيرة منها، وكان الاعتماد ضعيفًا جدا.

ب- الحديث الشّريف، وبِنسْبة ضَئيلة جدا.(*)

ج- كلام العرب شعرًا ونثرًا، أمّا الشّعر فَنِسْبة عَالية، وأمّا النّثر، فيُمثّل أعْلَى نِسْبة بينَ كلّ المصَادر، وذَلك لضمّه الأمْثلة التّوضيحيّة، وكلّ ما أوْرَدَه مِنْ كلام العرب.

ونظرا للتّطرّق لمخْتلف المصادر، والنّماذج من الجزْء الأوّل من الكتاب، في الفصل الثّاني، من هذا البحث، نكتفي بهذا القدَر في هذا المطلب.

ثانيّا: إثبات تطابق لغة القرآن والشّعر والتّخاطب اليومي

إنّ عمليّة الإحْصاء الّتي قُمْنا بِها فيما يخصّ لهجات العرب من جهة، ومصادر شَواهد الفرّاء من جهة أخرى تَقُودنا إلى القَوْل بأنّ لُغَة القُرآن، ولُغَة الشّعر، ولُغَة التّخاطب اليَومي متطابقة، وتُمثّل لُغة العرب جميعا، كما أَطْلق عليها عبد الرّحمن الحاج صالح، والدّليل على ذلك أنّ الفرّاء لمْ يَجِد عَنَاء في الإتْيان بالشّواهد مُخْتلفة المِصادر، فهو يَنْتَهِج مَنهج الانْتقال مِنْ مَصدر إلى آخر دُون تردّد ولا حَرَج، حيْثُ يَنْتقل مُباشرة في الاسْتشهاد بالنّثر على القرآن الكريم، كما يستشهد بالقرآن على النّثر، والشّعر، وعلى الشّعر بالنّثر، وعلى النّثر بالشّعر، في اسْتِرسَال، وتَنَاوب عجيبَيْنِ لاَ يُفَسِّران إلا بِتَسَاوِي مُستوى اللّغة في المصادر الثّلاثة للشّواهد، ولإثبات ما توصّلنا إليه، نختار هذه النّماذِج من الجزء الأوّل:

أ-الانتقال من النثر إلى القرآن:

جاءَ في قوله تعالى:﴿**آلم(1)ذَلِكَ الْكِتَابُ**﴾ [1]، قَدّم الفَرّاء أحَدَ وَجْهَي التّفْسير، فقال: «...والآخَرُ أنْ يَكُون "ذلك" على مَعْنَى يَصْلُح فيه "هَذَا" وهو يَقْصِد أنّ" هَذا" و"ذلك" تَصْلُحان في هذا المقام قَبْل "الكِتَاب". ويُقدّم مثالاً فيَقول: ألاَ تَرَى أنّك تقول: قدْ قَدِم فُلان، فيقول السَّامع: قد بَلَغَنَا ذَلك، وقدْ بَلَغْنا هذا الخَبَر،

[1] سورة البقرة: الآيتان 01- 02.

فصَلُحَتْ فيه "هَذا"، لأنّه قَدْ قَرُبَ مِنْ جَوابه، فصَار كالحَاضِر الّذي تُشير إليه، وصَلُحَتْ فيه "ذَلِك" لانْقِضَائه» [1]

ثمّ يَسْتَشْهِد بالقرآن الكريم، فَيسُوق آيات كثيرة نَحْوَ: [2]

- ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾إلى قوله:﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾، ثمّ يَقول:﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾. [3]
- ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ ثمّ يقول: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾. [4]
- ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ ثمّ يقول: ﴿ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. [5]

وبَعْد ذِكْره لهذه الشّواهد القرآنية بعد التّمثيل بمثال نَعْتبره من النّثر، يَقُول: وَلَوْ قِيلَ في مِثْله مِنَ الكَلاَم فِي مَوْضِع "ذَلك": "هَذا" أوْ فِي مَوْضع "هذا": "ذلك" لكَان صوابا [6]، وهُوَ يَقْصد بـ "في مثله من الكلام" بكَلاَم العَرب طَبْعا، ثمّ يَنْتقِل مرّة أُخْرى إلى القِراءات القُرآنية في هذا المقام، فَيَسْتشهد بِقَوْلِه: وفي قراءة عبد الله بن مسعود "هذا فذُوقُوه " وفي قِراءتنا [*]﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ [7].

ولو كان للقرآن لُغَة تَخْتَلف عن لُغة التّواصل في زَمن الفَرّاء، مَا سَهُل علَيه الإنْتقال من التَّمثيل بِمثال، إلى الإتْيان بشَاهِد قُرآني ثمّ إلى لتَأْكِيد صحّة ذلك من كلام العرب.

---

[1] يحيى أبو زكريا، الفراء، معاني القرآن، ج1، ص 10.
[2] المرجع نفسه، ص 11.
[3] سورة ص: الآيات 45-49.
[4] سورة ص: الآيتان 52-53.
[5] سورة ق: الآية 19.
[6] المرجع نفسه، ص 11.
[*] يقصد قراءة أهل الكوفة.
[7] سورة الأنفال: الآية 14.

ب- الانتقال من القرآن إلى الشّعر:

جَاء في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ**﴾ [1]

هُنَا، نَجِد أنّ الفَرّاء وَحّد الكافِر وسَبَقَه بِجَمْع، يَقُول: «وَذَلِكَ من كلاَم العَرب فَصِيحٌ جيّدٌ في الاسْم إذَا كَان مُشتقًّا من فِعْل، مثل الفاعل والمفعول، يُراد بِه ولا تَكُونُوا أوّل مَنْ يَكفُر فَتُحْذَف "مَنْ" ويَقُوم الفِعْل مَقَامَها فيؤدّي الفِعْل عَنْ مثل مَا أَدَّت "مَنْ" عنه مِنَ التَّأْنِيث والجَمْع وهُوَ في لفظ توحيد». [2] وَيَسْتَشْهِد الفرّاء من كلام العرب بقول الشاعر: [3]

وإذا هُمْ طَعِمُوا فَأَلْأَمُ طَاعِمٍ *** وإذا هُمْ جَاعُوا فشرُّ جِيَاعِ [*]

نَجِد في هذا الشّاهد كلِمة "طاعم" جَاءَتْ مُفْردة ومَا قَبْلَها جَمْعٌ، فِي حين كَلِمة "جِيَاع" جَاءَت جَمْعًا ومَا قَبْلَها جَمْعٌ، وقَدْ علّق الفرّاء على ذلك قائِلاً: «فجَمْعُه وَتَوْحِيدُه جَائِزٌ حَسَنَ» [4]، حيثُ بيّن جَوَازَ الوَجْهَيْن في العربيّة.

ج- الانتقال من النّثر إلى الشّعر:

جَاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ**﴾ [5]، وقدْ فسّر الفرّاء "الّذي يَنْعِق" بالبَهائِم" حيثُ أنّ الكُفّار لاَ يَفْقَهُون مِمّا جاء في القُرآن شيْئا تماما كالبَهائم الّتي لا تَعْلَم مِنْ أوَامِر الرّاعي شَيْئا [6]، ثُمّ قال:

---

[1] سورة البقرة: الآية 41.

[2] يحي أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 33.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[*] نُسِب البيت إلى رجل باهلي (راجع نواد رأيي زيد، ص 152).

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5] سورة البقرة: الآية 171.

[6] المرجع نفسه، ص 99.

قال: "وَهُو ظَاهِرُ فِي كلام العَرب أنْ يَقُولُوا: فُلاَنٌ يَخَافُكَ كَخَوْف الأسَد، والمعْنَى كخَوْفه مِنَ الأسَد لأنّ الأسَد هو المعْروف بأنّه المخُوف" [1]، لَمْ يَأتِي بِمِثَال مِنَ الشّعر يُثْبِتُ سُنَّة العَرب في ذلك، يَقول الشّاعر: [2]

لَقَدْ خِفْتُ حتّى مَا تَزِيدَ مَخَافَتي * عَلَى وَعْلٍ فِي ذِي المَطَارة عَاقِلِ**

والمعنى هنا: حتّى مَا تَزِيدَ مَخَافَةُ وَعْلٍ عَلَى مخافتي.

والأمثِلة كثيرة يَتَعذَّر ذِكْرُها نَظَرا لطَبيعة البَحْثِ وحَجْمِه، حيْث أنَّها تُبين مَنْهَجَ الفَرّاء الّذي يَنْتَقِل مِنْ مَصْدرٍ لآخَر، لإثْبَاتَ مَا يَذْهَب إليه، وَهَذَا يُؤَكِّد أنّ لُغَة القرآن، ولُغَة الشِّعر، ولُغَة التّخاطب اليَومي كانَتْ في مُسْتوى واحِد، وَوَفّرت بِذلِك على الفَرّاء، عناءَ البَحْث عن الشّواهد أَثْناء إمْلاَئِه العَفْوِي لكِتابِه فِي مَجْلِسِه.

المبحث الثّاني: مدى تشدّد الفرّاء في الرّواية ومدى ضبطه للسّند

المطلب الأوّل: مدى تشدّد الفرّاء في الرّواية

كانت رواية الشّعر في زمان الفرّاء تُؤْخذ بطريقتين، كما ذكرنا في الجُزء النّظري من هذا البحث، وهما المشافهة المباشِرة للأعْراب الفُصحاء، أَوْ السّماع عن الرّواة الثّقات، الّذين سمِعوا وَرَوَوْا عنِ العرب الفُصحاء، وكان بِنفسه قد خَرَجَ إلى ميْدان التّحريات، واحْتَرَم الحدُود المكانيّة للبيئة السّليقيّة الفَصِيحة، وسنعرض بَعضًا منْ سُلُوكاته في جَمْعِ المادّة، تَمكنًّا من رصدها في الجُزْء الأوّل مِنْ "مَعَاني القرآن".

أوّلاً: سماعه مِنْ فُصحاء العَرب

جابَ الفرّاء شبه جزيرة العَرب، وأخَذَ عن فُصَحائِها، وقدْ أقام زَمَنًا بَيْنَ فُصَحاء الأعْراب كما رأينا سَابقا ليَسْمَع مِنْهم، وَقَدْ سَمِعَ عَنْ فُصحاء القَبائل عامّة، أَوْ عنْ فُصَحَاء الأعْرَاب بِصِفَة خَاصّة، ومِنْ أمْثِلة القَبائل الّتي

[1] يحي أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص99.

[2] البيت للنابغة الذبياني موجود في ديوانه.

سَمِع مِنْ أهْلِها قَبيلة أسَد، ورَبيعة، وعُقيل، وَغيْرها مِنَ القَبائل الفَصِيحة، ودَلِيلُنا عَلى هَذا مِنَ الجُزْء الأوَّل مِنْ كِتَابِه هذه الأمْثِلة الّتي سَنَسُوقُهَا الآن:

أ- أنْشَدَنِي بَعْضُ بَني كلاب. [1]

بَاسِلة الوَقْع سَرابِيلها *** بِيضٌ إلى دَانِئِها الظَّاهِر [*]

ب- سَمِعْت كَثيرًا مِنْ بني أَسَد يُسَمِّي المغَافير[**] المغَاثِير. [2]

ج- وَأَنْشَدني بَعْضُ بني عقيل. [3]

فُقُلْنا السّلام فُاتّقت مِنْ أَمِيرها *** فَما كَانَ إلَّا وَمُوَهَا بِالحَواجِبِ

د- وأنْشَدَنِي بَعْض رَبيعة: [4]

وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبارِ مَنْ لَمْ تَبعْ لَهُ *** بَتاتًا وَلَمْ تَضْرِب له وَقْتَ مَوْعدِ[***]

هـ- قَالَ بعض بَنِي عبَس: [5]

أَلَمْ يَأْتيك وَالأَنْبَاء تَنمِي *** بما لاقَتْ لُبونُ بَنِي زِياد

---

[1] يحي أبو زكريا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص 42.

[*] البيت من قصيدة طويلة للأعشى قالها في مُنَافرة.

[**] هو صمغ يخرج من شجر الرّمث، وهو حلو يؤكل، لكنّ ريحُه ليس طيّبا.

[2] المرجع نفسه، ص 41.

[3] المرجع نفسه، ص40.

[4] المرجع نفسه، ص 56.

[***] البيت من ملعقة طرفة بن العبد.

[5] المرجع نفسه، ص 161.

و- وأنشدني بعض بَنِي حَنِيفَة: [1]

قَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِهَا وَمَا اسْتَوى *** هُزِّي إِلَيكِ الجِذْع يَجْنِيك الجَنَى

وهذه القبائل لاَ تمثّل إلاّ قِسطًا يسيرًا مِنَ القبائل الّتي سَمِع عنْها الفرّاء مباشرة، طَلَبًا للمادّة اللّغوية السّليمة الّتي تُعينه على التّقعيد للّغة العربيّة، ولَوْ لَمْ يَكُن الفرّاء أَمِينًا في نقل مَرْوياته، لما ذَكَرَ كلَّ قَبِيلة شَاهَدَهَا، لأنّه عِنْدَمَا لَمْ يَكُن مُتَأَكّدًا مِنَ القَائِل، كَانَ يَقُول: سَمِعْتُ بَعْضُ العَرَبِ، أَنْشَدَنِي بَعْضُهُم، وَغَيْرِهَا منَ العِبَارات.

ثانيّا: سَمَاعَه من فُصَحَاء الأعْراب وَالرُّواة الثُّقاة

وقَدْ سَمِعَ الفَرَّاء مُبَاشرة من فُصَحَاء الأعْرابَ، والرّواة الثُّقاة، وَذكر أَسْماءَهم في الجُزْء الأوّل، نَذْكُر مِنْهم على سبيل التّمثِيل لاَ الحَصْر:

أ- أَنْشَدَنِي المفَضَّل: [2] (منْ أَنْقَى الرّواة وأحَدْ أسَاتِذَتِه)

حَسِبْتُ بُغَامَ رَاحِلتي عَناقًا *** وَما هِي وَيْبَ غَيْرك بالعَناقِ(*)

ب- أَنْشَدَنِي أَبُو القَمْقَامِ الفَقْعَسِي: [3] (منْ فُصَحَاء الأعْرَاب)

كَأَنَّ مَكَاكِيّ الجِوَاءِ غُدِيَّةً *** نَشاوى تَسَاقَوا بالرياح المُفَلفل(**)

ج- أَنْشَدَنِي الحارثي: [4] (أعرابي فصيح)

---

[1] يحي أبو زكريا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص161.

[2] المرجع نفسه، ص ص 61-62.

(*) البيت لذي الخرق الطهوي وهو فيه يخاطب ذئباً تبعه في طريقه في الصحراء.

[3] المرجع نفسه، ص 468.

(**) البيت من معلقة امرئ القيس.

[4] المرجع نفسه، ص 369.

تعلّمتُ بَاجَادَ وَآلَ مَرامِرٍ *** وسوّدتُ أثْوَابي ولَسْت بكاتب(*)

د- أنْشَدني أبُو ثَرْوان: [1](أعرابي فصيح)

مَا كان مُنْذُ تَرَكْنَا أهْلَ أَسْنُمةٍ *** إلاَّ الوجيفَ لهَا رَعْيٌ ولاَ عَلَفُ(**)

هـ- وكانَ الكَسَائِيّ يقول: "مَا" و"أُشْتَرَوا" بِمَنْزِلة اسْم وَاحد، قائمٍ بنَفسه، والتّقدير: بئس أُشتراؤهم أنْ يَكْفُروا[2]، وهذه أحد النّقاط الّتي يعارض الفرّاء فِيها أسْتاذه الكَسَائِي.

حيث يرى أنّ بِئْس لاَ يَلِيها مَرْفُوع مُؤَقَّت وَلاَ مَنْصُوب مُؤَقَّت، يقول الفَرّاء: وقد أجَازَهُ الكَسَائِي في كِتَابِه علَى هَذَا المذْهَب، وَأَنَا لاَ أُجِيزُه. [3]

كما روى الفرّاء عنِ العَربِ، و ذَكَر ذَلِك علَى صِيغَة العُمُوم كَأَنْ تَجِد فِي كِتَابِه: سَمِعْتُ الَعَربَ تَقُول، وأنْشَدِنِي بَعْضُ العَربَ وَغَيْرِها.

وبناء على ما تقدم من مختارات مِن الجزء الأوّل، يتأكّد لنا مدى صِدْقِه في الرّواية، ونِسْبة المرويّات إلى قائِليها.

المطلب الثّاني: مَدَى ضَبْط الفرّاء للسّند

بعد تصفّحنا للجُزْء الأوّل من "معاني القرآن"، تَبيّن لنا أنّ الفرّاء ينْسِب للمرويّات المبَاشرة إلى أصْحَابِها، أمّا المرويّات الّتي تَحْتَاج إلى سَنَد، فَهُوَ يُرَكّز عَلَى نِسْبَتِهَا إلى أصْحَابِهَا مُحْتَرِمًا سِلْسلَة الرّواة المأْخُوذِ عنْهم حتّى وَصَلَتْ

(*) البيت لم يذكر له قائل في الكتاب، فهو مجهول القائل.

(1)يحي أبو زكريا، الفرّاء. معاني القرآن، ج1، ص 168.

(**) من قصيدة لجرير يمدح فيها يزيد بن عبد الملك، ويهجو آل المهلب.

(2) المرجع نفسه، ص 56.

(3)المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

إليه، وهَذَا دَلِيل على مَدَى تَحَرِّجه في الرّوايَة، واجْتِهاده في ضَبْطِ السَّند وتَشدُّده في مدى صِدق المَرْويَّات، وكِتَابه حَافِلٌ بالأمثلة الدّالة على ذلك، ونختار على سَبيل تأْكِيد مَا نَقُوله عن الفرّاء في هذَا الشَّأن:

أ- في قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى**﴾ [1]، يَرى الفرّاء أنّ "الحُسْنى" في مَوْضِع رَفع، ويَشْرَح مَعْناها فيقول: يُقَالُ أنّ الحُسْنى الحَسَنة (وزيادة) حدّثنا مُحمّد قال حدّثنا الفرّاء قال حدّثني أبو الأحْوَص سَلاّم بن سُلَيم عنْ أبي إسْحاق السّبيعي عنْ رَجُلٍ عنْ أبِي بَكْر الصّديق رَحِمه الله قال: للّذين أَحْسَنوا الحُسْنَى وزِيادَةً، النَّظر إلى وجه الرّب تَبَارك وتَعَالى. ويقال: (للّذين أحْسَنُوا الحُسْنى) يُرِيد حَسَنة مِثْل حَسَناتهم (وزيادة) زِيَّادة التَّضْعِيف كقوله: ﴿**فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ [2]. [3]

في هذا المثال، نُلاَحِظ أنّ الفرّاء، يَتَحرَّى الصِّدْق والضَّبْط في السَّنَد مَا أَمْكَنه حتّى يَصِل إلى أَبِي بَكْر رضِي الله عَنْه، وكذلك تِلْمِيذُه مُحمّد بن الجهم، يتّبعه فِي ذلك فَيقول "حدّثنا الفراء"، وكذلك مَنْ رَوَى عَنْهُمَا يقول: "حدّثنا محمّد قال حدّثنا الفرّاء"، وكلّ ذلك إنْ دلّ على شيء، إنَّمَا يَدُلّ على سُنّة النُّحاة الأوّلين في التَّشدُّد والتَّحرُّج في الرّواية.

ب- في قوله تعالى: ﴿....**وَأَرْجُلَكُمْ**﴾ [4]، وهيَّ مَرْدُودَة على الوُجُوه، أيْ مَعْطوفَة على "وُجوهَكم"، قال الفرّاء، وَحَدَّثني قَيْس[*] بنْ الرَّبيع عنْ عَاصِم [**] عَنْ زِرٍّ عن عَبد الله بنَ مَسْعُود أنَّه قَرأَ (وأرجلَكم) مقدّم ومؤخّر [***]، قال الفرَّاء: وحدّثني محمد بن أبان القريشي [****]عن أبي إسحاق الهمداني[*****]

---

[1] سورة يونس: الآية 26.

[2] سورة الأنعام: الآية 160.

[3] يحيى أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 461.

[4] سورة المائدة: الآية 6.

[*] قيسب بن الربيع الأسدي الكوفي، ت 165 هـ.

[**] بن بهدلة الكوفي، أحد القراء السبعة.

[***] يقصد عطف "أرجلكم" وهي متأخرة على "وجوهكم" وفيه تقديم لـ "وأمسحوا برؤسكم".

[****] مات 139 هـ.

عن رجل عن عليّ أنه قال: نزل الكتاب بالمسح، والسّنة الغَسْلُ [1]، قال الفرّاء: وحدّثني أبُو شِهاب[*2] عنْ رَجُلٍ عنْ الشّعْبِيّ قَالَ: نَزَلَ جِبْرِيل عَلَيْه السّلام بالمِسْح على محمّد صلّى الله عليه وسلّم وعلى جميع الأنْبِياء، قال الفرّاء: السّنة الغَسْل.

في هذه الآية، يَظْهر لنا حِرْص الفرّاء الشّديد على صحّة السّند، حتى يصل إلى أَوَّل رَاوٍ عَنْ الرَّسُول صلّى الله عليه وسلّم، وذلك من أجل ضبط الرّواية، ومِنْهُ، ضبْط الحَرَكَة الإعْرابية الّتي تُبَيّن حُكْم "الأرْجُل" في الوُضوء، وهذَا إنْ دَلَّ على شَيْء، إنّما يَدُلّ على تَحَرُّجِه في الرّواية واجْتِهَاده في ضَبْط المرويّات، خاصّة، وهو يشْتغل على كتاب الله، الّذي لا يَسْمَح بالعَبَثْ والخَطأ في تَفْسِيرِه ولاَ في ذِكْر الأحْكَام الصَّادرة عنه.

ومُجْمَل القَوْل، فإنّ الفرّاء في هذا الجُزْء من الكِتَاب، يَبْدُو مِثَالَ العَالِم المتَحرِّج في رواية مَرْوِيّاته، المدقِّق في نِسْبَتِها إلى أصْحَابِها، فإنْ كَانَتْ عنَ بَعضِ عامّة العرب، قال"سَمِعْت عنِ العرب، و"أنْشَدني بعض العَرب"، و... وإنْ كانَت عنْ بَعْض القبائِل، ذَكَر اسْم القبيلة مسبوقة بـ "أنْشَدَنِي بَعْضُ بَنِي"، وإنْ كَانَتْ عنْ أحَد فُصَحَاء الأعْراب أو الرّواة، لم يَتردَّد في ذِكر اسْمِه، كأَبِي ثرْوان، والكِسَائي وَغَيْرِهِمَا، أمَّا إذَا كَانت المرْويَّات تحتاج إلى دِقَّة عاليَّة في السَّند[**]تَجِده يَنْسِبها إلى صَاحِبِهَا بَدْءًا بمنْ أَخْبَرَه أيّاها وُصَولاً إلى أصْلِها، لأنّ هذه المرويّات فِي مُعْظم الأحْيَان تَتَعلَّق بِقِرَاءَات قُرآنية أوْ بِحَرَكَات إعْرابية، يُبنى عَلَى أسَاسِها حُكْم شَرْعِيّ، وَارِد في آيات فِقْه العِبَادَات وَغَيْرِها، ومنه، ضَرورة التّحرّج في الرّواية، وَضَبْط السّند أمرٌ مطلوبٌ جِدًّا.

وأَمَّا عنْ مَدَى صِحّة الأشْعَار الّتي كَانَ يَرْوِيها عَن العَرب، فالنّحاة فِي زمانه يَنْطَلِقون مِنْ فِكْرة أنّ الشّعر هُوَ دِيوَان العَرب، الحَافِظ لذَاكِرتِهم، المؤرّخ ليَومِيَاتِهم مُنْذ الزمَّن البَعِيد.

---

[*] هو عمرو بن عبد الله السبيعي، ت 128.

[1] يحي أبو زكريا، الفراء. معاني القرآن، ج1، ص 302.

[2] المرجع نفسه، ص ص 302-303.

[**] ينظر: معاني القرآن، ج1، ص 320 للإستزادة في مَسْأَلة ضبْط السّند.

المبحث الثالث: مدى كمال وشمولية اِستقراء الفرّاء في الجزء الأوّل من "معاني القرآن"

بَعْدَ أنْ أَثْبَتْنا أنّ الفرّاء كان قد اعْتمد على لُغة كلّ العَرب فِي التّقْعيد للعربيّة، حيثُ جَعَل شواهِدَه مِنْ مُخْتلف مَصَادِر المسْمُوع (القُرآن وقِراءاته، الحَديث، كَلاَم العرب)، وَبعْد أَنْ أَثْبَتْنا مَدَى اعْتِمَادِه علَى الفَوارِق الأدائية للْكَلاَمِ بيْن العَرب، قُمْنَا بإثْبات مَدَى تَحَرُّجه في الرِّواية المبَاشرة وَنَقل مَسْمُوعه منْسُوبًا إلى أصْحَابه، كَمَا أَثْبَتنا مَدَى تَحَرُّجه في نقل ما يرويه الرّواة، صار الوقت مُناسِبًا للحدِيث عَنْ مَنْهج الفَرّاء في التّعامُل مَعَ مَا جَمَعه مِنْ مادّة لُغوية، والسّؤال الّذي نَطْرَحُه هُوَ مَا مَدَى صِدْق المسْتشرقين فِي اتّهام اسْتِقْراء النّحاة الأوَائل بالنّقص؟ والمادّة اللّغوية المسْتَقْرَاة بالمحْدُودَة؟

إنّ التّصفّح الدّقيق والشّامل للجُزء الأوّل مِنْ معاني القُرآن، قدّم لنا صورة واضحة عنْ مَنهج الفَرّاء الاسْتقرائي، كمَا بيّن لَنَا صُورَة المادّة اللُّغوية الّتي اعْتَمَدَها الفَرَّاء، والّتي بِموجَبها يُمكن الحُكْم عَلَى حَجْم المدوّنة المعْتمدة في التّقعيد للعربيّة، وَمَدى نَجَاعَتها، وطَبِيعة الاسْتِقْراء الّذي قامَ به الفرّاء ومَدَى سلامة مَنْهجه في ذلك.

المطلب الأوّل:[*] حجم مدونة الفرّاء

مِن خِلال هذَا البَحث توصّلنا إلى أنّ الفرّاء، خرج إلى ميْدان التّحريّات، وسَمِع عَنْ فُصحاء العرب، وتوسّع في الرّواية حتّى رَوى شعْرا مجْهولاً قائِلة، كَمَا رَوى البَيْت الوَاحِد، وقد اعتدّ بشِعر طبقات كلّ الشّعراء، كَمَا سَمِع كلاَم العَرب، وسَمِع عنْ مُختلف القبائل، كما ذَكَرنا بالتّفصيل في المبْحث الأوّل منْ هذا الفصْل، نذكُر منْها قبائِل الحِجَاز، وأسَد، وهُذيْل، وتَميم، وهَوازن، وقُضَاعة، وعُقَبل، وَطَيْء، وغَيْرها، والملاَحظ المدقّق لهذه القَبائل يلْمس مَدَى شَساعة المِساحة الّتي نَقل الفَرَّاء عنها كلام العرب، حيْث جالَ في قبائِل شمال الجَزيرة العربيّة، وَوَسَطِها

[*] هذا المطلب يمثل في مجمله اِستنتاجات توصلا إليها بناء على المبحث الأول والثاني من هذا الفصل، لذلك لا نعتمد على التهميش والإحالة إلى المراجع.

وجَنُوبِها واعتمد على شِعر شُعراء من كلّ هذه القبائل، وهذا العمل بمثابة مَسْحٌ شِبْه شَامِل للنّاطِقين بالعربيّة، لذلك يُمكن لنا أن نَسِمَ اسْتِقْراء الفرّاء بالوَاسِع.

وبالإضافة إلى اتّساع رُقعة المادّة اللّغوية، يُمْكن لنا الاعتماد على تنوّعها في الحُكم على نَوْع الاسْتقراء الّذي قام به الفرّاء، حيْثُ وجَدْنا عند البَحْث عن مصادِر المسْمُوع والشّاهد، أنّها جِدّ مُتَنوّعة تتكوّن مِنَ القُرآن الكريم وقراءاته، بصفته أفصح نصّ عربي على وجه الأرض، وبَعْضَ أحَادِيث رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم القصيرة وهو أفْصَح العربِ، وكلامِ العَرب شِعْره ونَثْرِه من أفْواه أفْصَح العَرب، مجموعًا مِنْ بَيْئَتِه السّليقيّة مُباشرة أوْ مَرْوِيا من طرف أوْثَقَ الرّواة وأتْقَاهُم.

إنّ هذا التنوّع في المادّة اللُّغوية، وَفّر للفَرّاء مُدوّنة ضخمة اشْتغل عليها، واسْتقرَأها ليصل بذلك إلى قواعد اللّغة العربيّة بالتّفصيل والاسْتدلال، حيثُ يُمْكن لنا القَوْل باتّساع اسْتِقرائه بِنَاءً على اتّساع مدوّنته الضّخمة.

كما يُمكننا إضَافة عامل الزّمن الّذي يَلْعب دَوْرًا كَبيرًا في إثْبَات سِعة المدوّنة، حيْثُ نَجِد الفرَّاء (ت 207 هـ) مُتأخرًّا نِسبيًّا عن الخليل (ت 170 هـ) وسِيبويه ت (180 هـ)، وهُما مُؤسّسَا النّحو البصري، وسَبقاه إلى ميْدَان التّحريّات، وجَمْع اللّغة، بِهدف التّقعيد للعربيّة، هذا السّبق كان له الفضْل في ميلاد أوّل كتاب في النّحو العربي وَهُوَ "الكتاب" لسِيبويه، وهو كما قال الّذين جاؤوا من بعده، لَمْ يَسْبقه وَلَمْ يَأتِ بَعْدَه كتاب أفْضَل منه، ومادّته غزيرة جِدًّا، جَمَعَ فيها صَاحبه أقْوال النُّحاة المؤسّسين مِنْ أساتذته وكَلام العَرب، على أوْسَع نطاق. هذا الكتاب، كَمَا رأينا في الفَصْل الخَاصّ بِتَقْدِيم "الفرّاء"، وتقديم كتاب "معاني القرآن"، لَمْ يكن يُفَارق الفرّاء، حيْث كَانَ يَحْتَفِظ به تحت بِسَاطِه. هذا الاهْتِمام الكبير الّذي أوْلاَه الفَّراء لهذا الكتاب، هو اهْتِمام بما جَاء فيه مِنْ مادَّة لُغويّة، حيْثُ وَثِقَ في جامِعِيها، وأضَافَها إلى مَا جَمَعَهُ هُوَ والكِسائي وأسّس النّحو الكوفي، وأبْهَر النُّحاة مِنْ بعدِه، وَأَبْدَع كتاب "معاني القُرآن"، الّذي اشْتَغلنا على جُزْئِه الأوّل، ووقَفْنا على أدقّ تفاصيله الّتي تُمَيِّزُه باتّساع مادّته اللُّغوية، وعَثَرْنا على دلائل كثيرة تُبَرهن عَلَى سِعة مدوّنته، وشموليّة اسْتِقرائه إلى حدّ كبير نلخّصها فيما يلي:

1- تنوّع مصادر مادّته [*](قُمْنَا بِذِكْرِها في الفَصْلِ الثّاني، من هذا الباب، ولاَ دَاعِي للتَّكْرار).

2- اتساع رُقعة المسْموع المكانيّة:[**] ذُكِر في الجُزء الأوّل مجموعة من القَبائِل المأْخُوذ عنهم مثل: بَنُو الحَارِث، وبنُو حُنَيفة، وبَنُو عَامر، وبنُو كِلاب، وبنُو أسَد وغيرها.

3- اتساع رُقعة المسْموع الزَّمانيَّة:[***] حيْث احْتجَّ بشِعر كلّ الطّبقات إلى زَمَانِه.

المطلب الثّاني: منهج الفرّاء في مسح المادّة اللّغوية

لقد بيّنا في المبْحَث الأوّل، من هذا الفصل أنّ الفرّاء كَان يَنْتَقِل بسُهولة ويُسْرٍ، عِند اسْتِشْهَاده على مسألة مِنْ مسائل النّحو، مِنْ مَصْدَرٍ للشّواهد، إلى مَصْدَرٍ آخر[****]، وذلك لِعِلْمِه بأنّ لُغة القُرآن هِيّ ذاتُهَا لُغة العَرب في زَمَانِه، سَواء في نَمطِها المنْظوم أو في نمطِها المنْثور، ولَوْ كَانَ هُنَاك اخْتلاف بَيْنِها لَفِطن عَالِمٌ بِحَجْمِ عِلْمِه وَحِسّه الكبير إلى ذلك، ولَصَرّح به دُونَما تردّد.

إنّ تماثل لُغة مُختلف مَصَادر مادّة الفرّاء اللُّغوية في الجزء الأوّل، مكّنه مِنْ عَمليّة مَسْح شِبْه شَامِل لِمَا جَمَعَه من مادّة، وبذَلك تَمكّن منْ انْتِقَاء شواهده بكلّ دِقَّة، نَاسِبًا إيَّاهَا إلى أصْحَابها[*****]، وعمليّة المسْحِ، هذِه، تُمكّننا بدورها مِنَ الحُكْمِ على اسْتِقْرائِه بِالوَاسِع.

وإنّ كثْرة تردّد عبارات مثل: "والعَرَب تقول"، ومثل "قَوْل العَرب"، و"مِثْلُه في الكَلاَم"، تدلّ على مَدَى دِراية الفرَّاء بلُغة العَرب، ومَدَى تَمَاثُل كلام العرب في زمانه، رغم وُرُود بعض الفَوارِق المتمَثّلة في اخْتِلاف الطّرق الأدائية

---

[*] فصلنا في ذلك في الفصل الثاني من الباب الثاني.

[**]فصّلنا في ذلك، في المبحث الأوّل من الفصل الثّالث من هذا الباب.

[***] فصّلنا في ذلك، في الفصل الثّاني من هذا الباب عند الحديث عن الشّعر بصفته مصدر المسموع والشّاهد.

[****] كنا قد بيّنا في المبحث الأوّل من الفصل الثّالث ذلك بأمثلة من الجزء الأوّل من معاني القرآن.

[*****] رأينا ذلك عند الحديث عن المشافهة المباشرة والرّواية عن القبائل العربيّة في هذا الباب.

لِبَعْض الكَلِمَات في عُمُومِها، هذه الدّراية بِلُغة العرب الّتي اكتسبها مِنْ مُخالطته لفُصائحهم، وإقامته في بيْئَاتِهم الفصيحة لمدّة طويلة، سهّلت عليه بالضّرورة جَمْع المادّة على نِطاق واسع، والتّمييز بين فَصِيحِها، ومَلْحُونِها، ثمّ اسْتِقْرَائِها، والوصول إلى القواعد العامّة الّتي تَحْكُم اللُّغة العربيّة.

وبناء عَلَى مَا طَرحْناه في هذا المبْحث الّذي جاء في مُجمله استنتاجات لِمَا قدّمْناه في المبحث الخاصّ بِلُغَة المادّة اللُّغوية، وعَدَمِ إهماله للفَوارِق اللّهجية من جهة، ولِمَا قَدّمناه في المبْحَث الخّاص بالمرويّات، ومَدَى تَحَرُّجْ الفرّاء في الرّواية والأخْذِ عن الرّواة، نَصل إلى أنّ الفرّاء قام بمسْح شِبه شامل لِلُغة العرب، حيث جَالَ في أصْقاع شبه الجزيرة العربيّة وجَمْع لُغَة العَرب بِطرِيقَتَين، كما اعْتَمَد على مادّة كِتاب سيبويه البصَري، ومنه فَمَنْهَجَهُ العِلْمي المتَمثّل في الجمع، ثم الدّراسة القائمة على التّفْكِيك، والتّرتيب، والتّصنيف، والتّحليل، ثمّ الاسْتِنتاج، يُمثّل اسْتقراء واسِعًا للمادّة اللّغوية، تمامًا كما تُنادي به اللّسانيّات الوصفيّة الحديثة، والمنهج بهذه الكيفيّة سليم مَبْدئيا، طَالَمَا أنّ الفَرّاء قد عاش في زمان يَفْتَقِر فيه العُلمَاء إلى مناهج عِلْميَّة مُنظّر لها، ينتهجُونَها للوُصُول إلى الحقائق، وتُهَم المسْتَشْرقين بخصوص الاسْتِقراء النّاقص، والمادّة اللُّغوية المحدودة مَرْدُودَة، كون الأدلّة مِنَ الجزء الأوّل تُنَاقِض ما ذَهَبُوا إليه وتُفَنِّد مزاعِمهم، والأَوْلى للباحثين اليَوم، العودة إلى باقي كُتب التّراث لتأكيد ما ذهبنا إليه مِنْ آراء، في هذا البحث وإنصاف العَرب عِنْد إصدارِ أيّ حُكْم بِشَأْن مُدَوّنَتِهم الّتي اشْتَغَلُوا عليها، وَمَنْهَجِهِمِ الّذي سَارُوا عليه عند تقعيدهم للعربيّة، خَاصَّة وأنّ الدَّافِع وراء جُهُودِهم النّحوية كان دِينِيًّا، وهو بَعِيد كلّ البُعْد عَن الدَّوَافِع الّتي تَدْفَعُ اللّسانيين الغَرْب لِدِرَاسَة لُغَة من اللُّغات.

خاتمـة

خاتمة:

بعد الانتهاء من إنجاز هذا البحث، تم التّوصّل إلى النتائج التالية:

- أحس النّحاة الأوائل بخطورة اللّحن ومدى تأثيره على النّص القُرآني، ومَضَامينه مُنذ زَمن بعيد، يمتدّ إلى زمن علي رضي الله عنه، وأبي الأسود الدّؤلي.
- أسّس للنّحو العربي أبو الأسود الدّؤلي، بأمرٍ من علي رضي الله عنه.
- اِجتهد أبو الأسود وتلاميذه في وضع اللَّبِنات الأولى للنّحو العربي.
- ظهر، مع نهاية القرن الأوّل للهجرة، واضع المنهج العلمي الّذي اتّبعه النّحاة الأوائل في التقعيد للعربية، وهو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117 هـ) ومؤسّس النّحو البصري.
- تفطّن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي إلى القياس الاستقرائي، بصفته أصلاً من أصول النّحو، يُتَوَصّل به إلى ضبط قوانين العربيّة.
- أدرك عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ضرورة وجود أصل سابق للقياس الاستقرائي هو "السّماع".
- خرج عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي إلى ميدان التّحريات لممارسة السّماع، قصد توفير مادّة لُغويّة قابلة لإخضاعها للقيّاس الاِستقرائي.
- خرج أبو عمرو بن العلاء في سنّ الخامسة عشرة، وجمع من أفواه فُصحاء العرب كمًّا هائلاً من المادّة اللّغوية السّليمة القابلة للدّراسة.
- وَضَعَ النُّحاة الأوائل شرطا الاطّراد، وشيوع الاِستعمال للحكم على سلامة المسموع.
- أدرك النّحاة الأوائل ضرورة وجود حدود زمانية، ومكانيّة للسّماع، فأسّسوا لما يُعْرَف بِعَصر الاِحتجاج.
- حدّد النّحاة الأوائل مصادر السّماع كالتّالي: القرآن الكريم، وكلام العَرب شعرًا ونثرًا، مع اِحترام رُقعة الفَصاحة اللُّغوية.

- ظهر فريق من النُّحاة، سبق وأنْ تتلمذوا على يد نحاة البصرة، بأفكار تُخَالف المذهب البصري، وأسّسوا للمذهب الكوفي.
- أسّس للمذهب الكوفي أبو جعفر الرّؤاسي، ونضج هذا المذهب، من بعده، على يد حمزة الكِسائي وتلميذه الفرّاء من بعده.
- ألّف الفرّاء كتاب "معاني القرآن" مجال بحثنا هذا، وأجمع الدّارسون على أنّه أوّل مُصَنَّف جامع لآراء ومبادئ مدرسة الكوفة.
- لم تختلف المدرستين في السّماع، أصلاً سابقاً للقيّاس، لكن اختلفت في مصادره، حيث أخذ المذهب الكوفي بالحديث والقراءات القرآنية، إضافة إلى القرآن، وكلام العَرب.
- توسّع الكوفيّون في الأَخْذ بِشِعْر المولَّدين، والبيت الواحد، والشّعر مجهول القائل، والشّاذ والنّادر في اللُّغة.
- للسّماع طريقتان، طريقة مُباشرة وهي الخُروج إلى البيئات الطّبيعيّة للعرب، والسّماع من أفواههم مُباشرة، وطريقة الرّواية إمّا عنْ الأعْرَاب مُباشرة، أو عنْ الشّيوخ والرّواة المؤْثُوقِين عَنِ الأَعْراب وفُصحاء العرب.
- لم يَكْتَفِ النُّحاة الأوائل باسْتقراء المادّة اللُّغوية المجموعة ووَضْعِ القاعدة، بلْ اعْتَبروا الإتيان بالشّواهد من مُختلف المصادر جزءًا تكميليًّا لعمل النّحوي لم يُسْتَغْنى عنه في كلّ المصَنّفات التراثيّة.
- لا تُمثّل الشّواهد اللّغوية في كُتب التُّراث كلّ المسْموع، بلْ هي عيّنة محدودة مِن مُدَوّنة ضخمة لا تَسَعُها مُصَنّفَات النُّحاة، ولا ذاكرتهم، أتى بها النُّحاة لإثبات صحّة قاعدة، أو اِسْتعمال لُغوي، لا لجَعْلها كلّ المسموع.
- ظهرت في زمان جَمْع اللُّغة العِلْمي المتأخّر أضْخم المعاجم العربيّة الأولى، بعد كتاب"العِين" للخليل بن أحْمد، مثل: "الجمهرة" لأبن الدُّريد، و"تهذيب اللّغة" للأزْهري اللّذان تُؤُلِّفا عنْ طريق الرّواية.
- ألّف الجوهري"الصّحاح" في مُعظمه، ممّا سَمعه مباشرة عن أهل الحجاز، ومختلف القبائل العربيّة.

- خُتم التّدوين العلمي للّغة (النّثر) بنهاية القرن الثّالث والرّابع الهجريين.
- آخر من سَمِع عن العَرب هُوَ أبن جنّي ت(392هـ).

بقراءة الجزء الأوّل من "معاني القرآن"، والبَحث في مادّتِه والتّطبيق عليها، توصّلنا إلى النّتائج التّالية:

- نضج النّحو الكوفي على يد يحيى أبو زكريّا، الفرّاء، وجمع مبادئه في كتاب "معاني القرآن".

- خالف الفرّاء بعض آراء أستاذه الكِسائي، والخَليل وتلميذه سِيبويه، زعيما المذهب البصري.

- جاء الكِتاب، إلى جانب آراء المذهب الكوفي، موسُوعيًّا حافلاً بمباحث لُغويّة مِنْ مِثْل: مبَاحِث في اللَّهَجات والدّلالة، وعِلْم المعاني، وغيرها رغم أنّه كِتاب موضُوع لتفسير كتاب الله تعالى.

- آمن الفرّاء بالسَّمَاع أصلاً، وبأَسْبَقِيّتِه عنْ القيّاس، وخرج إلى ميدان التّحريات، وأقام بين فُصحاء العرب طويلاً للتّمكّن من التّمييز بين فَصِيح اللُّغة ومَلْحُونِها.

- جاب الفرّاء مِسَاحة شاسِعة، تَمْسح مُعظم أقاليم شبه الجزيرة العربيّة، وأَخَذ اللُّغة من أصولها.

- ذكر الفرّاء القبائل العربيّة الّتي أَخَذ عنها، سواء كلام أهلها من الفُصحاء، أو مروياتهم الشّعرية عن فُصحاء الشّعراء.

- أخذ الفرّاء عن الرّواة الثُّقاة، وتَحَرَّج كثيرًا في الرّواية.

- أخذ الفرّاء عن فُصحاء الأعْراب الّذين كانوا يَفِدُون إلى الكوفة.

- توسع الفرّاء في الأخْذ بمصادر المسْمُوع كلّه: القرآن وقراءاته، والحديث الشّريف، وكلام العرب شعرًا ونثرًا.

- أخذ الفرّاء عن كلّ الطّبقات الّتي وَضَعها النُّحاة للشّعراء (ت 207 هـ).

– اِحْتَجّ الفرّاء بِشِعر مَجْهُول القائل، في الجزء الأوّل، من "معاني القرآن".

– اِحتج الفرّاء بالنّثر على نطاقٍ واسِعٍ، والدّليل إكثاره من عبارات: "ومثله في الكلام"، و"العرب تقول"، وباقي الأمثلة التّوضيحيّة الّتي يَسُوقها عند كلّ رأي، أو قاعدة.

وأمّا النّتائج الخاصّة بالرّد على تُهَم ومَزَاعِم المسْتشرقين فهي كالتّالي:

– اِعتمد الفرّاء على لُغة العَرب جميعًا، ولم يَعْتمد على لُغة قُريش لوحدها، لأنّها لا تُمثّل اللُّغة العربيّة المشتركة، بلْ إنّ هذه الأخيرة مَزِيجٌ مِنْ كلّ ما تتكلّمه القبائل العربيّة.

– لُغة الشّعر العربّي لا تُعْتَبر اللُّغة الأدبيّة للعرب، بلْ هي لُغة التّخاطب اليوميّ، ولُغة القرآن، لِذلك كان من اليسير على الفرّاء الإتْيان بالشّواهد والاِنْتِقال مِنَ القُرآن إلى الشِّعر، ومِنَ الشِّعر إلى النّثر، والعكس.

– لم يُغْفِل الفرّاء اللّهجات، بلْ لمْ يُوَفّر جُهْدًا في الإشارة إلى الفوارق الموجودة بين العَرب حتّى على المسْتوى الصّوتي.

– اِعْتدّ الفرّاء بالرّواية، وتحرّج فيها وتحرّى صِدْق المرويات، ونَسَب الأقْوَال والأحَادِيث إلى قائلها الأوّل، مُحْتَرِما صحّة السّند.

– أخذ الفرّاء بالشّعر الجاهلي، رغم بُعْد عَهده عنه، مادّة، إيمانًا منه بخصوصيّة نمطِ عَيْش العَرب، وطَرِيقة حِفْظهم لأيّامهم وأَنْسَابهم وأخْبارهم، كَوْنُه نَشأ بين العَرب، أوّلاً، وعَاشَ فِي عَصْر التّدوين، ودوّن هو الآخر لُغة العرَب، بعدما كانت في أفْوَاهِ وعُقُول الحفَظَة ثانيًا.

– اِعتمد الفرّاء على كُتب الطّبقات الّتي اهْتمّت بالشّعر الفَصيح الأصِيل، والشّعر الموضُوع المنْحُول، تَحَرُّجًا منه في الرّواية.

– اِشتغل الفرّاء على أضخم مُدَوّنة عربيّة عَرَفها النُّحاة حتّى زمانه، بدليل اِمتلاكه لكِتاب سِيبويه، أضْخَم كِتاب للمذهب البصري، ويحتوي على أكبر قَدَرْ من الشّواهد اللُّغوية إلى زمان الفرّاء، ومُمارسته للسّماع المباشر ومعايشته لفُصحاء العَرب والإقامة بينهم طويلا، والأخْذ عَنِ الكِسائي، صَاحِب التّوسّع في الأخْذ عَنِ العرب، والجامع للُّغة من مواطنها الأصليّة، في زمن الخليل.

– اِتبع الفرّاء مَنْهَجا علميًّا سليمًا إلى حدّ مَا، باعْتبار المعطيات الفكريّة، وطُرُق البَحث ومناهجها في زمانه المبكّر.

– لا تختلف اللّسانيات الحديثة، الّتي وَضَعت المنهج الوصفي منهجًا ملائمًا للدّراسات اللُّغوية، مع مَنْهج الفرّاء في بحثه النّحوي.

– لا يختلف مبدأ الاِسْتقراء الّذي تُطبّقُه اللّسانيّات الحديثة على المادّة اللُّغوية، للوُصول إلى الحقائق والقوانين العامة للُّغات مع مبدأ استقْراء النّحاة العرب.

– لا تختلف اللّسانيات الحديثة، في اعتمادها على المنْجز (الملفوظ أو الكلام)، في دراسة اللُّغات، مع ما قام به الفرّاء مِنْ اِشْتِغال على المسموع.

– تَوَسُّع الفرّاء في مصادر المسموع ورُقْعة الفَصَاحة والأخْذ باللّهجات، والعرب المسموع عنهم، والتّنْويع في طريقة الجَمْع (المشافهة والرّواية)، وفّر له مُدَوَّنَة ضَخْمة جدًّا، تَنْفِي مَزَاعم المسْتشرقين بخصوص محدودية المدَوّنة العربيّة.

– حجم المدَوَّنة الضّخم الّذي اِشتغل عليه الفرّاء، في الجزء الأوّل، يُثبت مدى شُمولية اِسْتقْرائه نِسْبِيًّا.

وقد توصّلنا، بعد عرض نتائج البحث، إلى الاقتراحات التّالية:

– يجْدر بالعرب والغرب التّسليم بأنّ اللُّغة الّتي نزل بها القُرآن هِي لُغة العرب جميعًا في زمن نزوله، ودليل ذلك الآيات القرآنية الّتي وردت في إثبات ذلك، ومعنى كَلِمة "لغة" في زمان سِيبويه، وعمليّة التّفاهم الّتي كانت واقعةً بين كلّ قبائل العرب، وأُعتماد اللّغويين على عبارات نحو: ومثل ذلك في القرآن، أو الشّعر العربي والقراءات وحقيقة التّخاطب في القديم بلُغة القرآن والشّعر.

– يَجْدُر بالعَرب المحْدثين إعادة قراءة تُراثهم، والتّأكد مِن مزَاعم أيّ دَارِس آخر، غَريب عن اللُّغة العربيّة وثقافتها.

– يَجْدُر بالعَرب عدم التّسليم بكلّ ما جاء به المسْتشرقون، بلْ من الضّروري الاِعْتماد على أبْنَاء اللّغة في دراسة جهود أسلافهم.

– يُجْدَر بالعَرَب والغَرْب عدم الاِنْطِلاق منْ أي فِكرة مُسْبقة تخصّ الدّين أو اللّغة أو العِرق من شأنها الإخلال بالموضوعيّة في إصدار الأحكام، على جهود الآخرين العلميّة، لذلك يَجْدُر بكلّ باحِثٍ التحلّي بالموضوعيّة والأمانة حتّى لا يَبْخَسَ غيْره حق الاِبْتِكار والسّبق.

– وُجُود نقائِص في منهج النُّحاة العرب العِلمي يُبرّره غيّاب التّنظير للمناهج العلميّة في زمن التّأسيس للنّحو العربي، وزمن نُضْجِه لذلك يجب على كلّ مُعاصِر اِحْترام هذه الجهود، مهما كانت مآخذها، بل يجب الاِعْتِراف بحق السّبق والابْتِكار، تماماً كمَا أُعْتُرِف للهنود واليونان بجهدوهم في اللُّغة والنّحو والفلسفة من قبله.

– من أجل أن تكون الأحكام الّتي أصدرناها في حقّ جهود الفرّاء النّحويّة أكثر عدلاً وتوثيقًا وشموليّةً، نقترح على الباحثين وطلبة العلم التوسّع في البحث في **"معاني القرآن"** بأجزائه الثّلاثة في موضوع المسموع والشّاهد، في دراسات مستقبلية طمعًا في كشف كنوز التّراث العربي.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

المصادر:

1- الأنباري، عبد الرّحمن كمال الدّين. لمع الأدلّة في أصول النّحو. تحقيق سعيد الأفغاني. ط2. بيروت: دار الفكر، 1391هـ-1971م.

2- ـــــــــــــــــــــ. نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. دط. القاهرة: دار الفكر، 1418هـ-1988م.

3- الحموي، ياقوت. معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. تحقيق إحسان عبّاس. ط1. لبنان: دار الغرب الإسلامي،(المجلّدات السّتة).

4- ابن الجزري، محمّد بن محمّد. النّشر في القراءات العشر. تحقيق علي محمّد الضّياع. دط. دمشق: المطبعة التّجارية الكبرى، دس.

5- الجمحي، ابن سلاّم. طبقات الشّعراء. دط، بيروت: دار الكتب العلميّة، 1422هـ-2001م.

6- ابن جنّي، عثمان. الخصائص. تحقيق محمّد علي النّجار. دط. مصر: المكتبة العلميّة، دس، ج1.

7- ابن خلكّان، شمس الدّين. وفيات الأعيان. تحقيق إحسان عبّاس. دط. بيروت: دار صادر، دس، ج3.

8- محمّد بن حسن، الزّبيدي. طبقات النّحويين واللّغويين. ط2. مصر: دار المعارف، 1984م.

9- ابن السرّاج، أبو بكر محمّد بن سهل. الأصول في النّحو. تحقيق عبد الحسين الفتلي. ط3. بيروت: مؤسسة الرّيالة، 1417هـ-1996م، ج1.

10- سيبويه، عمر بن عثمان. الكتاب. تحقيق عبد السّلام محمّد هارون. دط. القاهرة: مطبعة المدني، 1412هـ-1992م.

11- السّيوطي، جلال الدّين. الإقتراح في إصول النّحو. ط2. دمشق: دار البيروني، 1425هـ-2004م.

12- ـــــــــــــــ. بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. ط2. القاهرة: 1399هـ-1979م، ج2.

13- ـــــــــــــــ. المزهر في علوم اللّغة وأنواعها. دط. بيروت: المكتبة العصريّة. دس. ج1.

14- ابن فارس، أحمد. الصّاحبي في فقه اللّغة وسنن العرب في كلامها. تحقيق عمر فاروق الصّبّاغ. ط1. لبنان: مكتبة المعارف، 1414هـ-1993م.

15- الفرّاء، يحي أبو زكريّا. معاني القرآن. تحقيق محمّد علي النّجارق أحمد يوسف نجاتي. ط3. بيروت: عالم الكتب، 1403هـ-1983م.

16- اللّغوي، عبد الواحد بن علي. مراتب النّحويين. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. دط. القاهرة: مطبعة نهضة مصر، 1375هـ-1955م.

17- المبرّد، محمّد بن يزيد. المقتضب. تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة. ط3. القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، 1415هـ-1994م، ج1.

المراجع:

الكتب:

1- الأفغاني، السّعيد. في أصول النّحو. دط. بيروت: المكتب الإسلامي، 1407هـ-1987م.

2- أنيس، إبراهيم. في اللّهجات العربيّة. دط. القاهرة: مكتبة الأنجلو.

3- بروكلمان، كارل. تاريخ الأدب العربي. ترجمة عبد الحليم النّجّار. ط5. مصر: دار المعارف، 1983م، ج1.

4- الحاج صالح، عبد الرّحمن. السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة. دط. الجزائر: موفم للنشر، 2012م.

5-ـــــــــــــــــــ. منطق العرب في علوم اللّسان. دط. الجزائر: موفم للنشر، 2012.

6- الحديثي، خديجة. الشّاهد وأصول النّحو في كتاب سيبويه. ط1. الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، 1394هـ-1974م.

7- حسّان، تمام. الأصول. دط. القاهرة: عالم الكتب، 1420هـ-2000م.

8- جبل، محمّد حسن. الاحتجاج بالشّعر في اللّغة: الواقع ودلالته. دط. القاهرة: دار الفكر العربي. دس

9- دياب، عبد المجيد. تحقيق التّراث العربي: منهجه وتطوّره. ط2. دار المعارف: القاهرة، 1993م.

10- الرّافعي، مصطفى صادق. تاريخ آداب العرب. ط1. القاهرة: دار ابن الجوزي، 2010م.

11- السّامرائي، إبراهيم. المدارس النّحوية: أسطورة وواقع. ط1. عمّان: دار الفكر، 1987م.

12- السّامرائي، فاضل. أبو البركات الأنباري ودراساته النّحوية. ط1. بغداد: 1395هـ-1975م.

13- أبو السّعود، صابر بكر. القيّاس في النّحو العربي من الخليل إلى ابن جنّي. دط. أسيوط: مكتبة الطّليعة، 1978م.

14- صلاح، محمّد سالم. أصول النّحو: دراسة في فكر الأنباري. ط1. مصر: دار السّلام، 1422هـ-2006م.

15- الطّنطاوي، محمّد. نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة. ط2. القاهرة: دار المعارف، 1995م.

16- عمايرة، اسماعيل أحمد. بحوث في الاستشراق واللّغة. ط1. عمّان: دار البشير، 1417هـ-1996م.

17- عيد، محمّد. الاستشهاد والاحتجاج في اللّغة. ط3. القاهرة: عالم الكتب، 1988م.

18- ـــــــ. أصول النّحو العربي. ط4. القاهرة: عالم الكتب، 1410هـ-1989م.

19- المطعني، عبد العظيم إبراهيم. افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد. ط1. القاهرة: مكتبة وهبة، 1413هـ-1992م.

20- أبو المكارم، علي. أصول التّفكير النّحوي. ط1. القاهرة: دار غريب، 2006.

21- ناصيف، علي النّجدي. سيبويه إمام النّحاة. ط2. القاهرة: عالم الكتب، 1979م.

22- نحلة، محمود أحمد. أصول النّحو العربي. ط1. لبنان: دار العلوم العربيّة، 1407هـ-1987م.

المقالات العلميّة:

1- يحي عبد الرّؤف، جبر. "الشّاهد النّحوي". مجلّة النّجاح للأبحاث، 6، 2(1992م).

الأبحاث الأكاديميّة:

1- ناهر ضيف الله، نورة. "الشّذوذ في الشّاهد الشّعري بين الدّلالة والاستعمال". رسالة ماجستير. جامعة الملك فهد عبد العزيز. السّعودية ، 1432هـ.

قائمة المصادر والمراجع

المعاجم والقواميس:

1- الأزهري، محمّد بن أحمد. تهذيب اللّغة. تحقيق محمّد عوض مرعب. ط1. بيروت: دار إحياء التّراث العربي. 2001م. مج6.

2- أنيس، إبراهيم وآخرون. المعجم الوسط. ط4. القاهرة: مجمّع اللّغة العربيّة، 2004.

3- اللّبدي، محمّد سمير نجيب. معجم المصطلحات النّحوية والصّرفية. ط1. الأردن: دار الفرقان، 1405هـ- 1985م.

4- ابن منظور، جمال الدّين. لسان العرب. دط. بيروت: دار صادر، دس، مج8.

المواقع الإلكترونية:

1- https://www.islamweb.net تمّ تصفّح الموقع يوم 05-09-2020 على السّاعة 20:18.

2- ar.m.wikipedia.org، تم التصفح يوم 6 جويلية 2020م.

3- ar.wikipedia.org، تم تصفح الموقع يوم: 2020/09/10، على الساعة: 01:38 صباحا.

قائمة الملاحق

فهرس الآيات القرآنية

الآية	السّورة	رقم الآية	الصفحة
	الفاتحة		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾		02	109
﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾		07	134
	البقرة		
﴿الم﴾		01	149
﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾		02	149
﴿يكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ...﴾		20	140
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾		20	140
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾		26	141–133
﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾		35	131
﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾		41	151
﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾		42	135
﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾		61	126
﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾		154	121
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾		161	139
﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾		170	121
﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾		171	151
﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾		173	122
﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾		177	140
﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾		187	128
﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾		229	36
﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾		249	135

﴿أَوْ كَالَّذِي﴾		259	145
﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾		260	145
﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾		286	124
	آل عمران		
﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾		12	124
﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾		37	146
﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾		52	110
﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾		103	137
﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾		140	124
	النّساء		
﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ		01	125
بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾		34	
﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾		59	129
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ		171	64
إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾			122
	المائدة		
﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾		06	156
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا﴾		38	133
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾		106	54
	الأنعام		
﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾		23	110
﴿قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾		137	146–36
﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾		160	156
	الأعراف		

﴿مَعَايِشَ﴾		10	36
﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾		59	148
	الأنفال		
﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾		14	150
﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾		38	124
	التّوبة		
﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾		07	111
﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾		79	124
﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا﴾		122	111
	يونس		
﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾		22	147
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾		26	156
﴿أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾		35	124
﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾		37	110
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾		44	147
﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾		48	129–125
﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾		71	134
	هود		
﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾		12	122
﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾		78	35
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾	يوسف	02	75

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾	إبراهيم	04	75
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾	الحجر	09	33
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾	النّحل	44	64
﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾	الكهف	23	137–121
﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾	الحجّ	15	37
﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾	الشّعراء	26	33
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾	الرّوم	06	122
﴿آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾	لقمان	21	122
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾	الأحزاب	45	54
﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ... هَذَا ذِكْرٌ﴾	ص	49–45	150
﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾	ق	19 37	150 26
﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ... كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾	القمر	07–06	83
﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ... وَحُورٌ عِينٌ﴾	الواقعة	22–17	126

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾	الحشر	07	64
﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾	الطلاق	06	124
﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾	الإخلاص	04	77

الحديث	الصّفحة
1- "أوصي امرأً بأمّه".	127
2- "الكمأة من المنّ وماؤهَا شفاء للعين".	127
3- " والله لا يقوله أحدٌ، حتّى غصّ بريقِه".	127
4- "يرحم الله هذا، هذا أذكرني آيات قد كنت أُنسيتهُنّ".	128
5- "إنّك لعريض القفا، هو اللّيل والنّهار".	128
6- أُمِرْتُ بالسّواك حتّى خفت لأَدردَنّ".	128
7- "لِتأخذوا مصافّكم".	129

فهرس الأبيات الشّعرية

البيت الشّعري	الصفحة
أوّلاً: الأبيات معلومة القائل	
1- الشّعراء الجاهليّون	
أ- امرؤ القيس:	
فَقلتُ لهُ صوِّبْ ولا تجهَدَنّهُ *** فَيُدْرِكَ من أُخرى القطاةِ فَتَنْزُلِقِ	**131**
ب- زهير بن أبي سلمى:	
❖ ***قف باللّديار التي لم يَعْفُها القِدمُ *** بلَى وغيّرَها الأرواح واللّيَم***	**132**
❖ ***أمِنْ أمّ أوْفَى دمنةٌ لم تكلّمي *** بحومانة الدّراج فالمتثّم***	**132**
جـ- الأعشى:	
إلى رجلٍ منهم أسِيفٍ كأنّما *** يضمّ إلى كَشْحَيْه كفّا مُخضّبا	**119**
د- منحول نسب إلأى أميّة بن الصّلت:	
ويَوْم مَوْعِدهم أَنْ يُحشروا زُمَرًا *** يوم التّغابن إذْ لا ينفع الحذر	**82**
مُستوْسِقين معَ الدَّاعي كأنّهم *** رِجْلُ الجَراد زَفّته الرّيح منتشر	
2- الشّعراء المخضرمون	
أ- عبد الله بن الزّبعري:	
ورأيت زوجك في الوغى *** متقلّدا سيفًا ورمحًا	**134**
ب- حسّان بن ثابت:	
فكفى بنا فضلا على من غَيرنا *** حبُّ النّبيِّ محمد إيّانَا	**132**

جـ- أبو ذؤيب:	
فَتخالَسَا نفسيهمَا بنوافذ *** كنوافذ العُبطِ التي لا تُرقَعُ	**133**
3- الشّعراء الإسلاميّون	
أ- قال جرير:	
❖ ***خلّ الطريق لمن يبني المنار به *** وابْرز ببرزة حيث اضطرّك القدر***	**40**
❖ ***ما كان يرضى رسولُ الله دينهم *** والطّيبان أبو بكر ولا عُمَرُ***	**134**
ب- الفرزدق:	
كم عمّة لك يا جريُر و خالة *** فَدْعَاءَ قد حلبت عليَّ عِشاري	**135**
4- الشّعراء المولّدون	
أ- الأخطل:	
لا تنهَ عن خلقٍ وتأْتيَ مثلَهُ *** عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ	**135**
5- ما أنشده بعض الرّواة والنّحاة وفصحاء الأعراب	
أ- الكِسائي:	
إنّي سأُبدي لك فيما أُبدي *** لي شَجَنان شجنٌ بَنجْدٍ	**116**
وشجنٌ لي ببلاد السِّند	
ب- أبو ثروان:	
❖ ***قال الجواري ما ذهَبْتَ مذهَبًا *** وعِبْتَني ولم أكُن معيّبا***	**117**
❖ ***مَا كان مُنْذُ تَرَكْنَا أَهْلَ أَسْنُمةٍ *** إلاَّ الوجيفَ لهَا رَعْيٌ ولاَ عَلَفُ***	**155**
جـ- المفضّل الضّبي:	

❖ أفَاطِمَ إنّي هالكٌ فتبّيني *** ولا تَجْزعي كلّ النّساء يئيمُ	105
❖ حسِبت بُغام راحلتي عَناقًا *** وما هي وَيْب غيْرِكِ بالعَناق	154
د- أبو القاسم بن معن:	
حلفت لهُ إنْ تُدْلجِ اللّيل لا يزلْ *** أمامك بيتٌ من بيوتي سائر	138-117
هـ- أبو الجرّاح:	
أزجْرًا تريدُ أم قريضًا *** أم هكذا بينهما تعريضًا	117
و- الخليل بن أحمد بن محمّد بن الخليل بن موسى:	
وَأَجْعَلُ، في النَّحو الكِسَائي عُمْدَتي *** وَمِنْ بَعْدِهِ الفَرَّاءُ ما عِشْتُ سَرْمَدَا	104
ز- محمّد بن الجهم:	
أكثر النّحو يزْعم الفرّاء *** مِن وُجوهٍ تأويلُهنّ الجَزاء	104
نَحْوَهُ أحْسَن النَّحو فَما فيـ *** ـهِ مُعيبٌ وَلَا بِهِ إزْرَاءُ	
لَيس مِنْ صَنْعَة الضّعائف لَكِنْ *** فِيه فِقْه وحِكْمَةٌ وضِياءُ	
حـ- الفرّاء:	
لَن تَراني لكَ العُيون بَبابٍ *** لَيسَ مِثْلي يَطِيقُ ذُلّ الحُجّاب	107
يا أميرًا عَلى جُرَيْبٍ مِنْ الأرْ *** ضِ لَهُ تِسْعَةٌ مِنَ الحُجّابِ	
جَالِسًا في الخَرابِ يُحْجَب فيه *** مَا رَأَيْنَا إمارَةً في خَرابِ	
ط- أَبُو القَمْقَامِ الفَقْعَسِي:	
كَأَنَّ مَكاكيّ الجِوَاءِ غُدِيَّةً *** نَشاوى تَساقَوا بالرّياح المُفَلفل	154

ي- الحارثي:	
تعلّمْتُ بَاجَادَ وَآلَ مَرامِرٍ *** وسوّدتُ أثْوابي ولَسْت بكاتب	155
ثانيًا: الأبيات مجهولة القائل:	
1- ما قال بعض العرب:	
أ- يا رُبّ يومٍ لو تَنَزاهُ حول *** أُلْفَيْتَني ذا عنزٍ وذا طولِ	117
ب- إذَا ما انْتَسبْنا لمْ تلِدْني لئيمةٌ *** ولمْ تَجِدِي مِن أنْ تُقِرِّي بها بُدَّا	118
جـ- لمّا رأيتُ نبطًا أنصارَا *** شمّرتُ عن ركبتيَّ الإزارَا كنتُ لهَا من النصارى جارَا	136
د- تعلّقت هندًا ناشئًا ذا مئزرٍ *** وأنت وقد قَارَفْتَ لم تدرِ ما الحُلُم	137
2- ما قال بعض بني القبائل العربية:	
أ- بني عقيل	
فقلنا السّلامُ فاتّقت من أميرَها *** فما كان إلا وَمْؤُهَا بالحواجبِ	153-137
ب- بَنِي دَبِير	
حَتّى إنْ أَعْصَفَت رِيحٌ مُزَعْزِعَةٌ *** فِيهَا قِطَار وَرَعْدٌ صَوْته زَجِل	147
جـ- بَني كلاب	
بَا سِلة الوَقْع سَرَابِيلها *** بِيضٌ إلى دَانِئِها الظَّاهِرِ	153
د- بَعْض رَبيعة	
وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبارِ مَنْ لَمْ تَبعْ لهُ *** بَتاتًا وَلْو تَضْرِب له وَقْتَ مَوْعدِ	153

هـ- بنِي عبَس	
أَلَمْ يَأْتيك وَالأَنْبَاء تَنْمِي *** بما لَاقَتْ لُبونُ بَني زِياد	**153**
و-بَنِي حَنِيفَة	
قَالَ لهَا مِنْ تَحْتِهَا وَمَا اسْتَوى *** هُزِّي إِلَيكِ الجِذْع يَجْنِيك الجَنَى	**154**
ز- بعض بني سليم	
وَفَرْعٍ يَصِيرُ الجِيدَ وَحْفٍ كَأنّه *** عَلَى اللّيْتِ قِنوَانُ الكُروم الدَّوَالِح	**146**
3- ما ورد بعبارة: قال الشّاعر	
أ- ***وإذا هُمْ طَعِمُوا فَأَلْأَمُ طَاعِمٍ *** وإذا هُمْ جَاعُوا فشرُّ جِيَاعِ***	**151**
ب- **لَقَدْ خِفْتُ حتّى مَا تَزِيدَ مَخَافَتي *** عَلَى وَعْلٍ فِي ذِي المَطَارة عَاقِلِ**	**152**
جـ- ***وبلدٍ ليس به أنيس *** إلاّ اليعافيُر وإلاّ العيسُ***	**136**
د- ***تُعَلَّقُ في مثلِ السّواري سُيُوفُنا *** وما بينها والكعبِ غوط نَفانِف***	**126**
هـ- ***لتقْرُبنَّ قَرَبًا جُلديًّا *** ما دام فيهِنَّ فَصِيلٌ حَيَّ***	**77**

المخططات البيانية والخرائط

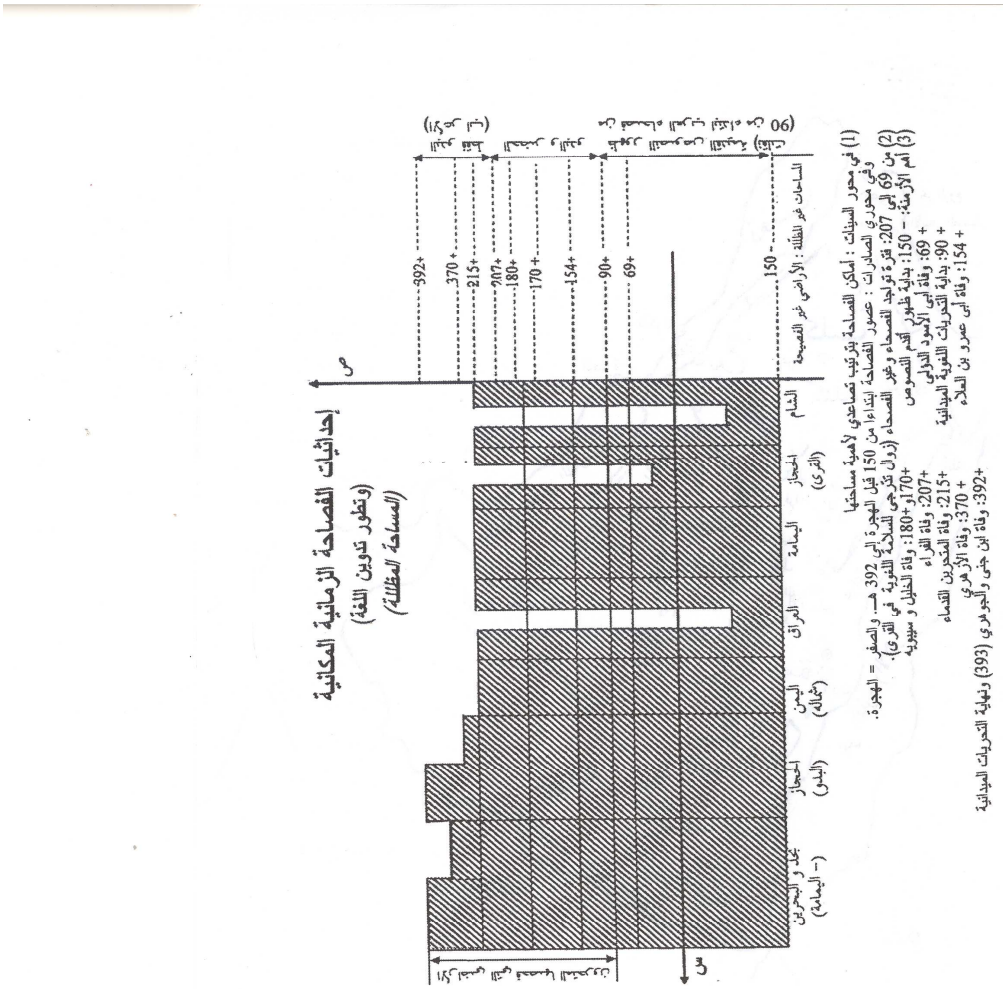

133

توزيع قبائل العرب في العصر النبوي
إعداد: عبد الله الحمياني
*مازال القليل منهم يدخل في الكثير حتى جاء الإسلام وهم على ثمانية وأربعين كيانًا تقريبًا.
تغلب
تنوخ
همراء
إياد
عاملة
غسان
كلب
بكر
لخم
بلقين
جذام
طي
أسد
عذرة
بلي
غطفان
جهينة
سليم
حنيفة وحلفاؤها
عبد القيس
مزن عمان
هوازن
خثعم
مهرة
اليمن

ملخص:

يتطرّق هذا البحث للأصل الأول من أصول النّحو: السّماع الذي اعتمده أوائل النّحاة العرب في التّقعيد للعربية، ويبحث في العلاقة بينه وبين الشّاهد النّحوي في الدرس النّحوي العربي محاولا إثبثات علاقة الكل بالجزء، حيث يوضح أن الشاهد عيّنة محدودة من مجمل المسموع، كما يتطرق لمزاعم المستشرقين بخصوص القصور في الجهود النّحوية العربية بناء على هذه العلاقة، من خلال البحث في طبيعة المادة اللغوية المسموعة من طرف أوائل النحاة، ومن خلال البحث في مدى مصداقية الرّواية العربية التي اعتمدت في عملية جمع هذه المادة، وأخيرا من خلال البحث في المنهج الاستقرائي الذي اتبعه أوائل النحاة لدراسة هذه المادة اللغوية المجموعة، والتأسيس لقواعد اللغة العربية، ومنه فهذا البحث يبحث في مدى علميّة عمليّة التقعيد للعربية بناء على طبيعة العلاقة بين المسموع والشّاهد، ليصل في الأخير إلى دحض مزاعم المستشرقين وإثبات سعة المدوّنة العربية، وصدق المروّيات المأثورة عن جمّاع اللغة العربية، وسلامة المنهج الاستقرائي المتبع في عملية التقعيد اللغوي وشموليّته نسبيا، وذلك من خلال التطبيق على الجزء الأول من "معاني القرآن" للفرّاء.

الكلمات المفتاحية: السّماع، المسموع، الشّاهد النّحوي، علاقة الكلّ بالجزء، مزاعم المستشرقين، المادة اللّغوية المجموعة، الرّواية، صدق الرّواة، المنهج الاستقرائي، السّلامة المنهجية، الشّمول.